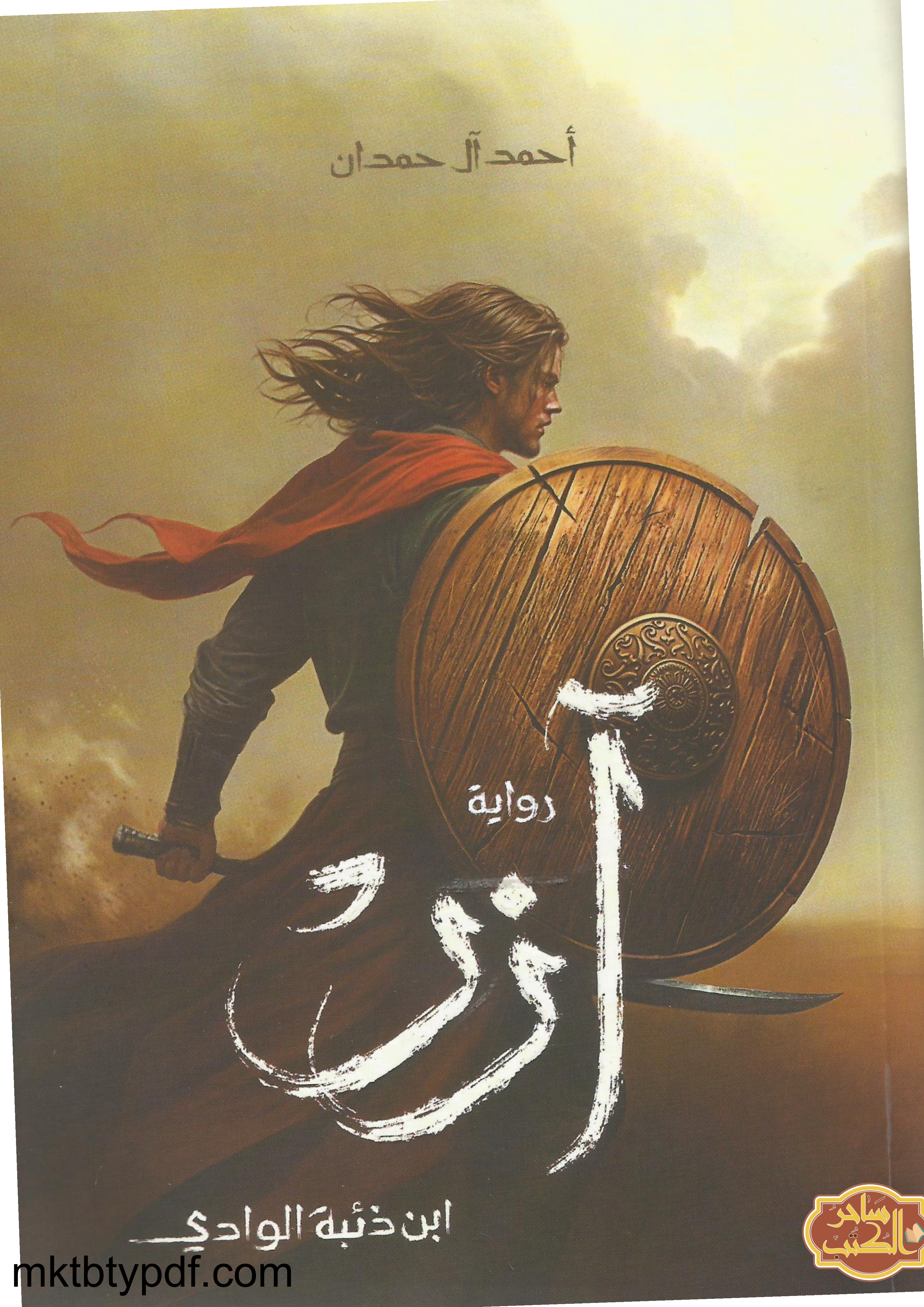

أحمد آل حمدان
رواية
آزر
ابن ذئبة الوادي

آزر

ابن ذئبة الوادي

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٣١٣٦
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤٦٧-٤٤-٢

للنشر : 0561212002
المبيعات : 0557067074
يمكنك طلب إصداراتنا
أو تقديم طلب نشر عبر الموقع
www.erfaa.com.sa
أو عبر البريد الالكتروني
info@erfaa.com.sa
erfaa_pd
أو من خلال تطبيق إرفا
App Store
Google Play

إرفاء
ERFAA
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution

الطباعة
مطبعة الكتاب العربي

ملحمة الليل والرمال

آزر

ابن ذئبة الوادي

مستوحاة من أحداث تاريخية

للمؤلف: أحمد آل حمدان

ليسَ بوسع المرء أن يَنالَ المَجد،
دُون أن يدفع نصيبه من الألم.

ما جاءت المرأة إلا لأمرٍ إدًّا،
افتح لها الباب ننظر في أمرها يا حِدًّا..

الباب الأول

١

ليلًا،

وعند سفح جبل قريب من الكعبة يُسمى (جبل أبي قُبيس)،

تعالت صرخات طفل رضيع كان مقمّطًا في خرقة بالية، يبكي وحيدًا وقد أضناه البرد ونال منه الجوع. لم ينتبه أحد من سكان الوادي - وادي مكة - إلى أصوات البكاء تلك الليلة .. ليس فقط لأن الوقت كان متأخرًا والجميع يغطُ في نوم عميق، بل لأن أزيز المطر كان يمنع صرخات البكاء من الوصول إلى الآذان المُنجدة.

وبينما الطفل على تلك الحالة، إذ ظهر مخلوقٌ ما من فوق قِمة الجبل، كان المخلوق عبارة عن ذئبة سوداء ضخمة راحت تدنو من الطفل مقتربة بهدوء مُربك، ومرعب معًا وبخطوات لا تُبشر بالخير أبدًا ..

هي لم تكن جائعة، لكنها كانت في حالة من الغضب الشديد؛ فقبل أيام قليلة قام بعض الصيادين من بني البشر بقتل جروها الوحيد؛ وقد حان الأوان لتلك الأم الكسيرة أن تفتك بأحد صِغار البشر انتقامًا لمقتل صغيرها.

لكن الذئبة ما كادت تقترب منه للحد الذي لم يعد يفصلها عنه غير ضربة مخلب واحدة وتُحقق ثأرها، حتى حدث ما لم يكن متوقعًا: فقد هدأ الرضيع تمامًا؛ وكأنما إحساس غامض بالأمان اجتاح أعماقه عندما استأنس وجود كائنٍ حي بالقرب منه. كان ضعفه وقِلة حيلته وخلجات أنفاسه المُتعبة بعد البكاء، هو ما تسبب في تحريك غريزة الأمومة لدى الذئبة؛ وجعلها ترى صورة جروها الميت مُتمثلة في هذا الطفل البشري الحي.

حارت الذئبة ولم تعد تدري ما تصنع: غضبها يأمرها بقتله، أما قلبها فيطلب منها احتواءه، وبين هذا وذاك طافت حوله قليلًا وهي تصارع الصوتين بداخلها، لا تدري أتنصاع لصرخات الغضب أم تُلبي نداء القلب.

٢

أخيرًا جذبته من طرف القِماط وحملته إلى قِمة الجبل حيث تنهض شجرة سِدر عَتيقة وافرة الأغصان، احتمت به تحت أوراقها من زخات المطر وهي تلف جسدها حوله لتمنحه بعض الدفء، ثم راحت تلعق جسده بلسانها حتى عاد الدم إلى وجهه الشاحب وسَكن في حضنها.

بعد لحظات يسيرة من ذلك بدأت أصوات غريبة تنبعث من بطنه أعقبها صوت أنين يُقارب البكاء؛ أدركت الذئبة غريزيًا أنه جائع فعدلت من وضعية جسدها وقربت ثديها من عند أنفه، وما إن استنشق الرضيع رائحة الطعام حتى فتح فمه بحركة غريزية، وسارع في التقام حليبها الدافئ.

لانت ملامح الذئبة وهي تتأمل مشهد الرضيع وهو يتناول طعامه حتى غفا بسلام في حضنها .. ثم جعلت بعد ذلك تتأمل ملامحه الوديعة وثمة شعور غامض يُداهم قلبها تلك اللحظة: لقد أحست بأنها تحتاج إليه أكثر من حاجته إليها، فقد جعلها تشعر بأمومتها المسلوبة؛ وكأن أطفال الأرض كلهم تجمعهم البراءة والعفوية والفطرة الواحدة حتى وإن كانوا في أجناسهم مختلفين.

مكثت الذئبة مكانها حتى توقف المطر،

ثم نهضت على قوائمها الأربع بخفة حتى لا توقظ الطفل من سباته، وقد قررت أن تأخذه معها نحو زُمرتها - زُمرة ذئاب الوادي - مع أنها تدرك جيدًا أن الذئاب لن تقبل جنسًا دخيلًا عليها، لكنها سوف تستخدم سُلطتها كزوجة زعيم الزُمرة وتمنعهم من مهاجمته .. فحملته بأنيابها من قِماطه وابتعدت به بضع خطوات ثم توقفت فجأة وقد بان عليها التردد .. فرغم قدرتها على حمايته من غضب الزُمرة، إلا أن إحساسًا فطريًا بداخلها أخبرها بأن ذلك الصغير سيكون بحاجة إلى رعاية خاصة، لا يستطيع تقديمها إليه إلا أفراد قطيعه البشري؛ فبالرغم من قوة جنس بني البشر وتَسلُطهم، إلا أنهم مخلوقات تُولد ضعيفة في هذه الحياة وتموت إن لم تجد الرعاية الكافية؛ وهكذا وجدت نفسها بين مفترق صعب:

أتعيده إلى بني جنسه فتحفظ له حياته ؟

أم تحتفظ به فتجبر قلبها ؟

٣

نُمير بن رَبيعة

في ذلك الوقت المتأخر من الليل،

أفاق سيد وادي مكة (نُمير بن رَبيعة) لتوه من النوم بعد رؤيته حُلمًا غريبًا، وبينما كان يجلس على طرف السرير يسترجع تفاصيل الحلم ويحاول أن يجد له تأويلًا، إذ التقطت أذناه أصوات أقدام تتسحب داخل الفناء وتقترب من باب داره.

كان يُدرك أن تلك الخطوات ليست لصديق أو ضيف؛ فالصديق لن يأتيَ في مثل هذا الوقت المتأخر، والضيف لن يتسلل خِلسة هكذا، فامتشق سيفه وفتح الباب ليقبض على اللص الجبان، لكنه في عَتمة الليل لم يرَ رجلًا ولا امرأة، بل كانت ذئبة سوداء ضخمة جاءت تحمل بين فكيها طفلًا بشري.

أنزلت الذئبة الطفل أرضًا،

ثم جلست على قوائمها الخلفية خافضة رأسها أمام سيد الدار.

لقد عُرف السيد نُمير بن رَبيعة في قومه بإحياء الموءودة؛ فعندما يهمُّ أحد الرجال بدفن طفلته مخافة الفقر أو العار أو الشؤم، كان السيد يأخذها حتى إذا بلغت سِن الصبا أعادها إلى والدها وقد كفاه مؤونتها؛ وهذا ما جعل داره مقصدًا للكثير من الآباء أو الأمهات الذين ينبذون أطفالهم الإناث .. وهكذا فقد قصد دار ذلك الرجل الشهم الكثير من الرجال والنساء على مرّ الزمان، ولكنها المرة الأولى التي يقصده فيها وحشٌ من وحوش الوادي ..[1]

تقدم السيد نُمير بن رَبيعة وسط فناء داره بقدميه الحافيتين، حتى إذا وصل عند الرضيع انحنى عليه وحمله بين كفيه المليئتين بالحنان الأبوي، وأخذ يتأمله بين يديه ..

هنا، تحرك الرضيع وتمطّى، وقد تسببت تلك الحركة في انكشاف القِماط عن جسده؛ ليتفاجأ السيد أن ما يُمسك به صبي وليست بنتًا كما كان يَتوقع، وتساءل في نفسه: " لطالما كانت الأنثى فقط هي من تُترك لتموت، أو يدفنها أبوها حية، لكن الغلام يكبر فيكون سندًا لأبيه وقومه، تُرى من ذا الذي – ولماذا – يتخلى عن غلام مكتمل الجوارح صحيح البدن ومعافى من العيوب ؟ "

---

١ (الموءودة) كان العرب في الجاهلية يدفنون الإناث من مواليدهم وهنّ على قيد الحياة مخافة العار أو الحاجة أو لأسباب أخرى، وهذا الفعل يُسمى (وأد)

امتدت يدُ الطفل في تلك اللحظة، وأمسكت بخصلة من شعر لحية السيد الكثيفة البيضاء. كانت حركة عفوية بالطبع، ولكنها جعلت ملامح السيد تُصاب بالرعشة والذهول؛ فقد كانت حركة الطفل غير المقصودة تلك، هي ما فسرت له حلمه الغريب والمخيف الذي رآه هذه الليلة.

**

سار السيد نُمير إلى خارج الدار وهو يحمل الرضيع بين ذراعيه وقد استطاع - بينما هو يتجه نحو الكعبة - أن يلمح الذئبة من زاوية عينه وهي تتبعه في جُنح الظلام؛ فأدرك لحظتها أنها تعتبر نفسها أمًا للطفل، إنها متعلقة به جدًّا وتخاف عليه كما لو أنه ابنها، وهذا بحسب خبرته لا يحدث إلا إذا كانت الذئبة قد أرضعت الطفل من حليبها.

وما إن وصل ناحية الكعبة حتى صعد بالطفل جبلًا قريبًا منها تُقدسه العرب وتجله، يُسمى جبل الصّفا، بينما اختبأت الذئبة قريبًا من هناك وأخذت تراقب بنظرات قلقة ما سوف يحدث بعد قليل ..[٢]

---

٢ (جبل الصّفا) هو النقطة التي بدأت منها هاجر - زوجة النبي إبراهيم - السعي بحثًا عن الماء لطفلها إسماعيل؛ ولهذا كان لذلك الجبل في قلوب أهل مكة منزلة كبيرة؛ فيقصدونه عندما يرغبون في إنذار قومهم بحدث جلل.

كان السيد نُمير يدرك جيدًا مشاعر الاستنكار والتعجب التي سيقابله بها أفراد قومه، بعد أن يكتشفوا سبب دعوته إليهم في هذا الوقت المتأخر من الليل .. ولكنه سيمضي قُدمًا فيما عقد العزم عليه؛ فالحلم الذي رآه في ليلته هذه خطير - بل خطير جدًا - ويجب عليه أن يحمي قومه مما هو قادم، فأخذ نفسًا عميقًا وصاح:

- **واصباحاااه .. واصباحاااه .. واصباحاااه ! !**

تُعدّ هذه الكلمة (واصباحاه) عند العرب بمثابة قرع طبول الحرب، لذلك ما إن خرجت من فمه حتى راحت قناديل الضوء تشتعل في البيوت واستيقظت العيون الغافية، بينما السيد يواصل نداءه:

- **يا سادة البطحاء، يا آل مكة، يا أهل الوادي، هلموا إليَّ ! ![3]**

**

وما إن ميّز الناس صوت المُنادي وعرفوا أنه سيّدهم نُمير بن رَبيعة حتى هبوا جميعًا: الكبار والصغار، السادة والعبيد، الفرسان والصعاليك، وقد حمل كُل منهم سيفه وعِدة حربه، وراحوا يركضون نحو مَنبع الصوت ينظرون الخطب والخبر. فاجتمع الناس تلك الليلة حول جبل الصّفا بوجوه متطلعة وقلوب واجفة ..

كل ذلك والذئبة تراقب ما يحدث من مخبئها بعين قلقة ..

---

٣ (سادة البطحاء) مصطلح يُقصد به سادة مكة .. (آل مكة) تعني أهلها الأصليين، أما كلمة (أهل الوادي) فهو مصطلح يعني جميع من يسكن وادي مكة.

مَهابة المشهد كانت تجعل الناظر من بعيد يُخيل إليه أن الفضول كان يسكن حتى الأصنام المنتصبة حول الكعبة، وكأنما هي الأخرى تريد أن تعرف ما الذي سيحدث بعد قليل، تأمل السيد وجوه الحشد من حوله للحظات قبل أن ينفرج فمه عن هذا السؤال:

- أفَقد أحدٌ منكم رضيعًا هذه الليلة ؟

أطبق صمتٌ غريب على المكان، وراح الناس يتبادلون النظرات فيما بينهم وكأنما لا يُصدقون؛ فقد جاؤوا يتوقعون حربًا أو غارة تُشن عليهم وإذ به يسألهم عن طفل رضيع ؟! ..

قطع السيد عليهم صمتهم ذاك في حدة وغضب:

- ثكلتكم أمهاتكم، ما لكم لا تُجيبون ؟

قال أحد السادة متحدثًا بلسان الجميع وباحترام يشوبه العتب:

- أصلحتك الآلهة يا نُمير .. أتوقظنا من مَرقدنا هذه الليلة لأجل رضيع جيء به إليك ؟! .. أما كنت تنتظر حتى يجتمع السادة في دار الندوة صباحًا فتحدثنا بشأنه ؟!

- هذا خطبٌ ليس كباقي الخطوب، وإنه واللات لا ينتظر حتى الصباح.

انبعث من أقصى يسار الحشد صوت سيدٍ آخر يقول متسائلًا:

- وأي خطب جلل في هذا والناس ما فتِئوا يطرقون عليك باب الدار، ويُلقون إليك بأطفالهم في الغداة والعشيّ ؟

- لأن طارق الدار لم يكن من البشر هذه المرة.

عاد الصمت يُطبق عليهم مرة أخرى،

صمتٌ لم يكسره غير صوت انبرى من وسط الحشود، لسيد مُهاب بين العرب اسمه (الحارث بن الأجهر) وهو الرجل الثاني في الوادي بعد السيد نُمير بن رَبيعة:

- ومن جاء بالرضيع إليك ؟

نظر السيد نحو زاوية خلفه وأشار بيده لمن فيها، فظهر من عُمق الظلام ذئبة سوداء ضخمة ذات فراء كثيف، سارت بقوائمها الأربع حتى وقفت إلى جواره. هنا تساءل الحارث وهو يكاد لا يصدق ذلك المشهد كحال غيره من الناس:

- أهذه الذئبة هي من أتت به إليك ؟

أومأ السيد نُمير برأسه، وأضاف وهو ينظر إلى وجوه الحاضرين:

- وأظن أنها قد أرضعته من حليبها أيضًا، ونصبت نفسها أمًا له.

وبينما الناس في غَمام من الذهول، إذ صاح السيد نُمير عليهم:

- **أُشهدكم يا أهل الوادي ! ! !**

شخصت أبصار الناس إليه وكُتمت الأنفاس .. وراحت أسماعهم تترقب ما سوف يُقال لهم، ثم رفع السيد نُمير الرضيع بكلتا يديه عاليًا، وقال بصوتٍ مَهيب:

- أُشهدكم أنني أسميته (آزر) وأُشهدكم أنني أكفله في حياتي ومماتي، وأنه منذ اللحظة تحت حِماي وجواري؛ يُصيبني ما يُصيبه ويمسني ما يَمسه، فمن تعرض له بسوء فقد أهدر دمه.

وما إن تأكد من أن صوته قد وصل إلى جميع الآذان حتى أرخى يديه وقال:

- وإكرامًا لمن جاءتني به؛ فهذه الذئبة أيضًا في حِماي وجواري.

ثم التفت ينظر إلى الناس ويسألهم:

- هل شهدتم ؟

كان ذلك موقفًا غريبًا لم يسبق لأحدٍ أن شَهد مثله من قبل: سيد القوم يستدعي الناس ليلًا، ليُشهدهم أنه يُجير طفلًا مجهول النسب، ووحشًا من وحوش الوادي.

- ما لكم لا تُجيبون ؟ أأصابكم الخرس أم العته ؟

إكرامًا لسيدهم، قالوا بصوت واحد:

- شهدنا، شهدنا ! !

**

انصرف الناس بعد ذلك عائدين إلى بيوتهم، بينما تطلع السيد نُمير إلى الذئبة ومسح بيده الحانية على رأسها، ورغم يَقينه بأنها لا تفهم كلام البشر، إلا أن شيئًا ما في داخله أخبره بأن قلبها سوف يَفهم كل كلمة يقولها لها؛ وهذا ما دفعه لأن يُكلمها:

- كنتِ تستطيعين سفك دمه أيتها الذئبة .. ولكنكِ ولسبب لا يعلمه غير السماء قررتِ احتواءه؛ ولذلك فمنذ الآن وصاعدًا سيكون اسمكِ **حواء**.

تأملته الذئبة بعينيها الواسعتين، فشاهد السيد في ظلام عينيها ما أثبت له صدق إحساسه؛ لقد وقعت كلماته في قلبها وفهمت كل ما قيل لها، أكمل نُمير قائلًا:

- أريدك ألّا تقلقي بشأن آزر فقد تعهدت أمام القوم بكفالته حيًا وميتًا، وسوف يكون بأمان هنا .. ويُمكنكِ أن تأتي لزيارته أنَّى شاء لك ذلك ولن يمسّك أحدٌ بسوء.

رفعت حواء رأسها باتجاه الرضيع ففهم السيد مقصدها؛ وانحنى به إليها فألصقت وجهها بخده وكأنها تُلقي عليه بذلك تحية الوداع، ثم انصرفت، بينما ظل السيد يُشيعها ببصره حتى توارت خلف الظلام وجاءه صوت من خلفه يقول:

- ما لك ولهذا الأمر يا نُمير ؟

التفت السيد إلى مصدر الصوت؛ فرأى الحارث بن الأجهر مقبلًا إليه:

- أأنت أيضًا تظن أنني جمعت الناس لأمر لا يستحق ؟

- رضيعٌ تأتي به ذئبة سوداء في هذه الليلة الحالكة، إنه واللات والعُزّى لأمر يدعو إلى الشؤم؛ فإن شئت الرأي: أرسله خارج مكة؛ فتتخلص من شؤمه ولعنته.

- لا أُخرجه وقد أدخلته حماي وجواري.

- أُخرجه عنك إذًا؛ فأكفيك عناء ذلك.

- صهٍ أيها الحارث، واللات لولا الصحبة التي بيننا لأريتك ما تكره.

أدرك الحارث بن الأجهر على الفور أنه أخطأ بحق صاحبه؛ فقال بلهجة متودّدة:

- صُحبتنا القديمة تجعلني أُدرك أنك لا تفعل شيئًا على عواهنه، فأخبرني سرّ هذا الأمر .. وإنك لتعرف أنني صاحب أمين؛ أحفظ لك السرّ وأصدقك المشورة.

لقد عَزم السيد نُمير أن يكتم الأمر في نفسه، ولكن ما يعرفه كان أكبر من أن يستطيع السكوت عنه:

- لقد رأيتُ في منامي هذه الليلة أمرًا عجبًا يا حارث: رأيتُ أعاجمَ يأتون من المشرق يركبون الخيل ويعبرون القَفر، ثم يخطفون كوكبًا من سماء العرب.

كان السيد نُمير بن رَبيعة رجلًا صاحب رؤيا؛ لا يرى في منامه حُلمًا إلا استحال واقعًا؛ وهذا ما دفع الحارث لأن يأخذ ذلك الحلم على محمل الجد ويسأل باهتمام:

- وما دخل الطفل بهذه الرؤيا يا نُمير ؟!

أجابه السيد:

- ما إن أمسك هذا الصغير لحيتي بيده حتى أعاد إليَّ الحُلم وكأنه بات أمامي حقيقة؛ قلبي يُحدثني أن لهذا الطفل سرًا وخبرًا، وأنه يُؤازر قومه حين يكبر؛ ولهذا أسميته (آزر) .. فاحفظ عني هذا السر يا حارث ولا تخبر به أحدًا.

بعد سنوات..

٤

من فوق قِمة جبل يُطل على الكعبة هو (جبل أبي قُبيس) كان آزر البالغ عمره الآن - اثنتا عشر عامًا - يجلس متوسدًا حضن أمه الذئبة حواء، يُحدق إلى السماء بينما ألوان الغروب البرتقالية تلون حدود الأفق، مُعلنة عن رحيل الشمس وظهور قَمر ليلة مكتمل.

لقد اعتاد الجلوس كل يوم فوق قمة ذلك الجبل؛ فمنذ أن كان طفلًا كانت الذئبة حواء تجيء من أجله كل صباح لتحمله معها وسط صيحات الأطفال وخوف النساء، وتصعد به إلى قمة الجبل حيث شجرة السِدر العتيقة فيحتميان بظلها من أشعة الشمس، بينما تمكث معه وتلاعبه حتى إذا جنَّ الليل أعادته إلى منزله ورحلت عنه؛ كانت هذه عادتهما على امتداد الأعوام الماضية حيث كل يوم يشبه الذي قبله، ولكن اليوم بالذات حدث أمرٌ مختلف جعل آزر يتمنى لو أن حواء كانت تستطيع الكلام؛ فيبوح إليها بما يُثقل كاهله ويسمع منها ما يُخفف الحزن عنه، ورغم يقينه بأنها لن تستطيع الإجابة عن سؤاله، إلا أنه وجد نفسه يتحدث معها وكأنه يريد التخلص من كلمات لا يريد أن يُبقيها بصدره فيختنق بها:

- لماذا يكرهني الجميع ؟

كان ذلك السؤال يخترق قلبه مثل وكزة رمح؛ فقد كان الناس جميعهم يتجنبونه ويكرهونه، ليس لأنه مجهول النسب فقط، بل لأنهم يعتبرونه فأل شؤم أيضًا؛ فقد مات سيدهم نُمير بن رَبيعة بعد أن كفله بثلاثة أشهر فقط؛ ومنذ ذلك الحين، والناس لا تمرّ بهم مصيبة كبيرة أو صغيرة إلا وألصقوها به، فإن حضر قالوا جاء وجلب المصيبة معه، وإن غاب قالوا إن المصيبة ما حلّت بهم إلا لأنه يسكن بينهم.

همس بصوت غصّ بمشاعره:

– أنا لا أؤذي أحدًا ولا أسرق شيئًا من أحد .. ولا أضرب إلا دفاعًا عن النفس – ثم أكمل من بين شهقاته يقول: لماذا يتجنبون الحديث معي ؟ ولماذا لا يُشركني الأولاد في ألعابهم ؟ ولماذا يُقابلني الجميع بكل هذا الكره والحقد ؟

قرّبت الذئبة رأسها منه ولعقت بلسانها وجهه؛

لطالما كانت هذه الحركة تُنسيه حزنه وتدفعه إلى الانهماك في نوبة من الضحك المتواصل، ولكن حزنه هذه المرة كان أكبر من كل مرة سابقة بسبب ما حدث في ظهيرة هذا اليوم ..

(ما حدث في ظهيرة اليوم)

بدا ذلك اليوم عاديًا:

حيث آزر يجلس إلى جوار بُثينة - وهي أجيرة سمراء تعمل في دار السيد نُمير بن رَبيعة، تعتني بالأطفال الذين كفلهم سيدها قبل موته - وبينما هو جالس إلى جوارها إذ ألقى عليها بسؤال أثار فضوله وهو يتأمل الأصنام التي يربو عددها على ثلاثمئة صنم[4] حول الكعبة، ويشاهد الناس وهم يسجدون لها وينحرون لأجلها البهائم ويقدمون لها الشراب والطعام:

- لماذا يفعل الناس هذا يا بُثين ؟!

ابتسمت المربية السمراء وقد أدركت أن مزاج الصغير في أفضل أحواله؛ فهو لا يناديها بذلك الاسم (بُثين) إلا إن كانت حالته المزاجية في أفضل أحوالها:

- إنهم يفعلون ذلك لجلب البركة والحماية والنُصرة عند الحاجة.

---

٤ كان عدد الأصنام حول الكعبة في زمن الجاهلية ثلاثمئة وستون صنمًا، حسب ما ورد في بعض المصادر التاريخية.

كان الصبي معتادًا على مكاشفتها بما في نفسه دون تردد أو خوف؛ وهذا ما دفعه لأن يقول:

- لقد رأيتُ الصعاليك وهم يسرقون الطعام والشراب ليلًا من أمام تلك الآلهة، دون أن يُحرك أحدٌ منها ذراعًا للدفاع عن نفسه، أو دون أن تَنطق في اليوم التالي لتخبر عن الشخص الذي سَرقها، فكيف يكون ذلك يا بُثين ؟ كيف يكون بوسع هذه الأصنام أن تمنح البركة والحماية والنُصرة لمن يعبدها وهي لا تستطيع أن تُقدم شيئًا من ذلك لنفسها ؟

بالرغم من حداثة سِنه وعدم تلقيه العِلم من الكَهنة أو الأحبار، إلا أن ابتعاد الجميع عنه وعدم مخالطتهم له، قد ساهم في أن يحافظ على فطرته الإنسانية السليمة دون أن تشوهها مُعتقدات الآخرين وأفكارهم الخاطئة. اتسعت عينا بُثينة في جزع وهي تقول:

- اخفض صوتك؛ فلا يسمعك أحد.

- لا تخافي؛ إنها لا تسمع شيئًا، وإن سمعت فإنها لا تضر ولا تنفع.

- لستُ أخاف عليك منها - قالت - بل من سادة مكة وشيوخها، فهم إنما يُبقونك بينهم حفظًا لجوار سيدنا نُمير بن رَبيعة؛ فإن سمعوك الآن تقول كلامًا خطيرًا كهذا، فإنهم لن يتأخروا بطردك وربما قتلك بحجة تعديك على آلهتهم؛ فعِدني ألَّا تُخبر أحدًا بمقالتك هذه أبدًا.

على الرغم من أن الموقف لا يحتمل التبسم؛ إلا أن آزر ابتسم عندما أحس بأن هنالك من يخاف عليه. لقد كان طعم ذلك الشعور بالنسبة إليه أحلى من قصعة بُر مُحلاة بالعسل:

- أعدك - قال - أعدك ألّا أخبر أحدًا.

ما إن أخذت الوعد حتى غادرت في بعض شأنها مرتاحة البال، فهي تعلم أنه لا يَخلف وعدًا قطعه أبدًا. في حين ظل آزر مكانه وحيدًا يُكمل تأمله في الطائفين حول الكعبة وأصنامها .. وبينما هو كذلك، إذ حاوطه فجأة عدد من الفتيان الذين يقاربونه عمرًا؛ يتقدمهم فتىً يرتدي حُلة فاخرة اسمه (كَعب)، يعصب حول رأسه عمامة عربية ينسدل من أسفلها شعره الأسود الطويل:

- هذا وقت السادة، أما العبيد فيأتون بعد مغيب الشمس.

ابتلع آزر الإهانة كعادته - ليس جُبنًا منه - بل خوفًا من أن يندفع بالرد فيجلب بشجاره مع أبناء السادة مزيدًا من كراهية الآخرين له؛ فأخفض بصره خضوعًا وقال يرد بأدب:

- لستُ عبدًا.

اتسعت ابتسامة كَعب وهو يقول مواصلًا مضايقته:

- إنك لا ترقى لمنزلة العبيد حتىٰ؛ فأنت لقيط مجهول النسب.

بدا ذلك الصبي كَعب أنه أكبر الصبيان منزلة ومكانة؛ فقد كان يتحدث والبقية يضحكون فقط. همَّ آزر بالمغادرة ولكنهِ ما إن استدار حتى أوقفه كَعب قائلًا:

- ألم تتعلم ألّا تغادر من أمام السادة قبل أن يأذنوا لك ؟

في الحقيقة، كان آزر يتمنى لو أن تلك العُصبة يقبلونه صاحبًا بينهم، وكان هذا سببًا إضافيًا يجعله ينصاع إلى رغبتهم دون مخالفة؛ إنه لا يريد أن يتشاجر معهم الآن فيُصبح من المستحيل عليه مستقبلًا أن يكون صاحبًا لهم؛ وهذا ما جعله يقول:

- اسمح لي بالانصراف.

في الجهة المقابلة كان كَعب يريد أن يَفرض سطوته أمام أصحابه ليُثبت لهم أنه السيد ابن السيد، وقد وجد في آزر - المستضعف - والذي ليس له من يدافع عنه فرصة مواتية في ذلك:

- لقد نمى إلى أسماعنا أن بُثينة تعلمك القراءة.

- نعم، صحيح.

- أخبرها أن ذلك العِلم لن يُعلي مكانتك؛ فأنت ستظل دائمًا لقيطًا مجهول النسب، لا مجد لك ولا كرامة.

كانت بُثينة بالفعل قد علمته الحروف العربية أثناء أوقات فراغهما؛ فكان سعيدًا بذلك العلم فخورًا بأنه أحد القلائل ممن يستطيعون القراءة والكتابة، ولكنه لن يدخل في جِدال مع كَعب حول ذلك؛ وهذا ما دفعه إلى أن يقول:

- حسنًا سأخبرها - ثم أضاف وهو يستدير: استأذنك الآن.

ولكنه ما كاد أن يبتعد قليلًا حتى أسمعه كَعب ما لا يطيق:

- لقد علمني والدي الحارث بن الأجهر اليوم شيئًا أحسن مما تعلمك إياه بُثينة؛ لقد علمني كيف أنحر البهائم - ثم سحب خنجره وجعل يلوح به أمام ضحكات أصحابه وهو يُضيف قائلًا:

- فأين أمك الذئبة لأنحرها ؟

هنا لم يعد آزر قادرًا على كبح غضبه وهو يسمع أحدًا يُهين أمه؛ فهجم على كَعب وهو لا يُبالي بسيد أو لقيط أو عبد، أو بما سوف يحدث لاحقًا، فانتزع الخنجر من يده ثم التف حوله وجرح ساقه بحركة سريعة؛ ليسقط كَعب بعدها أرضًا والدماء تسيل من ساقه، بينما اقترب آزر من عند أذنه وهو يهمس بصوت غاضب:

- ستخرج هذه الدماء من عُنقك عندما تُهين أمي في المرة القادمة.

ارتعد الصبية من هول المشهد، وانطلقوا في أزقة مكة وشِعابها يتصايحون ويُذيعون:

- لقد اعتدى آزر على كَعب بن سيدنا الحارث بن الأجهر ! !

اختلطت المشاعر في أعماق آزر وهو يستمع لصرخاتهم وأحس برغبة في الهرب - ليس من المكان فقط - بل من الوادي كله وهو يرى الناس يأتون ركضًا بعد سماعهم الخبر ويحيطون بكَعب ليتفقدوه ويطمئنوا عليه؛ أشفق آزر على نفسه وهذا ما دفعه إلى أن يميل بالخنجر نحو ساقه ويجرحها أملًا في أن يفوز بعينٍ حنونة تنظر إليه .. ولكن العيون كلها كانت تنصب حول ابن السيد ..

وما هي إلا لحظات يسيرة بعد ذلك حتى جاء عبيد الحارث بن الأجهر ليطمئنوا على ابن سيدهم والذي ما إن لمحهم يقتربون منه حتى رفع عقيرته بالصياح مبالغًا في تصنع الألم، مدعيًا أنه تلقى طعنة خطيرة لن تنجوَ منها ساقه إلى الأبد؛ فأخذ العبيد يواسونه وهم يحملونه إلى الدار رغم معاينتهم الجرح وتأكدهم بأنه سطحي لا خطر منه أو قلق، بينما مكث آزر مكانه دون أن يعطيه أحدَ من الناس اهتمامًا وكأنه حشرة لا وجود لها، وظلّ كذلك - يُقاسي من التهميش والتجاهل - حتى أطبقت عليه يدٌ كبيرة هي يد عبد اسمه جحش وجرته نحو مكان ما ..

**

(دار الحارث بن الأجهر)

وقف الاثنان - آزر وكَعب - في فناء الدار الواسع أمام سيد سادة الوادي الحارث بن الأجهر، والذي بدا غاضبًا وهو ينظر إلى ابنه قبل أن يصرخ عليه وكأنه أسد يزأر:

- صهٍ يا كَعب !!

ثم أضاف بنبرة أهدأ:

- فلا يليق بأبناء السادة أن يبكوا مثل الثكالى هكذا.

صمت كَعب وقد أوقف مبالغته بينما واصل والده تأنيبه:

- ثم كيف سمحت له بأن يأخذ خنجرك من يدك ويجرحك به ؟

كَعب وهو يبتلع ريقه ويمسح بكم ثوبه الدموع:

- لقد غدر بي، جاءني من الخلف وسرق خنجري على حين غرة.

كان آزر قد قرر سلفًا أن يَصمت ولا يُقحم نفسه فيما لا تُحمد عقباه، ولكن عروقه النابضة بالدماء العربية أبت عليه أن يصمت بعد أن وصمه أحدهم بالغدر؛ فانطلق لسانه على الرغم منه:

- كذب ورب الكعبة، إنما الغدر للجبناء.

لم يستطع الحارث منع نفسه من الإعجاب بذلك الصبي ولكنه تمسك بحمية الأبوة:

- إنه لا يمنعني عن إلحاق الأذى بك يا آزر أو طردك من الوادي إلا وفاءً لجوار صاحبي نُمير بن رَبيعة .. فإياك أن تعود إلى مثلها مجددًا؛ فإن صبري لن يغلب غضبي في المرة القادمة.

بنظرة كسيرة همس آزر ورأسه مُطأطأة:

- سمعًا وطاعة.

التفت الحارث بن الأجهر نحو عبيده وقال:

- خذوا سيدكم كَعب إلى الجواري ليعتنين بجرحه ويُطببنه - ثم أضاف وهو ينظر إلى مجموعة أخرى من العبيد: وأنتم اذهبوا إلى الكعبة وذيعوا عند الناس هذا الخبر: قولوا بأن آزر قد غدر بكَعب ابن سيدنا الحارث وسرق خنجره على حين غرة، ولولا ذاك لما استطاع إلحاق الأذى به، وأخبروا الناس أيضًا أنني عفوت عنه وفاءً لجوار سيد القوم نُمير بن رَبيعة.

عضّ آزر شفتيه كي لا ينفجر بالبكاء أمامهم، فهو يُفضل أن يوسعه العبيد ضربًا بالأقدام والعصي ولا أن يذيعوا ذلك الخبر الكاذب عند الطائفين حول الكعبة، ولكنه كالعادة صمت ولم يعترض على الأمر حتى لا يَجلب لنفسه مزيدًا من المشاكل، نهض الحارث مغادرًا ومُعلنًا بمغادرته انتهاء المحاكمة بينما لحقه العبد جحش بهذا السؤال:

- ساق هذا الصبي جريحة أيضًا يا سيدي، أنحمله للجواري يُطببنه ؟

لم يكلف الحارث نفسه عناء الالتفات حتى، وقال وهو يسير مبتعدًا:

- بل إلى جبل أبي قُبيس، هناك ستلعق أمه جراحه بالتأكيد.

**

(فوق قمة جبل أبي قُبيس)

رفع آزر رأسه بعد أن فرغ من تذكر أحداث ما بعد ظهيرة اليوم، وراح يتأمل القمر صامتًا وهو يفكر بالشيء الوحيد الذي يتمناه في هذه الحياة؛ فذلك الصبي كانت لديه أمنية واحدة فقط هي أن **يُخلِد اسمه في التاريخ**، لكن الظروف التي وجد نفسه عليها كونه لقيط وسط بيئة تمجّد الأنساب والقبائل وتُقصي الغرباء وتمقتهم، هي ما جعلت تلك الأمنية بالنسبة إليه تكاد أن تكون أكثر بعدًا من المسافة التي تفصله عن القمر.

كان هذا العجز الذي يشعر به الآن هو ما جعله يرغب بمغادرة المكان، فنهض من مكانه وركض مبتعدًا .. بينما ظلت الذئبة تُشيعه ببصرها صامتة لا تدري ما الذي حّل به.

**

هبط آزر من أعلى قمة الجبل،

لم تكن طريق النزول مُعبدة أو مُضاءة، إلا أنَّ الفتى الذي حوى كثيرًا من صفات الذئاب أخذ يهبط الجبل بخفة ومهارة مستعينًا بضوء القمر الخفيف كما لو أنه كان يملك عيونًا تُبصر أسفل قدميه .. وما إن وصل الأرض حتى راح يكمل ركضه بحيطة وحذر كيلا يراه أحد وهو يذهب إلى المكان الذي يقصده.

٥

سار آزر بين الأصنام التي تنهض على امتداد الحرم المكي، تحمله قدمان خفيفتا الخطو حتى وصل الكعبة .. ورغم الباب الذي قد أحكم السَدنة إغلاقه إلا أن جسده الصغير كالعادة وجد منفذًا من بين فُرجتي الباب للدخول؛ كان يشعر براحة غامضة تغمر قلبه كلما دخل جوف الكعبة؛ وهذا ما يدفعه إلى التسلل إلى هناك خلسة كلما أحس بأن العالم ضيقٌ عليه.

جلس آزر في الزاوية ضامًا قدميه إلى صدره ينظر من وراء شعره الناعم المنسدل فوق عينيه إلى هُبل - إله الحرب - والذي لفرط تعظيم العرب وتقديسهم له، كانوا قد خصصوا له مكانًا داخل جوف الكعبة، فأخذ يتأمله دون معنى، وبداخله سؤال وحيد جعل خيطًا من الدموع يسيل على خديه الأمردين المكسوين بطبقة رقيقة من الغبار:

" تُرى لماذا كل الذين بعمره لديهم آباء وأمهات ؟ بينما هو الوحيد الذي جاء إلى الدنيا محرومًا منهما ؟ تُرى ما هو الذنب الذي اقترفه وهو رضيع ليجعل والديه يُقرران هجره وحيدًا في البرية ؟ "

وبينما هو مستغرق بتساؤلاته تلك إذ التقطت أذناه فجأة صوت خطوات تسير في الجوار، فألصق عينه بفُرجة الباب وجعل ينظر من خلالها؛ ليشاهد امرأة تمشي بحذر في الجهة المقابلة للكعبة وهي تتلفت خلفها كل لحظة كيما تتأكد من أحدًا لا يراها ..

**

(المرأة في عباءة الليل)

أدرك وهو يختلس النظر إليها بأن تلك المرأة ليست جارية؛

فجسدها الممتلئ نسبيًا وثيابها النظيفة وحذاؤها المصنوع من جلد الماعز .. كانت كلها أمارات تشير إلى أنها امرأة حُرة: " فما الذي تفعله امرأة مثلها – حُرة – في مثل هذا الوقت المتأخر ؟! .. ولماذا كل هذا القلق يبدو واضحًا عليها وهي تحث خطاها نحو المكان المجهول الذي تقصد الذهاب إليه ؟ "

هذه التساؤلات هي ما حركت الفضول لديه وجعلته يغادر مكانه ليتبعها متسللًا في الأزقة والشِعاب حتى رآها وهي تتوقف أمام دار أحد أكثر الكهنة خطورة ورعبًا وتطرق بابه.

لم يسبق لآزر أن رأى ذلك الكاهن من قبل،

لكنه كان قد سمع عن شكله الذي تقشعر منه الأبدان وتنخلع لمرآه القلوب؛ فهو عبارة عن نصف إنسان: له عين واحدة ويد واحدة وقدم واحدة وكأنه قد شُق إلى نصفين وهذا ما جعل العرب يُلقبون ذلك الكاهن باسم شِق.

**

(الكاهن شِق)

بحذر شديد: اقترب آزر من نافذة الدار وأرسل إلى الداخل نظرة مختلسة فشاهد حُجرة مُظلمة شُيد سقفها من جريد النخل، وكُسيت حيطانها الطينية بالعظام والجماجم وجلود الحيوانات .. ثم تحركت عيناه إلى الأسفل عندما لمح شيئًا يتحرك على الأرض فأصابه الرعب مما شاهد؛ فقد كان الكاهن شِق يستند إلى الحائط أسفل النافذة ويمد قدمه الوحيدة نحو مبخرة في منتصف الحجرة التي تتصاعد منها سحابة مثقلة ببخور نتن الرائحة، يُشبه رائحة بقايا جثة تحترق.

مدفوعًا برهبة الخوف قرر الفتى أن ينسحب من هناك، لكن فضوله هزم خوفه في اللحظة الأخيرة وهذا ما دفعه لأن يثبت مكانه ويُكمل ما كان قد بدأه.

نظر آزر إلى باب الدار الذي كانت تلك المرأة ما تزال تطرقه وفكر بسؤال منطقي: كيف سيفتح لها الكاهن شِق الباب وجسده على تلك الحالة ؟!

ولكن الأمر الذي لم يكن يعرفه بعد هو: أن لذلك الكاهن خدمًا من المخلوقات التي لا يُعرف لها كينونة يَعكفون على خدمته صباح مساء؛ فقال شِق يأمر أحد خدمه:

- ما جاءت المرأة إلا لأمرٍ إدًّا، افتح لها الباب ننظر في أمرها يا جِدًّا ..[٥]

وما إن انتهى مما قاله حتى فُتح الباب من تلقاء نفسه وانبعث صوت غليظ من الهواء يقول للمرأة:

- ادخلي بقدمك اليُسرى، ورددي سبعًا لبيك شِقا.

دخلت المرأة بقدمها اليُسرى وهي تردد بهمساتٍ خائفة (لبيك شِقا) وظلت تُرددها وهي تواصل طريقها نحو الحُجرة المعتمة، ورغم أن الدار صغيرة وليس فيها أحدٌ غير الكاهن المتكئ بجسده المُنشطر على الحائط أسفل النافذة .. إلا أن تلك المرأة كانت تسمع أفواجًا من الأصوات حولها تُشبه أصوات التهليل والتسبيح، هي أصوات الخدم الذين يعكفون على خدمة الكاهن شِق، تُردد خلفها وهي تقول: (لبيك شِقا، لبيك شِقا) حتى أتمّتها سبع مرات فصمتت وصمتت الأصوات من حولها.

---

٥ كلمة (إدًّا) تعني أمرًا عظيم.

لقد سبق لتلك المرأة - كغيرها من رجال ونساء مكة - أن شاهدت الكاهن شِق مرة واحدة قبل أعوامٍ طويلة وهو يطوف ليلًا حول الكعبة عكس اتجاه الطائفين، مضطجعًا فوق هودج يحمله أربعة من العبيد في تمام ليلة اختفى القمر من سمائها؛ مما يجعلها الآن لا تتفاجأ بجسده غريب التكوين. لكن وجودها معه في حُجرة واحدة هو ما جعلها تخاف وتهمُّ بالتراجع منسحبة؛ فقال يُطمئنها:

- اقتربي يا زوجة عامر بن لُكيز ولا تخافي؛ إنك في مأمن ما دمتِ جواري.

- أتعرفني ؟

قال وهو يكشف عن ابتسامة شيطانية:

- أعرفكِ، وكل من يدنو من حَرم هذا البيت أعرفه.

من خلال تلك الجملة أدرك آزر أن شِق كان يعلم بوجوده عند النافذة، ورغم انكشاف أمره لم يهرب وقرر البقاء مواصلًا استراق السمع؛ لمعرفة سبب ذهاب المرأة إليه في ذلك الوقت.

- وتعرف ما جئتُ إليك من أجله الساعة ؟!

- لقد أُخبرتُ بأن امرأة تأتي في هذه الليلة القَمراء تقصُّ عليَّ نبأ رؤياها، فاقصصي عليَّ ما رأيتِ.

قالت المرأة تقص عليه نبأ حُلمها الغريب:

- رأيتُ أني ألدُ قمرًا يصعد إلى السماء، يُضيء بنوره جزيرة العرب.

وصمتت لبُرهة من الزمن وكأنها خافت حين تذكرت أحداث حلمها الغريب:

- وماذا أيضًا ؟ - قال الكاهن باهتمام - أكملي ..

٦

الحُلم والنبـوءة

قالت المرأة:

– رأيتُ أني ألدُ قمرًا يصعد إلى السماء يُضيء بنوره جزيرة العرب، ثم رأيتُ نارًا عظيمة تندلع من المشرق .. ما زال لهبها يعلو ويتصاعد حتى يصل جُرم القمر.

لا يذكر الكاهن شِق متى كانت المرة الأخيرة التي خاف فيها، لكنه لن ينسى أبدًا شعور الخوف الذي أحسّ به هذه اللحظة وهو يُنصت إليها وهي تقصُ عليه نبأ حلمها.

– والعرب – قال مستفهمًا – ألم تسمعِ للعرب نفيرًا ؟

– سمعتُ صلصلة سيوف تتقارع وجلجلة صهيلٍ تتعالى، وصرخة من بين الصفوف جاءت (قالت للحرب قومي)، ثم التقى العرب بخصمٍ عنيد كان مسربلًا بالسلاح والحديد، ذي قِلاع وقوة وجيشٍ مديد .. دار القتال بين الصناديد .. وشبح الموت فوقهم يحصد الخلق والعبيد .. تصاعد غبار المعركة كثيبًا كثيب حتى حجب وراء ستاره جُرم القمر البعيد.

ظهرت على وجه الكاهن علامات أوحت لها بأن حلمها لا يبشّر بالخير، وهذا ما دفعها لأن تصمت متوقفة عند ذلك القدر من الحلم، لكن شِق كان ما يزال لديه سؤال أخير:

- أكان القمر مكانه حين انقشع عنه الغبار، أم أنه زُحزح عن مداره ؟

- لقد انقطع الحلم يا شِق، ولم أرَ ما حلّ بالقمر.

كان يعلم أنها تكذب بسبب الخوف؛ فقال يتوعدها بالعقوبة:

- تُسخطين إلى ذات أربعٍ وأربعين، إلا أن تقولي الحق ولا تكذبين.

لم تأخذ تهديده على محمل الجِد وقالت متمسكة بجوابها:

- لقد انقطع الحُلم ولم أرَ ما حلّ بالقمر.

لقد وُلد الكاهن شِق في ذات اليوم الذي ماتت فيه كاهنة ذلك الزمان **طُريفة بنت الخير الحِميرية**، قِيل إنها قبل أن تموت قد بصقت من ريقها بفمه؛ فانتقل بذلك علم كهنوتها إليه .. ليصبح كاهنًا لا تُخطئ له نبوءة؛ وهذا ما دفعها - دفع تَليدة - لأن تأتي إليه في هذا الوقت المتأخر لتقصّ عليه نبأ ما رأته في منامها الليلة.

قال شِق مؤوّلًا حُلمها:

تَلدين فتاة تُسمينها " قَمر" .. تقوم لأجلها معارك وحروب ..

حارسها يا حارسها .. يُخلد اسمه في تاريخ العرب ..

قالت مذعورة:

- وهل ستنجو ابنتي من تلك المعارك والحروب ؟

لم يُجب عليها، فعادت تسأله: هل ستنجو ابنتي مما ينتظرها يا شِق ؟

هنا أرسل الكاهن إليها نظرة حادة فهمت من خلالها أن لقاءها به قد انتهى؛ إدراكها بأن صبره قليل هو السبب الذي جعلها لا تغامر بمواصلة الإلحاح عليه .. فأدخلت يدها في جيب ثوبها ثم أخرجت منه صُرة ممتلئة بالدنانير الذهبية دفعتها إليه واتجهت مغادرة نحو الباب، بينما ظلّ آزر سارحًا في مكانه يُفكر بأمر وحيد:

أيُمكن أن يكون هو حارس ابنتها ؟! فينال بذلك ما نصت عليه النبوءة؛

ويحقق أمنيته الوحيدة في تخليد اسمه في التاريخ ؟!!

وبينما هو سارح في خياله إذ امتدت إليه يدٌ خفية ألقت عليه القبض وقذفت به إلى داخل الدار، ليجد نفسه وجهًا إلى وجه أمام الكاهن شِق وحدهما في الحجرة المظلمة التي يتصاعد فيها دخان البخور إلى السقف.

٧

ألجمت المفاجأة لسانه وهو يرى تلك العين الوحيدة تُحدق إليه في الظلام، وقد تلا ذلك صوتٌ خشن هو - صوت الكاهن شِق - آمرًا إياه قائلًا:

- ادنُ مني يا فتى !

أراد آزر الهرب، لكنّ قدميه تحركتا إلى الأمام رغمًا عنه وكأنهما لا تُطيعان رغبته.

مدَّ الكاهن يده الوحيدة نحوه .. لكنّ يده توقفت قبل أن تصل هدفها كما لو أن هنالك شيئًا قاهرًا منعها من الوصول، فأخفض يده وقال:

- يبدو أن أمك تحسن تحصينك يا فتى.

- ولكن كيف لذئبة أن تفعل ذلك ؟!

- أيها الحمار الصغير، لا أقصد أمك الذئبة، بل أمك الإنسية.

ارتفع حاجبا آزر لفرط الدهشة، وقال متسائلًا في لهفة:

- أت .. أتعرف أمي ؟!!

- إنها تراك وتحصنك كل يوم؛ ولذلك لا تستطيع يدي أن تصلك.

قال متوسلًا:

- أخبرني كيف أجدها أرجوك .. أرجوك أخبرني ! ! !

في تلك اللحظة الحاسمة قُذف به - بآزر - إلى خارج الدار بذات اليد الخفية التي أدخلته .. وقد همَّ بتحطيم الباب والدخول ليعاود سؤال الكاهن عن أمه .. ولكن صوتًا ما، هادئ، وقوي، وحنون، في ذات الوقت كصوت المطر، همس في أذنه محذرًا إياه تلك اللحظة من الدخول:

- اهرب يا فتى؛ إنك إن دخلت، لن ترى أمك أبدًا.

كانت تلك الكلمات كافية لأن تجعله يركض مبتعدًا من هناك متخليًا عن فكرة الدخول، دون أن ينتبه إلى الشخص الغامض الذي كان يراقب المشهد من بعيد وهو يخفي وجهه وراء اللثام .. والذي ما إن تأكد من أن آزر قد ابتعد من هناك حتى ترك مخبأه وسار متجهًا نحو دار الكاهن شِق ليطرق بابه.

**

(المرأة المجهولة ذات اللثام)

ما إن فُتح باب الدار حتى ولجت منه امرأة غريبة تغطي وجهها بلثام أسود لا يكشف إلا عن عينين تخبئان فيهما أسرارًا دفينة .. بدت المرأة أنها في الثلاثين من عمرها، تسير بخطوات غير مرتبكة تشي بأن تلك ليست زيارتها الأولى للمكان:

- إلى متى سأظل أُخفي عنه الحقيقة يا شِق ؟!

قال الكاهن وهو ينظر إليها بعينه الوحيدة:

- إلى أن يأتي اليوم الذي لا تُهمك فيه حياته؛ فعندما يعرف الناس سِر هذا الصبي، ويعرفوا حقيقة نسبه فإنهم لن يُبقوه على قيد الحياة لحظة واحدة.

- ولكن قلبي يؤلمني عليه.

- اكتمي السر؛ ولا تحفري قبره بلسانك.

لاحقًا وما إن غادرت المرأة الغريبة ذات اللُّثام دار الكاهن حتى طار غراب أسود كان يستقر طوال الوقت فوق غصن شجرة قريبة من الدار يسترق السمع إلى كل ما يدور فيها، لينقل الكلام إلى أذن سيدته التي كانت تنتظره فوق دارٍ وحيدة تستقر فوق قِمة جبل يُدعى (**مجر الكبش**).

٨

صِنديد العرب

كان لدى أهل مكة عادة تُقام مرة واحدة كل خمس عشرة سنة؛ حيث تُنصب بين جبال الوادي حلبة كبيرة للمصارعة، يخوض فيها فتيان القبائل العربية ممن تكون أعمارهم دون الخمسة عشر عامًا. يخوضون فيها صراعًا داميًا للحصول على اللقب (**لقب صِنديد العرب**) .. وقد كان يجتمع لتلك المسابقة حشد كبير من أهل جزيرة العرب وبلاد الشام وأرض الرافدين وسكان قارّة إفريقيا، يتخذون من الجبال المحيطة بالحلبة مقاعدًا للجلوس فتغدو وكأنها مدرجات رومانية، يشاهدون من خلالها النِزالات بهدف المتعة أو جني الأموال التي تُكسب من خلال عقد الرِهانات على الفتية المتصارعين.

وقد كانت لتلك المسابقة - مسابقة صِنديد العرب - أهمية عظيمة في نفوس الملوك والأمراء وشيوخ القبائل وعامة الناس، كيف لا والفائز فيها من أبنائهم يُكتب اسمه على رقعة جلد تُعلق على أستار الكعبة حتى موعد المنافسة القادمة؛ فيذاع اسمه واسم والده وقبيلته بين العرب قاطبة فينال بذلك شرفًا ومنزلة، ومكانة عظيمة.

ولما كان موعد المسابقة قد اقترب راح أهل الوادي بطبيعة الحال ينشغلون بالحديث عنها، وبدأ السادة في التكفل بكل ما يَلزم لإعداد حلبات النِزال، واستقبال الوفود التي ستضج بهم مكة لمشاهدة الحدث .. وأثناء ذلك كانت المربية السمراء بُثينة .. تقوم بواجباتها اليومية المعتادة من ترتيب الحجرات وتنظيف الدار، وبينما هي كذلك إذ سمعت فجأة أصوات أقدام غريبة آتية من الخارج، في الوقت الذي انبعث فيه بداخلها إحساس غير مريح يخبرها بأن هنالك شيئًا سيئًا قد وقع؛ فألقت مكنسة القش من بين يديها وذهبت لتفتح الباب وتشاهد أمامها آخر من كانت تتوقع زيارته ذلك النهار: كان الزائر هو الذئبة حواء التي قفزت نحوها وعضت بأنيابها طرف ثوبها ثم أخذت تسحبها إلى الخارج وكأنها بذلك تطلب منها أن تتبعها، أدركت بُثينة على الفور أن المسألة متعلقة بآزر؛ وهذا ما دفعها لأن تركض منساقة خلف الذئبة وقلبها يخفق خوفًا مما يكون قد حدث للصبي ..

**

(السوق)

قادتها الذئبة نحو السوق الذي كان يحتشد في منتصف باحته جمع غفير من الناس حول شيء ما .. قامت بثينة تشق صفوف الزحام مدفوعة بمزيج من الفضول والخوف حتى وصلت إلى ما كان الناس يحتشدون حوله؛ لتشاهد أمرًا جعل ملامح الرعب تعتلي وجهها: **بِركة من الدماء يتمدد فوقها آزر وقد استقر في بطنه خنجر حاد.**

حاول أحد العارفين - وهو رجل يعمل مداويًا - أن يتقدم لفحصه، لكن الذئبة انبرت من بين الحشود بطريقة مفاجئة وحاوطت الصبي بجسدها لتدافع عنه معتقدة أنهم يريدون به شرًّا؛ فتراجع المداوي إلى الوراء مخافة أن تؤذيه الذئبة الغاضبة، بينما تقدم إليها الشخص الوحيد الذي كان يستطيع تهدئتها وهي بُثينة وقالت تصيح عليها:

- **ابتعدي عنه يا حواء ! ! !**

تسببت تلك الصرخة بتعزيز نزعة الخوف لدى الذئبة؛ ما جعلها تفقد القدرة على ضبط انفعالها، فقامت بمهاجمة بُثينة وإسقاطها أرضًا بعد أن صنعت في وجهها ثلاث ندبات بمخالبها، صاح أحد الرجال وهو يرى ذلك المنظر:

- هذه الذئبة لا تترك لنا خيارًا آخر.

ثم أخرج سيفه، وفعل بقية الرجال مثله عاقدين العزم على قتلها ..

٩

كانت الذئبة تستطيع الفرار من هناك، ولكنها قررت البقاء وحماية ابنها حتى لا تفقده كما فقدت جروها قبل اثنتا عشر عامًا؛ فحاوطته بقوة أكبر وأغمضت عينيها حتى لا يُصيبيها الجزع وهي ترى الموت يقترب منها فتحثها غريزة البقاء لديها على الهرب.

لم تصلها سيوف الرجال،

بل وصلت إليها يدٌ حنونة تبعها صوت معتذر يقول:

- لقد أخفتكِ يا حواء، وما كان يجب أن أصرخ عليكِ هكذا.

فتحت الذئبة عينيها لتشاهد أمامها بُثينة تنظر إليها بوجه أسمر حلو رقيق لم تزده ندبات المخالب وقطرات الدم الخفيفة النازفة منه إلا جمالًا:

- اهدئي يا حواء .. أعدكِ ألَّا يؤذيه أحد.

أحست الذئبة بالأمان فتنحت جانبًا، ليتقدم المداوي على الفور ويبدأ بفحص الجرح والجريح قبل أن يُعلن قائلًا:

- لا أظن أنه سيعود إلى الحياة.

ما إن سمعت بُثينة ذلك حتى سقطت على ركبتيها وتناثرت دموعها على الأرض؛ وظلت تنظر نحو الجسد الساكن أمامها بشعور هو خليط ما بين الحزن الشديد والندم.

حزينة هي على سماعها ذلك الخبر، ونادمة لأنها استمعت إلى الكاهن شِق ليلة أمس، عندما ذهبت إليه مُتلثمة ونصحها بألَّا تخبر آزر بالحقيقة.

**

(العامرية)

وبينما هي تبكي إذ أحست من خلفها بحركة ملحوظة، وبدا الأمر كما لو أن الحشود من خلفها كانوا يفسحون الطريق لشخص قادم .. وبالفعل ما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى ظهرت من بين الصفوف امرأة متقدمة في العمر يستقر فوق كتفها الأيسر غراب أسود ..

سارت المرأة بين الناس حتى وصلت إلى آزر وانحنت عليه ..

كان اسمها - **اليَمامة بنت أدحج العامرية** - وقد دارت حولها الكثير من القصص الغامضة التي جعلت البعض يعتقدون أن تلك المرأة ليست حقيقية، بل ربما تكون أسطورة متخيلة. إحدى تلك القصص تقول إن العامرية في صِباها كانت تتمتع بجمال غير مسبوق جعل شيطانًا أسودَ من الجن اسمه (أعصم) يعشقها ويتزوجها.

تقول القصص أيضًا إن ذلك الشيطان قد كشف إليها بعضًا من العلوم المحرم على بني الإنس معرفتها؛ وهذا ما أنزل عليه غضب قبيلته ودفعهم للسعي إلى قتله، ولكنهم لم يقتلوه؛ ذلك أنه اختفى قبل أن يصلوا إليه ولم يستطع أحد حتى اللحظة - لحظة ظهور العامرية في السوق - وعلى كتفها يستقر الغراب الأسود أن يعثر عليه أو يتكهن حتى بمكان وجوده.

ولما راح الناس ينسجون حولها الأخبار الكاذبة والتكهنات المُلفقة المُبالغ فيها؛ قررت العامَرية أن تعتزلهم لتُقيم مع غرابها فوق قمة جبل ليس ببعيد يُدعى **(مجر الكبش)**، وقبل أن تغادر أشار عليها الكاهن شِق الذي كان يعرف حينها مدى حُبها وتعلقها بزوجها قائلًا:

- تمسكي بأستار الكعبة يا عامرية .. واطلبي من آلهة العرب أن ينفثوا فيكِ روحًا من السَلوى والنسيان، تُشفيكِ من بلائك القائم.

وعملًا بتلك النصيحة، سارت العامرية نحو الكعبة، لكنها فعلت بعكس ما أشار عليها الكاهن به؛ حيث جرحت كفيها بسكين حادة، ثم تشبثت بأستار الكعبة بكفيها النازفتين دمًا، وأقسمت بصوتٍ خرج من صميم قلبها:

- قسمًا بالدم النازف على الأستار، والدموع الحارقة من تحت الأجفان قسمًا بأحزان الثكالى وأنين اليتامى وقرع الصواعق وأجيج النار .. قسمًا بأوجاع قلبي وجهنم المستعرة بين الضلعان .. قسمًا بالكعبة وبطحائها، ونجد وكُثبانها، والحِجاز وأفلاكها، وبحور الأرض وقيعانها لن أنساك وسأثأر.

لقد شهد الطائفون ذلك القسم وتناقلوه حتى ذاع ذكره في جزيرة العرب كلها. وهذا ما جعل الناس الآن ينظرون بتعجب إلى العامرية، ويتساءلون عن السبب الذي دفعها لأن تحنث بقسمها وتغادر جبل مجر الكبش ذلك النهار لتظهر بينهم في السوق .. تأملت العامرية جرحه وأدركت أن الطعنة التي تلقاها الصبي خطيرة بحقّ؛ فلو أن صبيًا آخر بعمره تلقاها لكان قد مات على الفور، ولكن يبدو أن حليب الذئاب الذي نشأ عليه في صغره قد أكسبه بعض القوة التي ردعت عنه الموت.

وبينما العامرية تواصل فحصه إذ انتبهت إلى ملاحظة دقيقة لم ينتبه عليها أحد وقالت كما لتتأكد:

- ألمح أحد منكم من هاجمه ؟

أخبرها الناس أنهم لم يشاهدوا المهاجم؛ فكانت تلك الإجابة بالنسبة إليها دليلًا يُثبت صحة الشيء الذي لاحظته .. قامت العامرية بعد ذلك بحمل آزر بين يديها وابتعدت به من هناك، يتبعها بشكل تلقائي كلٌ من بُثينة والذئبة، بينما يطير فوق رأسها غرابها الأسود فاردًا جناحيه ليُظللها من أشعة الشمس.

بعد رحيلها:

دارت العديد من الفرضيات التي حاول الناس بها أن يجدوا تفسيرًا يشرح سبب قدومها دون أن يتوصل أحد منهم إلى سبب معقول، ولكن الشيء الذي أجمع عليه الأغلبية هو: **أن تلك المرأة لم تغادر معتزلها هذا النهار وتظهر فجأة في السوق إلا لشيء جلل، أيكون ذلك الصبي ابنها ؟!**

لا أحد يعرف ..

١٠

فوق جبل مجر الكبش، وداخل الدار الوحيدة التي تنهض فوق قِمته، قامت العامَرية بتمديد آزر - الفاقد الوعي - فوق السرير، بعد أن نظفت جرحه وقامت بكيّه مستخدمة قطعة من الحديد الحامي، ثم جلست مقابلة له وغرابها الأسود يستقر فوق كتفها الأيسر، وقالت بأسف لبُثينة التي تنتظر سماع الخبر:

- هالته تُنذر باقتراب أجله.

لم تكن بُثينة قد سمعت بذلك المصطلح من قبل - مصطلح الهالة - فبانت الحيرة على وجهها؛ وهذا ما دفع العامَرية لأن تشرح لها: فقامت وأغلقت ستائر الحجرة وأشعلت شمعة كانت تحتفظ بها في أحد أدراجها انبعث منها ضوء أزرق نادر ثم قالت بعد ذلك وهي تُشير نحو الصبي:

- ركزي نظركِ إليه الآن ..

نظرت بُثينة إلى حيث أشارت إليها العامرية ولكنها لم تلاحظ شيئًا غريبًا؛ فقد كان آزر - مستغرقًا في غيبوبته - يستلقي أمامها فوق السرير مُحاطًا بجسد أمه الذئبة:

- لا أرى فيه ما يدعو إلى الغرابة.

- انظري جيدًا - قالت العامَرية - انظري جيدًا ولا تتعجلي.

عادت تنظر بتركيز نحو آزر وقد استغرقت هذه المرة وقتًا أطول وهي تُحدق إليه، حتى كادت أن تُعلن استسلامها مجددًا، لكنها في اللحظة الأخيرة انتبهت إلى أمر جعل عينيها تتسعان في دهشة وغرابة:

- إنني أرى عجبًا.

- أتستطيعين وصف ما ترين يا بُنَين ؟

- إنني أرى نورًا رقيقًا يُحيط بجسده كالسوار.

- هذا النور الذي يُحيط بجسده مثل السوار يُسمى (الهالة) وهي مرآة الروح. كل إنسان حي يملك هذه الطاقة النورانية حول جسده.

ثم أضافت تقول:

- والآن، ركزي نظركِ إلى هالته وأخبريني عمّا ستلاحظين.

لاحظت بُثينة أمرًا جعلها تُصاب بنوبة من القلق الشديد:

- الهالة التي تُحيط به !

- ما بها ؟

- إنها آخذة بالتفكك والتلاشي؛ وكأن هنالك قوة خفية تضغط عليها وتحطمها شيئًا فشيئًا.

قالت ذلك، ثم توقفت عن الكلام فجأة؛ إذ إنها أدركت الحقيقة من تلقاء نفسها: **عندما تنتهي الهالة النورانية حول جسد آزر، سيكون قد فارق الحياة إلى الأبد.**

- ألا تستطيعين مساعدته ؟

- أستطيع .. ولكنني لا أعتقد أنه سوف يقبل المساعدة.

- كيف يقبل أو يرفض وهو غائب عن الوعي ؟

- جسده غائب، لكن روحه تُدرك ما حولها.

- اقنعيها بالعودة إذًا.

- الأمر ليس بهذه البساطة، فالأرواح تُصبح حرة بعد خروجها من الأجساد؛ ويكون من الصعب إقناعها بالعودة. إن الأمر في هذه الحالة يشبه ذهابك إلى سَجين نال حريته لتوه، فتحاولين إقناعه بالعودة إلى سجنه مجددًا.

- لقد عانى هذا الصبي كثيرًا في حياته أيتها العامَرية؛ لقد هجرته والدته وهو ما يزال رضيعًا .. فوجد نفسه يعيش تحت رعاية هذه الذئبة وسط الجبال والوديان مثل حيوان منبوذ .. ومن غير المعقول أن نتركه الآن يموت بهذه الطريقة دون أن يحظى بفرصته الكاملة في الحياة.

حركت تلك العبارة شيئًا في قلب العامرية، شيئًا يُشبه الحنان الذي يربط الأم بابنها، وهذا ما دفعها إلى أن تتجه نحو الذئبة التي كانت ما تزال تحاوط آزر وتقول لها:

- ما رأيكِ يا حواء أن ترافقيني في هذه المحاولة ؟

هنا اندهشت بُثينة مما رأته: فمن المعروف أن الذئبة حواء لا تتقبل الغرباء وتظهر تجاههم عداوة مفرطة، ولكنها الآن تتقبل العامرية بشكل غريب وتُظهر لها سلوك الودِ والأُلفة. مدّت العامَرية يدها ومسحت بها جبين الذئبة؛ وهنا تعاظمت دهشة بُثينة حين لمحت وشمًا عجيبًا يومض في جبين حواء كأنه الشمس والقمر ثم يختفي:

- ما هذا الوشم الذي ومض في جبين حواء ؟

- إنه ختم انتمائها لسُلالة نبيلة، تُسمى السُلالة **اليَعقوبية**.

ظلت بُثينة صامتة تنتظر الشرح، بينما أكملت العامرية تخبرها عن قصة تلك السُلالة:

- لقد جاء في كتاب (**الحَبر**) أن ..

ما إن سمعت بُثينة اسم "الحَبر" حتى أصاخت السمع أكثر لما سيُقال. فمن المعروف أن ذلك الكتاب النادر يحوي قصة الخلق وأنبياء الأرض كما ورد ذكرها في توراة موسى وإنجيل عيسى وتَلمود اليهود. قليلون فقط من يَملكون كتاب الحَبر وقد كانت العامرية واحدة منهم.

قالت العامرية:

- عندما ضاق الإخوة العشرة ذرعًا بأخيهم الأصغر مكروا له وألقوه في البئر، ثم عادوا مساءً لأبيهم يحملون قَميصًا مُلطخًا بالدماء ليخبروه أن الذئب أكل أخاهم يوسف؛ في تلك الليلة يا بُثينة، وبينما كان النبي يَعقوب يبكي حزنًا على فقد ابنه، إذ جاء إليه زائر غريب.

- من يكون الزائر ؟

قالت تخبرها عن الزائر:

-- كان أمير زُمرة الذئاب، وقد أنطقه الله حيث كلم النبي يَعقوب بهذه الكلمات قائلًا: " **إنني وزُمرتي أبرياء من دم ابنك يوسف؛ فقد حرّم الله علينا دماء الأنبياء** "

واصلت العامرية وهي تُربت على رأس الذئبة حواء وتقول:

– هذه الذئبة يا بُثينة تنحدر من سلالة ذلك الذئب الذي كلم النبي يَعقوب؛ وهذا الوشم الذي رأيته يومض في جبينها هو ختم انتمائها لتلك السلالة النبيلة.

بُثينة تدرك أن الموقف الحساس الذي هم فيه الآن لا يتسع لذكر مثل تلك القصة، ما لم تكن مهمة في هذا التوقيت:

– ما علاقة هذه القصة بآزر ؟

– يتميز أفراد السلالة اليَعقوبية بصفاء هالة روحية نادرة تجعلهم قادرين على أن يكونوا مثل المراكب الشراعية التي تنقل العابر من ضفة إلى أخرى.

قالت مستنتجة:

– هذا يعني أنكِ سوف تمتطين حواء للذهاب إلى حيث هالة آزر ؟!

– نعم؛ فإنها الوحيدة القادرة على أن تنقلني إلى هناك.

– وكيف ستقنعيه بالعودة ؟

– لا أعرف، ولكنني سأحاول.

قالت عبارتها تلك ثم تربعت في منتصف الغرفة، فجاءت الذئبة جواء تجلس إلى جوارها وكأن فطرتها كانت تخبرها بما يجب عليها أن تفعل استعدادًا لتلك الرحلة.

قالت العامرية:

-كل ما أحتاجه منكِ في الساعة القادمة يا بُثينة هو أن تبقي ساكنة مهما حدث، وألّا تمسي أيًا من أجسادنا مهما كانت الظروف حتى لا نُحبس في العالم الآخر إلى الأبد.

- لن أقرب جسديكما مهما حدث.

هنا أغمضت العامرية عينيها وبدأت تتمتم ببعض الكلمات.

كانت بُثينة وهي تُصغي إلى تلك التمتمات تُدرك جيدًا أنها ليست بنفثات الكهانة، أو طلاسم السحر إنما هي تراتيل خاصة لم يسبق أن سمعت بمثلها يومًا.

لم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى صمت فم العامرية، وراحت تضع جُل تركيزها على فعل شيء واحد مُحدد وهو ما يسميه الضالعون في العلم بطور الإسقاط:

وهو إسقاط الروح عن جسدها والتحرر منه.

**

وما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى شاهدت بُثينة أغرب مشهد كانت تراه في حياتها، وما كانت ستصدقه لو أنها لم تره بنفسها: حيث رأت شيئًا أشبه بالهالة الزرقاء النجمية تنفصل عن جسد العامرية .. وتمتطي هالة زرقاء نجمية أخرى انفصلت عن جسد الذئبة حواء .. ثم رأتهما وهما تنطلقان بسرعة السهم تتبعهما هالة نجمية ثالثة – هي للغراب – نحو آزر الممدد فوق السرير لتغوص الهالات الثلاثة معًا في جسده عند موضع القلب وتختفي داخله ..

وهكذا لم يبقَ في الحجرة سوى ثلاثة أجساد هامدة؛ أجساد العامرية والذئبة والغراب، تجلس أرضًا وتتنفس ببطء، بينما ينبعث من كل واحدٍ منها خيطٌ نجميٌ أزرق ينتهي عند موضع قلب آزر. أثناء ذلك المشهد العجيب كان على بُثينة أن تنتظر نتيجة ما سيحدث في صمت وصبر وترقب.

١١

يحسب الإنسان نفسه جُرمًا صغيرًا وفيه ينطوي العالم الأكبر[٦]

انتقل الثلاثة إلى العالم الخاص بآزر، وساروا فيه يقطعون السماء والبحور والقِفار، حتى وصلوا إلى قمة جبلٍ عالٍ كان يجلس على حافته فتىً صغير يُمرجح قدميه في الهواء، بينما يبتسم سعيدًا وعيناه تُحدقان إلى الفراغ.

ما إن أحس آزر بقدومهم حتى هرب من هناك، كادت الذئبة أن تتحرك لملاحقته، لكن العامرية أمرتها بعدم التحرك؛ فهي تُدرك تمامًا حساسية الموقف: إنهم الآن داخل العالم الخاص بآزر. وبالتالي، فإن أي خطأ يُقدمون عليه قد يُعرضهم للطرد الأبدي. لذلك عليهم أن يتصرفوا بحكمة إن كانوا يُريدون تحقيق الهدف الذي جاؤوا من أجله.

---

٦ النص الأصلي للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " وتحسب أنك جُرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر "

وبالرغم من أن آزر كان قد هرب من هناك، إلا أن العامرية تُدرك بفطنتها أن فضوله لن يسمح له بالابتعاد كثيرًا؛ وعليها فقط أن تُلقي إليه بالطُعم المناسب لتغريه على إظهار نفسه:

- لماذا طعنت نفسك اليوم في السوق يا آزر ؟

بانت ملامح القلق على وجهه وهو يختبئ خلف صخرة قريبة، وتساءل في نفسه عن الطريقة التي عرفت بها تلك المرأة سره رغم أنه كان قد تلفت حول نفسه أكثر من مرة ليتأكد من أن أحدًا لا يراه قبل أن يُنشب نصل الخنجر في بطنه.

قال وهو يكشف عن مخبئه:

- كيف عرفتِ أنني من طعنتُ نفسي ؟

- لأنه ليس من المعقول أن تتلقى مثل تلك الطعنة وسط سوق يضج بالباعة والزبائن، دون أن يلمح أحدٌ منهم هوية المهاجم. ثم بالنظر إلى زاوية الطعنة ومدى عُمقها في جسدك، يتضح جليًا أنك من أقدمت على طعن نفسك بنفسك.

صمت آزر وأخفض رأسه؛

فكان صمته ذاك دليلًا على اعترافه بأنه الفاعل:

- أتظن أن ما فعلته كان صوابًا ؟

دون تردد، همس قائلًا:

- لا ..

ثم مكث ينتظر من تلك المرأة الغريبة سيل الكلمات المعاتبة والنصائح التي لا تنتهي كما تفعل معه مُربيته بُثينة في العادة عندما يتصرف بطريقة خاطئة، ولكن على عكس ما كان يتوقع؛ أظهرت المرأة تفهمًا نادرًا وهي تقول:

- أنا لا ألومك؛ فلا بد أنك تملك أسبابك الخاصة.

عند الاعتراف بالخطأ يفوز الذي يتفهم، الذي يعذر، الذي يُسامح لا الذي يَكيل العتابات والنصائح.

- ولكن أتستطيع أن تخبرني عن السبب الذي دفعك لهذا ؟!

ردة الفعل المتفهمة تلك التي أبدتها المرأة الغريبة، كانت هي الدافع الذي جعل آزر يشعر بالراحة تجاهها فيقترب ويجلس أمامها دون حذر ويخبرها عن السبب:

- لقد أخبرني الكاهن شِق أن أمي تراني كل يوم.

على الرغم من فراسة العامرية ونباهتها، إلا أنها لم تفهم كيف لخبر كهذا أن يجعله يُقدم على تلك الفعله:

- وكيف لخبر كهذا أن يدفعك للقيام بطعن نفسك ؟

فتح آزر فمه ليجيب ولكنه غصَّ بدموعه فصمت؛ هو الذي حرامٌ في شريعته أن يبكي أمام أحد؛ اختار أن يصمت لأنه خاف أن يفتح فمه فتذرف عيناه الدموع أمام الغريبة.

كانت لحظة الصمت تلك هي ما أعطت العامرية الفرصة لتحاول تخمين الإجابة بنفسها؛ وما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى اتسعت عيناها في دهشة عندما توصلت إلى الإجابة: **فبعد أن أخبره الكاهن أن أمه تراه كل يوم؛ ذهب إلى السوق وتعمد أن يطعن نفسه في وضح النهار، معتقدًا أنه بذلك سوف يُثير غريزة العاطفة لدى أمه الإنسية ويدفعها للكشف عن هويتها عندما ترى ابنها يسقط في السوق بطعنة الخنجر، ولكن أمه لم تأتِ فكان عدم قدومها بالنسبة إليه أشدَّ ألمًا من الطعنة نفسها.**

- السادة والعبيد، النساء والرجال، الشيوخ والفتيان، كل الناس يكرهونني ورغم ذلك جاؤوا لرؤيتي في السوق حين أُصبت .. كلهم جاؤوا إلا أمي .. أتعتقدين أنها تكرهني أكثر منهم لذلك لم تأتِ ؟

لا تذكر العامرية متى كانت المرة الأخيرة التي هزها شيء مثل هذه المرة؛ وهذا ما جعلها ترغب بمساعدته أكثر:

- أعلم أن الأمر يؤلمك؛ فلا شيء أقسى من شعور التخلي، ولكن عليك ألَّا تتعجل بالحكم عليها؛ فالوقت يمضي في عجلة دائرية .. دعه يمضي الآن وسيعود إليك يومًا بالحقيقة.

- لا توجد حقيقة تشفع لأم ذنب هجر ابنها الرضيع.

اقتربت العامرية منه بينما غرابها يستقر فوق كتفها الأيسر، راحت حواء تحيط به كما لو أنهم جميعًا يوفرون له الدعم. قالت وهي تنظر إلى عينيه المُعتقَتين بالحزن:

- كان هنالك رجلٌ أراد أن يقطع الضفة الأخرى من البحر؛ فتبرعت إحدى السفن بنقله دون مقابل، وبينما كان البحارة منشغلين في أعمالهم، عمد ذلك الرجل إلى خلع أحد الألواح الخشبية، ما عرّض السفينة للغرق .. أخبرني يا آزر عن رأيك بهذا الرجل وبما قام بفعله ؟

- جاحد، ناكرٌ للمعروف.

- لكن الرجل لم يصنع ذلك الأمر عبثًا؛ لقد أفسدها لأنه يعلم بأن هنالك ملكًا وراءهم يأخذ كل سفينة غصبًا؛ فأراد بصنعته تلك أن يَعيب السفينة، فلا يجد الملك فيها ما يُغريه لسرقتها .. أخبرني الآن يا آزر: أما تزال ترى ذلك الرجل جاحدًا، ناكرًا للمعروف ؟

- لا.

- ما الذي جعلك تغير حُكمك عليه بهذه السرعة ؟

- لأني عرفت الحقيقة.

وبعد أن نجحت في إيصال درسها إليه؛ انعطفت به نحو الموضوع الأساسي قائلة:

- ربما كان الكاهن شِق مُحقًا حين قال إن أمك تراك كل يوم .. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها قادرة على إظهار هويتها لك، فربما كان لديها سرٌ يمنعها من فعل ذلك يا آزر .. وقد يكون هذا السر أيضًا هو ما دفعها للتخلي عنك في الماضي، وهو نفسه ما يدفعها في الوقت الراهن لأن تواصل تخفيها عنك.

وصمتت قليلًا كيما تتيح لعقله الفرصة ليستوعب كلامها قبل أن تواصل قائلة:

- لا تكن كالحمار تحمل أسفار الماضي على ظهرك؛ فمن يحمل الماضي تكبو قدماه .. اعتزل ما لا يسعك تغييره إلى ما يسعك فعله. وفكر في مستقبلك وفيما يجب عليك أن تصنعه اليوم لتكون ما تريد أن تصبح عليه غدًا.

قال معاندًا:

- لا أريد أن أكون شيئًا مهمًا.

- لا أعتقد أن هذه كانت رغبتك بعد أن استمعت إلى نبوءة الكاهن شِق، أليس كذلك ؟

بدهشة:

- عن أية نبوءة تتحدثين ؟

أجابته بذات الكلمات التي نصّت عليها نبوءة الكاهن:

" تلدين فتاة تُسمينها قَمر .. تقوم لأجلها معارك وحروب

حارسها يا حارسها .. يُخلد اسمه في تاريخ العرب "

- كيف عرفتِ بهذه النبوءة ؟

- ليس مهمًا أن تعرف، المهم هو أن تخبرني عما إذا كنت تُريد أن تُصبح حارس الفتاة التي سيكون اسمها قَمر أم لا ؟

١٢

حارس القمر

قال دون تردد:

- نعم، أريد أن أُخلد اسمي في تاريخ العرب ولكن كيف لفتىً مجهول عديم النسب مثلي أن ينال ذلك المجد ؟

- خطوتك الأولى في هذا الطريق ستكون عبر فوزك بلقب صِنديد العرب؛ فهذا اللقب هو الذي سوف يجعل لك مكانة بين الناس كافة وأهل الوادي خاصة، وهو الذي سوف يُمهد لك الطريق لاحقًا لأن تكون حارس القمر الذي سوف يخلد التاريخ اسمه.

- ولكن جميع المشاركين في المسابقة سوف يجلبون أقوى فرسان الجزيرة وما حولها من ممالك وأصقاع لتدريب أبنائهم على فنون الحرب والقتال؛ وهذا ما سيجعلني الخصم الأضعف بينهم.

- هنا يأتي دوري.

- عن أي دور تتحدثين ؟!

- أنا سأكون مدربتك.

قال مستهينًا:

- أقول لكِ أنهم سيجلبون أقوى الفرسان من أصقاع الجزيرة وما حولها، بل وربما يجلب الآباء لأبنائهم مدربين من فارس والروم واليمن وما حولها بينما أنا تدربني امرأة ؟!

مدت العامرية يدها الهزيلة المخضبة بنانها بالحناء وقالت:

- وافق على شرطي يا فتى، وسأجعلك تحوز اللقب.

- لماذا أراكِ تتحدثين بكل هذه الثقة ؟

- لأنك إن كنت تعتقد أن البطولة حِكر للرجال، فعليك أن تعرف أن النساء مصانع الأبطال.

دفعته ثقتها بنفسها إلى أن يمد يده نحوها مصافحًا، ولكنها أبعدت يدها في اللحظة الأخيرة ولم تصافحه:

- هنالك شيئان يجب أن توافق عليهما أولًا.

- ما هو الشيء الأول ؟

- الطاعة التامة.

- موافق، ماذا عن الشيء الثاني ؟

قالت:

- الشيء الثاني هو أنك لن تحبني وأنا لن أحبك، ولن تعطف عليَّ ولن أعطف عليك. أنا بالنسبة إليك امرأة تقوم بتدريبك لأجل وضعك على المسار الصحيح الذي إن اتبعته بطريقة صحيحة فسوف تصل إلى حُلمك غدًا.

قال يُردد شرطها كما ليُثبت لها مدى جديته:

- لن أُحبك ولن تحبيني، ولن يعطف أحدنا على الآخر، أنت بالنسبة إليّ امرأة تقوم بتدريبي لوضعي على المسار الصحيح الذي إن اتبعته بالطريقة الصحيحة سأصل إلى أن أكون حارس القمر. أنا موافق.

- لم ينتهِ الأمر يا فتى، فهنالكَ ما ستدفعه مقابل تدريبي لك.

- ولكنني لا أملك ما أدفعه لكِ ! ولو عرضتِني في سوق النِخاسة للبيع، لما دفع أحدٌ عليَّ درهمًا واحدًا.

- ليس مالًا تدفعه، بل عهدًا تقطعه.

ردد آزر خلفها متعجبًا:

- عهدًا أقطعه ؟

- نعم وإنه الأهم؛ وهو ما دفعني لأن أغادر جبل مجر الكبش.

- وما هو هذا العهد الذي يُهمك إلى هذا الحد ؟!

- وافق عليه الآن وسأخبرك به لاحقًا.

- ولكن كيف أتعهد لكِ بتنفيذ شيء لا أعرفه ؟!

- هذا شرطي أيها الفتى.

قالت العامرية ذلك ثم عادت تمد يدها الهزيلة المخضب بنانها بالحناء وتسأله:

- أأنت موافق ؟!

ظلت يدها ممدودة في الهواء لمدة طويلة وآزر ينظر نحوها بتردد،

إنه لا يعرف ماذا عليه أن يصنع، أيتعهد لها بشيء لا يعرفه ؟! ..

أم يظل عالقًا في عالم الموت إلى الأبد ؟!

الباب الثاني

١

في صباح اليوم التالي، وعند ارتفاع قرص الشمس من وراء قِمم الجبال الحجازية، تفاجأ أهل الوادي بمشهد جعل الجميع يُحدق نحوه بتعجب، فقد شاهدوا اليمامة بنت أدحج العامرية تسير وسطهم وغرابها يطير فوق رأسها فاردًا جناحيه يُظللها من أشعة الشمس، بينما يتبعها آزر والذئبة وجميعهم يتجهون نحو التلة التي تنتصب عليها قاعدة خشبية ضخمة عُلق عليها طبل كبير يُسمى طبل النداء.

توقفت العامرية عند سفح التلة ونظرت نحوه:

- اذهب وأفعل كما أخبرتك يا آزر.

- أخاف ألَّا يقبلني أحد.

وضعت يدها على كتفه وقالت:

- راقب كلماتك أيها الفتى .. فما تؤمن به حيال نفسك هو ما يُحدد المكان الذي سوف تصل إليه أقدامك غدًا؛ هذا هو درسك الأول: على قدر إيمانك بنفسك تتسع لك رقعة الأرض.

كان قرع الطبل يُعد بمثابة طلب الانضمام إلى المسابقة. يكفي أن يوافق عليه سيدٌ واحدٌ فقط فيكون قارع الطبل بذلك قد نال القبول الرسمي للمشاركة في نِزالات صِنديد العرب، ولكن ما إن تقدم آزر وأصبح يقف على بعد ذراعٍ من الطبل حتى خارت عزيمته؛ إنه يدرك أن السادة لن يقبلوا بواحد مثله، وهذا ما جعله ينظر إلى الوراء بنظرة منكسرة ويهمس قائلًا:

- دعينا نرجع، أرجوكِ.

في الجهة المقابلة كانت العامرية تدرك أهمية تلك المسابقة؛ وتدرك أن فوزه فيها سيجعل له مكانة بين العرب، ويُمهد له الطريق لأن يصبح حارس القمر فينال اسمه الخلود في التاريخ، ولذلك هو بحاجة لحافزٍ خاص يشجعه على قرع الطبل:

- سوف يمتلئ بطن الوادي بالزوار من جميع أصقاع الأرض لمشاهدة النِزالات. والدتك قد تكون ضِمن الحضور؛ فتشاهدك وأنت تقاتل وتنال اللقب، ألن يكون ذلك شيئًا رائعًا ؟

كانت تلك الكلمات كافية لأن تشحذ هِمة الفتى وتجعله يمسك بعصاتَيّ الطبل، ثم يبدأ بالقرعِ مُعلنًا عن طلب انضمامه وقلبه يكاد يطير فرحًا بهذا السؤال: أيمكن لأمي أن تراني فعلًا وأنا أقاتل ؟

٣

على وقع أصوات القرع غادر السادة (دار الندوة) لينظروا إلى المتقدم، ولكنهم ما إن رأوه حتى أشاحوا بوجوههم عنه؛ في علامة واضحة على رفضهم قبوله ..[٧]

لم يستسلم في البداية وواصل القرع دون توقف،

ولكن وقتًا طويلًا مضى دون فائدة؛ الأمر الذي جعل الحزن يتسلل إلى قلبه؛ فأغلق عينيه لفرط الخيبة بينما بدأت عزيمته ترتخي شيئًا فشيئًا كما لو أن يأس أعماقه قد انعكس على يديه حتى توقفتا أخيرًا عن القرع، ثم التفت نحو العامرية وهو يهمس لها معاتبًا لائمًا وفي عينيه تحتشد دموع اليُتم:

- قلتُ لكِ دعينا نرجع.

---

٧ (دار الندوة) هي مقر لتنظيم وإدارة شؤون مكة، يجتمع فيه السادة والشيوخ لتبادل الرأي والمشورة.

كانت المفاجأة هي رؤيته للعامرية تبتسم، لم يفهم في البداية سر تلك الابتسامة حتى أشارت له بإصبعها المخضب بالحناء حيث كان يقف السادة وقالت:

- انظر هناك.

استحالت ملامح الخيبة فيه إلى ابتسامة عذبة وهو يرى أحد السادة وقد رفع يده معلنًا الموافقة على طلبه في اللحظة الأخيرة؛ فمسح دموعه وكاد أن يعانق العامرية ولكنها منعته - منعته لحرصها على غلق أي ثقب قد تتسلل منه المشاعر بينهما - غير أنه اندفع نحوها على الرغم منها وهو يعانقها ويقول:

- هذه المرة .. هذه المرة فقط !

في الحقيقة، كانت أعماق العامرية سعيدة بذلك العناق رغم وجهها الذي أظهر عكس ذلك .. تُرى ما الذي تخبئه تلك المرأة وراءها من أسرار ؟ كان هذا هو التساؤل الذي تطرحه بُثينة على نفسها وهي تراقب المشهد من بعيد.

**

(دار الندوة)

داخل دار الندوة بدت الوجوه - وجوه السادة - غير راضية وهي تنظر نحو الحارث بن الأجهر الذي كان قد رفع يده قبل قليل ووافق على مشاركة آزر في مسابقة صِنديد العرب.

قال صاحبه وأقرب السادة إليه، السيد (عبد هُبل) يعاتبه:

- صبيٌ من العوام لا نسب له ولا أصل، تقبل به في مسابقة يُشارك فيها أبناء الأمراء والشيوخ ؟!

أجاب الحارث بكلمات حيرت عقولهم:

- واللات والعُزّى ما صنعت ذلك إلا من أجلكم.

تلفت السادة حول بعضهم البعض وهم لا يفهمون مقصده؛ فأكمل:

- لقد ضقنا بهذا الصبي ذرعًا بيننا يا قوم، والشيء الوحيد الذي يمنعنا من إراقة دمه هو كفالة سيدنا نُمير بن رَبيعة له قبل وفاته .. وإن اشتراكه في هذا الصراع لهو ما سوف يمنح الفرصة لأحد أبنائنا بقتله دون أن يلومنا أحد على ذلك.

تبدلت الوجوه غير الوجوه وقد انعكس عليها الرضى، ولكن هاجسًا مخيفًا خطر ببال أحدهم تلك اللحظة؛ فقال يشاركه مع الجميع:

- ألا تخشى أن تمنحه العامرية قوة شيطانية تجعله يتغلب على أبنائنا في النِزالات وينال اللقب ؟!

قال الحارث طاردًا ذلك الهاجس من رؤوسهم:

- لا تنسوا أن كَهنة مكة والطائف ويَثرب[8] سوف يشهدون معنا جميع النزالات، فإن كان هنالك أثرٌ للسحر أو الشعوذة فسوف يأتينا أمره.

---

٨ (يَثرب) هو الاسم القديم للمدينة المنورة.

ولما كان الشيء بالشيء يُذكر، قال أحد السادة ناطقًا بما يردده الناس هذه الأيام:

- أتكون العامرية هي والدة الصبي ؟!

وقال آخر معززًا تلك الفرضية:

- لو لم تكن والدته لما حنثت بقسمها وغادرت معتزلها .. إنها وحق ما آمنت به إلعزب أمه .. وقد جاءت مدفوعة بتأنيب الضمير تريد أن تكفر عن ذنبها بعد أن تخلت عنه وهو طفل رضيع.

في تلك اللحظة انبعث صوتٌ من أقصى الدار لسيدٍ مسن يقول:

- ليس المهم أن نحدد نسب الصبي يا قوم، المهم أن يضمن لنا الحارث ألَّا تُحسن العامرية تدريبه فيفوز .. تالله لئن فاز لتكونن تلك وصمة العار وسُبة الدهر.

التفتت الرؤوس نحو الحارث الذي قال مؤكدًا ودون تردد:

- لن يَبلغَ البربري تلك المَنزلة وسوف يخسر من أول لقاء؛ فالعامرية وإن حيكت حولها القصص؛ فهي ليست سوى امرأة لا تجيد غير الطبخ وكنس الغبار.

ضحك السادة من تلك الطرفة إلا هو - الحارث - الذي لا يعرف حتى الآن أية قوة شيطانية ورطته وجعلته يوافق على قبول ذلك الفتى في المسابقة رغمًا عنه.

٣

آزر والعامرية

جبل مجر الكَبش[٩]

ليلة قمراء ذات نسيم عليل يحمل على متنه أريج وادي مكة المحمل برائحة السِدر والطين وبقايا مطر هطل ليلة البارحة، جلست العامرية مقابلة لآزر فوق الجبل وقالت:

- الألم جزء من النجاح الذي ينتظرك غدًّا، جزء من الأسطورة التي سوف تصنعها بنفسك لنفسك، ليس بوسع المرء أن ينال المجد دون أن يدفع نصيبه من الألم.

وكأنما قد أُعجب بكلامها؛ فأراد أن يردده ليحفظه:

- ليس بوسع المرء أن ينال المجد دون أن يدفع نصيبه من الألم.

هنا بدأ هتان مطر خفيف يتساقط عليهم؛ في الوقت الذي ألقت فيه العامرية سؤالها هذا:

- أتعرف سبب تسمية هذا الجبل باسم مجر الكبش يا آزر ؟

---

٩ يُسمى أيضًا جبل ثَبير، ويُطلق أهل مكة عليه جبل مجر الكبش.

قال ورشات المطر تُبلل شعره ووجهه الأمرد الوسيم:

- لا أعرف.

قالت تخبره عن سبب التسمية:

- عاش النبي إبراهيم لسنوات طويلة دون أبناء .. ثم رزقه ربه بولد أسماه إسماعيل، وعندما كبر إسماعيل، جاء الوحي للنبي إبراهيم في منامه يأمره بذبح ابنه.

اتسعت عينا آزر في ذهول وهو يقول:

- وما صنع إبراهيم ؟

- لقد أخبر ابنه بشأن تلك الرؤيا.

- وما قال الابن ؟

- قال افعل ما تؤمر به يا أبتي، ولن أعصي لك أمرًا؛ فتناول إبراهيم السكين وسحبها على عنق ابنه.

ارتاع آزر وفمه ينطق بما خاف منه:

- وقتله ؟

- لا، فالسكين لا تقطع دون أمر ربها.

- ما الذي حدث إذًا ؟!

- لقد جاء النداء الإلهي من السماء؛ وحين تطلع النبي إبراهيم نحو الأعلى شاهد **فحل كبش** أقرن يهبط إليه فوق الجبل ليذبحه بدلًا عن ابنه؛ وقد دارت أحداث هذه القصة هنا فوق قِمة هذا الجبل الذي نقف عليه؛ ولذلك يُطلق أهل الوادي عليه اسم جبل مجر الكبش.

أحس آزر بقشعريرة قوية تجتاح جسده وهو يتأمل الجبل من حوله ويستشعر أحداث القصة التي جرت فوقه:

- أتعلم كيف اجتاز النبي إبراهيم ذلك الاختبار الصعب يا آزر ؟

- كيف ؟!

لقد اجتازه بالثقة - وأضافت تشرح له: الثقة في اتّباع ما يُوحى إليه، وعليك أنت أيضًا أن تثق في اتباع ما يُوحى إليك.

- ولكنني لستُ نبيًا ليوحى إليَّ.

- صوتك الداخلي هو وحيك الخاص؛ الذي يخبرك بأنك مميز، وذكي، وشجاع، وقادر على تحقيق أهدافك مَهما كرهك الناس وكادوا لك وحاولت الحياة منعك .. وهذا هو درسك الثاني، مفهوم ؟!

- مفهـ ..

لم تعطه فرصة إتمام كلمته حتى باغتته بلطمة قوية على رأسه جعلته يصيح من ألمها، ويقول وهو يتحسس مكان الضربة:

- لو لم تكوني امرأة لكنت وجهتُ لك مثلها، لماذا فعلتِ ذلك ؟!

- لأن درسك الثالث قد بدأ: وهو أن الضربة قد تأتيك دومًا في الوقت الذي لا تتوقعه؛ لذا عليك أن تُبقي حواسك دائمًا يقظة حتى تتفادى الضربات الغادرة.

- ألم يكن بوسعك أن تُخففي الضربة قليلًا ؟!

- لا؛ فكلما كان الألم أكبر كلما كان نصيبك من العلم أكثر.

وبينما آزر ما يزال يتحسس موضع الضربة إذ وجَّهت إليه العامرية ضربة أخرى أشد قوة من المرة السابقة جعلته يسقط أرضًا لفرط شدتها، وحين نظر إليها وهو يحاول كبت دموعه رآها وهي تنظر إليه ببراءة وكأنها لم تصنع شيئًا وثمة ابتسامة مستفزة على وجهها؛ فوجد نفسه يقول:

- أتعلمين ؟! .. كنت أخاف أن أُقتل في نِزالات صِنديد العرب.

- والآن ؟

- لم أعد أخاف.

- لأنك أصبحت أكثر ثقة بنفسك، أليس كذلك ؟

- بل أكثر ثِقة في أنني سأموت على يديكِ قبل بدء النِزالات.

ضربته العامرية للمرة الثالثة على رأسه بقوة فاقت المرتين السابقتين، ورغم أنه بدا غاضبًا أمامها مستعدًا لإطلاق يديه للانتقام، إلا أنها قرّبت وجهها منه بكل برود وهي تقول في ثقة:

- لقد أخبرتني قبل قليل أنني لو لم أكن امرأة لكنتَ ستضربني، وبذلك تكون قد كشفت لي نقطة ضعف استطعت أن أضربك من خلالها؛ درسك الرابع هو ألّا تخبر أحدًا عن نِقاط ضعفك.

- أرجو أن تُخففي الضرب قليلًا؛ كيلا أُشل على يديكِ.

مدت العامرية يدها نحوه؛ فأساء آزر التقدير وأعتقد أنها ستضربه مجددًا فأغمض عينيه وحمى رأسه بذراعيه .. كان منظره مضحكًا ولكنها كبتت ضحكتها وقالت:

- لن أضربك، هات يدك فقد تأخر الوقت؛ وغدًا ينتظرنا يوم حافل.

- أأثق بك، أم أنه ينتظرني درس خامس ؟

لقد ضحك قلبها بلا شك، ولكنها كانت تُحسن إبقاء وجهها جامد الملامح:

- هات يدك يا ولد.

أمسك يدها واستند عليها ليقف، قالت وهي تنظر إلى عينيه:

- لا أريدك أن تنسى العهد الذي قطعته لي.

- لو أنك فقط تخبرينني به.

- سأخبرك عندما يحين وقته، ولكنني أريد أن أتأكد بأنك لن تُخلف تنفيذه مهما كان صعبًا.

- آزر لا يحنثُ بعهدٍ قطعه لأحد، وهذا هو درسك السادس.

أشاحت بوجهها عنه؛ ذلك أنها لم تكن تريده أن يرى ابتسامة الإعجاب التي ارتسمت على ثغرها؛ فهي لا تريد أن تجمعها بذلك الصبي الصغير أي شيء - ولو كان تافهًا - من شأنه أنْ يُدخل العاطفة بينهما .. وبينما كانت مُشيحة بوجهها إذ لمحت قطًا أسود يتلصص عليهما من بعيد؛ فقالت تأمر آزر:

- اذهب إلى المنزل، وسألحق بك لاحقًا.

ما إن ابتعد آزر من هناك حتى راح القط الأسود يدنو من العامرية مقتربًا، وقد كان في كل خطوة يخطوها نحوها ينتصب فيها ظهره وتتمدد فيها أطرافه حتى استحال إلى نفرٍ من الجن يقف أمامها على بعد متر، متجسدًا بهيئة شاب يرتدي ثيابًا عربية:

- أما زال جميل المُحيا غاضبًا ؟!

- أما تزال تراني جميلة رغم هذه التجاعيد التي وخطها الزمان على وجهي، ورماد الشيب، هذا الذي زحف إلى روحي وليل شعري ؟!

- عين العاشق ترى الجمال في كل شيء أيتها العامرية.

ابتسمت في خجل؛ فعاد يسألها:

- أما زال جميل المُحيا غاضبًا ؟!

- عشرون عامًا وأنت تسألني كل يوم، أما مللت هذا السؤال ؟

- وسأظل أسألك حتى يمل صبركِ وتسمحين لي بالاقتراب.

ابتسمت العامرية له وكأنها تتعجب من إصراره، وقالت:

- أما والله قد ملّ صبري؛ فاقترب يا **يغوث**، وعليك مني الأمان.

٤

وبالرغم من أن العامرية عادت في وقت متأخر تلك الليلة إلا أنها أفاقت صباحًا قبل آزر؛ وبدأت مهام تدريبه .. كان آزر ذلك النهار يبارز لأول مرة في حياته، ولكن خطواته الخفيفة أثناء الحركة، ومرونة جسده، وقوته وهو يقاتل بالدرع والسيف، واستجابته للتعليمات وفهمه لها دون الحاجة لشرح طويل، كل ذلك كانت علامات تشي بأنه محارب بالفطرة.

كان الدرع الذي يحمله مصنوعًا من الخشب الخفيف، صنعته له العامرية خصيصًا، وقد جعلت حوافه من الحديد ذي الشفرات القاطعة؛ لتضمن أن تحقق له هذه الأهداف: درع يُدافع به عن نفسه، ولا يُثقل حركته أثناء القتال، وفي ذات الوقت توفر له الحواف الحديدية ذات الشفرات القاطعة أداة هجومية فتاكة، فيستطيع بذلك الأسلوب القتالي النادر أن يدافع عن نفسه بالدرع ثم يهاجم خصمه بالدرع والسيف في آن واحد.

لم تكتفِ العامرية بتطوير قوته البدنية فقط بل كانت تضع اهتمامًا كبيرًا بعقله؛ وهذا ما جعلها تدفعه كل ليلة لقراءة صفحاتٍ من كتاب الحَبر، وحين سألها ذات مرة عن السبب الذي يجعلها تحثه على ذلك بعد أن عجز عن إيجاد الفائدة التي قد تعود إليه كمحارب من قراءة القصص، قالت تجيبه عن تساؤله:

- الجهلاء وحدهم من يعتقدون أن القصص وُجدت للتسلية فقط.

- وما الذي قد أستفيده من قراءة القصص ؟

- أمورٌ كثيرة، أحدها وهو ما أسعى إليه أنها ستقوي خيالك.

- الخيال ؟! .. وما الذي قد يُفيدني به الخيال في هذه المرحلة ؟!

- الخيال يأتي أولًا؛ كل ما بوسع عَقلك تخيله يستطيع قلبك تحقيقه.

ثم صمتت قليلًا كما لتترك لتلك الجملة فرصة التسلل إلى عقله فترسخ فيه، قبل أن تكمل قائلة:

- خيالك هو خيلُك، غذاؤه القراءة، تمتطيه فيُحلق بك نحو مجدك.

**

وهكذا سارت الأيام المقبلة: في الليل تعمل على تطوير مخيلته بواسطة القراءة، مؤمنة أنها لن تستطيع أن تصنع منه مقاتلًا أسطوريًا دون أن تُغذي مخيلته بالقصص .. وفي الصباح تعزز جسده بالقوة عن طريق تمارين المقاومة وتدريبه على المبارزة بالسيف والدرع.

وذات أحد الصباحات، وبينما الذئبة والغراب يراقبان مبارزتها له في ساحة التدريب خلف الدار، كانت هنالك نظرات دخيلة لشخصين غامضين يتلصصان من بعيد على مشهد التدريب دون أن ينتبه لهما أحد.

**

(المتلصصان)

بعد غروب الشمس وعلى أضواء المشاعل:

وقف الحارث بن الأجهر في الفناء الخارجية الواسعة لداره يتأمل ابنه كعب وهو منهمك في الصراع مع مدربه، في الوقت الذي اقترب فيه أحدٌ من خلفه وقال يسأله:

- ما الذي يشغل بال سيد الوادي يا تُرى ؟!

قال وهو ما يزال يُحدق نحو ساحة التدريب:

- ما رأيك بالمستوى الذي رأيناه صباح اليوم من ذلك الفتى ؟!

- أتقصد آزر ؟

- ومن غيره يا عبد هُبل، ومن غيره ؟!

كانت تجمعهما صداقة قديمة؛ تجعل عبد هُبل يعرف صاحبه جيدًا وهذا ما جعله غير مرتاح لذلك الإلحاح المستنكر الذي يراه منه بخصوص هذا الفتى تحديدًا:

- إني لأعجب من اهتمامك بهذا الفتي دون غيره أيها الحارث؛ فلقد تلصصنا على الكثير من التدريبات، ولم أرك تكترث إلا بشأن هذا الفتى البربري ابن الذئبة.

التفت الحارث نحوه وقال منفعلًا يجيبه عن تساؤله:

- ها أنت ذا تقولها بنفسك يا عبد هُبل " البربري ابن الذئبة " ماذا سيحدث لو أنه فاز ؟! .. وتلك مسابقة فيها من فيها من أبناء السادة وشيوخ القبائل وأمرائها .. ماذا سيقول الناس عنا ؟! .. بربري غير ذي نسب يفوز على ابناء الأصل ويُعلق اسمه على أستار الكعبة ! !

- تتحدث وكأنك لستَ أنت الذي وافق على انضمامه ؟!

يصيح معترفًا هائجًا لفرط غضبه وسخطه:

- واللات لا أدري كيف رفعتُ يدي .. أتكون تلك الشمطاء قد مارست عليَّ إحدى تعاويذها فتحركت يدي رغمًا عني ونطق لساني بالموافقة ؟

عبد هُبل متعجبًا من سماعه لذلك السر:

- ولكنك قلتُ في دار الندوة كلامًا يوحي بأنك وافقت بمحض إرادتك؛ فلماذا لم تخبر السادة بمقالتك هذه ليطردوه من المسابقة ؟

- أتريد الناس أن يقولوا إنني تراجعت عن كلمة قلتها ؟! .. وحق اللات والعزى لو أن كل شياطين الإنس والجن قد تلبستني على قولٍ كلمة خرجت من بين شفتي لأنفذتها ولو كان فيها ضرب عنقي.

امتدت بينهما لحظات من الصمت قطعها الحارث بأن أعاد عليه سؤاله الأول:

- أصدقني الرأي.

- في ماذا ؟

- في أن أذبحك وأفرق لحمك بين الطائفين.

قال وقد ندت عنه ابتسامة بلهاء:

- كلي فداء سيدنا.

- ما أحوجني الساعة لمثل قلبك الغبي البارد.

- هدئ من نفسك يا حارث، لا شيء يستحق.

- أصدقني الرأي، وأخبرني عن رأيك به ؟

كان عبد هُبل يدرك أن الفتى بارع في القِتال، لقد شاهده يُقاتل بطريقة فريدة لم يسبق أن شاهد مثلها من قبل، لقد رآه وهو يصد بدرعه ضربات سيف العامرية، ثم سرعان ما يبدأ بمهاجمتها مستخدمًا سيفه من جهة ودرعه الذي يستحيل من أداة للدفاع إلى أداة هجومية قوية بامتياز من جهة أخرى، إنه يقاتل بخفة وسرعة عالية وكأنما خُلق ليكون محاربًا، ورغم ذلك كان عليه - على عبد هُبل - ألا يُثير القلق في نفس صاحبه، فأجابه بتوازن:

- لا تنسَ أنك قد استقطبت لابنك كَعب مدربًا قد شهد حروبًا وفيرة من أيام حروب العرب .. فتجاهل أمر ذلك البربري يا حارث ودعنا نضع جُل تركيزنا في فعل كل ما يلزم لتطوير قدرات كَعب وتأهيله لنَيل اللقب.

٥

في تلك الليلة،

وبينما كان آزر نائمًا وهو يحتضن سيفه؛ إذ امتدت إليه من عُمق الظلام يدٌ غليظة قوية أطبقت على عُنقه ثم قذفت به بعيدًا .. ليستيقظ من هول الصدمة ويجد نفسه مقذوفًا في الهواء متجاوزًا نافذة الدار وقد ارتطم جسده بالأرض .. كان ما حدث مباغتًا بالنسبة له ولكن الفاجعة الكُبرى كانت عندما رفع آزر رأسه وشاهد المُهاجم وهو يدنو منه مقتربًا؛ فلفرط طول المهاجم وعرضه ومتانة جسده بدا وكأنه بعير آدمي:

" تُرى أين اختفت العامرية ؟! وأين حواء ؟! إنه يذكر بأن الذئبة كانت تنام إلى جواره قبل أن تتم مهاجمته بتلك الطريقة الوحشية .. أيكون آدمي البعير هذا قد مسهما بسوء ؟!! "

سرعان ما أوقف آزر تلك الأسئلة .. وقرر الدفاع عن نفسه عبر مهاجمة خصمه وإيقافه عند حده؛ ثم البحث عن الإجابات لاحقًا .. فنهض من مكانه وراح يركض نحوه بكل سرعته ..

هنا ومن خلف باب الدار: ابتسمت العامرية التي كانت تراقب المشهد منذ البداية - إذ أنها هي من دبرت الأمر - لتضع آزر في خطر حقيقي فترى كيف يتصرف؛ فقالت تحادث الذئبة:

- ابنكِ يملك شجاعة نادرة يا حواء.

واصل آزر ركضه نحو آدمي البعير .. ولكنه ما كاد أن يقترب منه أكثر حتى أدرك أن عدوه أكبر حجمًا بكثير مما كان يراه وهو بعيد؛ وهذا ما جعله في اللحظة الأخيرة ينحرف عن مساره ويلوذ بالفرار هاربًا ! !

ولو أن أحدًا شاهد الذئبة تلك اللحظة لخُيل إليه أنها كانت تتأمل ابنها الهارب من خلف الباب وهي تبتسم .. فتحت العامرية باب الدار وهي تصيح وتمسك رأسها بكلتا يديها:

- ثكلتك أمك أيها الجباااان ! !

ما إن رآها آزر حتى أدرك أنه كان في اختبار؛ ولكن لشدة خوفه من عقابها لم يتوقف وظل يواصل الركض مبتعدًا وهي تُكرر صياحها عليه:

- عُد أيها الأرنب الهااارب ! !

لم يصغِ لكلامها، وظل يركض مبتعدًا حتى لا يُطبخ على عشاء الليلة.

اقترب آدمي البعير منها وانحنى لها وهو يقول:

- لقد فعلتُ كما أمر جميل المُحيا، أهنالك أمرٌ آخر ؟

مدت العامرية يدها نحو يَغوث الذي أمسكها بحماس عاشقٍ يُمسك يد معشوقته لأول مرة، وراحا يبتعدان من هناك تحت أنظار الذئبة التي كانت تُدرك أن في الأمر شيئًا غير مريح.

**

(الجازور)

بدا الشيطان يَغوث مُنهكًا تلك الليلة بسبب اكتمال القمر في السماء، فقد كان مصابًا بداء اسمه (**الجازور**)؛ وهو داء يُصيب بعض الشياطين فيجعلها تفقد قوتها في كل ليلة يكتمل فيها القمر؛ الدواء الوحيد الذي يُخفف وجع الشيطان المصاب به هو ما يُعرف بالسُكنى[١٠]، وهذا ما دفع يَغوث ليسأل العامرية قائلًا:

- أتسمحين لي بالسُكنى ريثما تنتهي هذه الليلة ؟

ارتسمت على مُحياها ابتسامة غامضة تميل إلى الحزن وهي تقول:

- ما كنت أظن أنه سوف يأتي اليوم الذي أنسى فيه أعصم، وأسمح لغيره بأن يقترب مني؛ ولكن يبدو أن للزمن سُلطانًا يَقهر به القلوب ويروضها.

---

١٠ السُكنى هنا تعني أن يسكن أحد من بني الجان جسد إنسانٍ يثق به، اتقاء للوجع الذي يصيبه بسبب اكتمال القمر.

قالت ذلك ثم شقت في أحد أصابعها المخضبة بالحناء جُرحًا صغيرًا، ولج من خلاله يَغوث إلى جسدها؛ ليسكن فيه ريثما تنتهي الليلة.

٦

أشرقت شمس الصباح وآزر يتكئ على صخرة في طرف الجبل؛ إنه يدرك أن موعد تدريبه قد حان ولكن الخجل من لقاء العامرية هو ما كان يمنعه من الذهاب.

وبينما هو رابضٌ مكانه هناك إذ أتاه صوت العامرية من خلفه يقول:

– من بظنك أكبر حجمًا يا آزر، الذئب أم الثور ؟!

– في الوقت الحالي لا أرى أكبر حجمًا من ذلك البعير الذي هاجمني ليلة البارحة.

قالت وهي تجلس إلى جواره وعلى كتفها يستقر غرابها الأسود:

– أنا لستُ غاضبة منك.

التفت نحوها ليقَيس مدى جديتها ثم قال يسألها:

– أحقًا لستِ غاضبة ؟

– لقد غضبتُ منك في البداية عندما رأيتك تهرب كالأرنب من أمامه، أتعلم ؟! .. لو كان اسم اللقب الذي سوف تنافس عليه أرنب العرب لكنتَ ستفوز به حتمًا.

ابتسم آزر رغمًا عنه.

بينما عادت تسأله بنبرة جادة:

- لم تجب عن سؤالي بعد: أخبرني من الأكبر حجمًا الذئب أم الثور ؟

- الثور بالتأكيد - قال - الثور أكبر حجمًا من الذئب.

- ورغم ذلك فالذئب يصرعه ويأكله، أليس كذلك ؟

- هذا صحيح.

- ألم تسأل نفسك يومًا عن السر ؟

على الرغم من بساطة المعلومة، إلا أنه بدا وكأنه يعرفها لأول مرة، وتساءل في نفسه: كيف يستطيع الذئب أن يهزم مخلوقًا يفوقه حجمًا زُهاء الثلاث مرات ؟

- لا أعرف.

- السر يكمن في الطريقة، وهذا هو درسك السابع.

- الطريقة ؟!

- نعم؛ الطريقة التي يرى كل منهما الآخر؛ فالذئب عندما يرى الثور يرى فيه وجبة طعام له فينقضُ عليها .. بينما الثور يرى في الذئب خطرًا يُهدد حياته فيلوذ بالفرار.

قال يسألها وقد فهم المغزى:

- أكان من الخطأ أن رأيتُ في ذلك البعير خطرًا يُهدد حياتي فلذتُ بالفرار من أمامه ؟

قالت تُجيبه:

- في هذه المرحلة كان من الطبيعي أن تفعل ذلك؛ ولهذا أخبرتك أنني لستُ غاضبة منك .. ولكننا سنعمل في السبعة أشهر القادمة على أن نجعلك الذئب الذي يرى في عدوه مهما بلغ حجمه وقوته، فريسة ينقض عليها فيصطادها.

وما إن أنهت عبارتها تلك حتى وجهت إليه - وبسرعة خاطفة - لطمة قوية على وجهه، غير أنه استطاع صدها قبل أن تصل إليه، فقالت العامرية في ابتسامة فخر:

- ها قد بدأت تتصرف مثل صياد ماهر.

ابتسم آزر ولكن ليس لأنه نجح في صد ضربتها بل لأنه نال إعجابها، ولما ظن أن كلامها انتهى، نهض معتقدًا أنهما سوف يذهبان إلى ساحة التدريب ولكن العامرية لم تتحرك من مكانها وقد بدا أن هنالك ما تريد قوله، وهذا ما جعله يسألها:

- ما بك ؟

قالت بعد لحظات من الصمت:

- أأنت مستعد لمعرفة العهد الذي أريد منك تنفيذه ؟!

- نعم؛ وسأفعله مهما كان صعبًا.

- أتمنى أن يظل رأيك هذا ثابتًا حتى بعد أن تعرفه.

- لقد قطعتُ لكِ وعدًا بتنفيذه ولن أتراجع عن هذا الأمر ولو كان فيه ضرب عنقي.

كان يقول كلامًا أكبر من عمره بلا شك، ولكن العامرية متأكدة من أنه يعني كل حرفٍ فيه، مكثت صامتة لبعض الوقت قبل أن تفتح فمها لتقول وكأنها تذكرت أمرًا:

- ولن تسألني عن الأسباب.

وهو يثني ركبتيه أمامها جالسًا وينظر إليها:

- مُريني أطع عهدكِ دون السؤال عن الأسباب.

حركت كتفها الأيسر بهزَّة طفيفة ليلتقط غرابها الإشارة ويقفز حائمًا في الهواء، ثم ينعق بطريقة محددة فهمت العامرية من خلالها أنها تستطيع أن تكشف النِقاب عن السر دون أن تخاف من أُذنٍ تسترق السمع عليها، فبدأت تخبره بالعهد الذي تريد منه تنفيذه حتى إذا ما انتهت من كلامها أخيرًا بانت الفاجعة على وجه آزر، وسقطت من عينيه دموع لم يسبق لها أن سقطت أمام غريب من قبل؛ **لقد كان ما طلبته منه أقوى من قدرته على التحمل، وقد أدرك أنه تورط بقبول العهد، وتمنى لو أنه لم يأتِ إلى هذه الحياة؛ فيشقى طوال عمره بتنفيذه.**

"بعد سبعة أشهر"

بدء منازلات صِنديد العرب ..

٧

اليوم ما قبل الأول
"دق الأقداح"

كان اليوم ما قبل الأول يُسمى بيوم (دق الأقداح)، وفيه يجلب السادة قدحًا كبيرًا يضعون داخله سِهامًا تُكتب عليها أسماء الصبية المشاركين؛ فيتم من خلالها اختيار الخصوم.

حين جاء اليوم التالي: كان النِزال الأول يضم أحد أبناء سادة مكة ضد فتى من قبيلة خُزاعة، فاحتشدت القبيلتان حول حلبة الصراع وبقية الناس على الجبال يشاهدون بدء القتال .. وقد استمر بينهما لمدة من الزمن حتى قام فتى خزاعة أخيرًا بتوجيه ضربة قوية بارعة تسببت في كسر ساق خصمه وحسمت الفوز لصالحه.

امتدت فترة استراحة قصيرة تفصل النِزال الأول عن الثاني، يتم خلالها توزيع الطعام والشراب على الجماهير، ريثما يتهيأ الخصمان التاليان للنزال القادم.

**

(دار الندوة)

داخل دار الندوة بدا الضيق على الأعيان وهم يسمعون أصوات قبيلة بني خزاعة في الخارج وهم يتفاخرون بنصرهم؛ فمال أحد السادة نحو الحارث وقال هامسًا:

- ابنك هو التالي يا أبا كَعب.

- أتظنني أجهل هذا الأمر يا عبد هُبل ؟

- لا؛ ولكنني أريدك أن تنظر إلى الوجوه من حولك.

نظر الحارث حوله، فشاهد وجوهًا مُكفهرة شاحبة:

- هذه الوجوه لن تحتمل هزيمة ثانية اليوم يا أبا كَعب .. وقد سمعت أن هذا الفتى (ضِرغام) الذي سوف يواجهه ابنك بعد قليل يُعد أحد أقوى فِتيان قبيلة بني بَكر.

بان القلق على وجه الحارث بن الأجهر،

وقد أدرك أن في انتظار ابنه كَعب مهمة صعبة للغاية.

ورغم أن الأمر في نهاية المطاف كان عبارة عن منافسة قِتالية لا تعدو كونها وسيلة للترفيه، إلا أن كل قبيلة مشاركة كانت ترى النِزال وكأنه حرب مصغرة يعلو فيها اسم القبيلة بالنصر أو يهبط بالهزيمة، وهذا ما دفع الحارث ليضع على نفسه هذا النذر:

- اشهدوا عليَّ يا قوم - وأضاف عندما اتجهت الأبصار نحوه:

- شرف مكة بات معلقًا بناصية ابني كعب .. فإما أن ينتصر في نِزاله ضد الفتى البكري .. وإما أن يُهزم فأغسل بدمه عار اليوم.

**

(النِزال الثاني)

وقف الاثنان - كعب بن الحارث والفتى البكري - داخل الحلبة وقد استعدا للنِزال، وما هي إلا لحظات يسيرة حتى قُرع الطبل فسحب كل واحد منهما سيفه واشتبك بالآخر بقوة .. والحشود تهتف مُنقسمة بين هذا وذاك بينما سيد الوادي - الحارث - يشاهد النِزال صامتًا وهو يُمسك سيفه الذي سوف يَفي به نذره في حال هُزم ابنه ..

مرَّ وقت طويل والاثنان يتصارعان بقوتين متعادلتين حتى سدد الفتى البكري ضربة بارعة أطارت السيف من يد خصمه كَعب؛ فاشتعل النِزال بطريقة مجنونة وراحت قبيلة بَكر تصدح بالهُتافات والأهازيج وقد اقترب فتاها من النصر بعد أن جرّد خصمه من السلاح، لينطلق بعدها الفتى البكري بسيفه مستهدفًا صدر كَعب؛ فأغمض الحارث بن الأجهر عينيه لكي لا يَشهد هلاك ابنه .. وبينما كانت عيناه مُغلقتين سمع شيئًا لم يستطع تفسيره: فقد أُخرست أفواه قبيلة بني بكر فجأة وعلت هُتافات أهل مكة، ففتح عينيه ليفهم ما حدث؛ وهنا كانت المفاجأة حين شاهد ابنه وقد استطاع أن ينتزع السيف من يد خصمه ويصوبه نحو عنقه؛ ما جعل الفتى البكري يُعلن قائلًا:

- أستسلم.

**

(النِزال الثالث)

كان النِزال الثالث هو الأخير لذلك اليوم،

حيث يجمع ما بَين - آزر وفتى من قبيلة كِندة - ورغم أن آزر من أهل الوادي إلا أنهم قد التزموا الحياد معه ولم يهتف أحدٌ منهم باسمه؛ فاتجهت كل الهُتافات إلى الفتى الكِندي.

كان إحساسًا ثقيلًا على قلب آزر وهو يتأمل خصمه وقد راحت قبيلته والناس يهتفون باسمه ويشجعونه، بينما هو يقف في ساحة النِزال وحيدًا عيناه إلى الأسفل لفرط الخجل ولا صوت يهتف له ويشجعه، لو كانت أمه الذئبة حوله لكان ذلك سيعطيه قليلًا من الثقة، ولكن السادة استبعدوا وجودها حتى لا يخاف الناس منها، أما العامرية فقد نصحوها بعدم الظهور حتى لا يراها العرب فيعودوا إلى قصتها القديمة.

رفع آزر بصره عن الأرض وراح يُفتش بنظرات منكسرة في وجوه الجماهير عن بُثينة، وجهها الأسمر المُزدان بندوب المخالب كان سيبعث الأمان إلى قلبه بالتأكيد، ولكن مَنزلتها - وهي امرأة تَعمل عند السادة بالأجرة - لا تتيح لها التواجد هناك.

كثير من المشاعر السيئة اختلطت بقلبه تلك اللحظة، وهذا ما جعله لا يَنتبه إلى صوت قرع الطبل الذي أعلن عن بدء المعركة، وبالتالي لم ينتبه لضربة خصمه السريعة إلا في آخر لحظة؛ وهذا الانتباه المتأخر هو ما جعل محاولة تفاديه للضربة لا تنجح بشكل كامل؛ فقد استطاع سيف الخصم أن يُسبب له جرحًا سطحيًا في فخذه سوف يجعل حركته بطيئة في الوقت القادم، تعالت الهُتافات لصالح الفتى الكِندي، فكان ألم تلك الهُتافات بالنسبة إلى آزر أشد وجعًا من أنه لو كان قد استقبل ذلك الجرح في قلبه.

عاود الفتى الكِندي الهجوم،

فسدد ضربة ثانية قوية بالسيف استطاع آزر صدها بدرعه،

لكن الضربة كانت أقوى مما توقع، فتراجع بسببها إلى الخلف وقد تعثرت قدماه وسقط أرضًا .. رفع الفتى الكِندي يديه عاليًا ليحصد مزيدًا من الهتافات باسمه وقد اقترب من النصر، وراح جميع من كان حول الحلبة يُرددون بصوت واحد:

اقتل ! ! اقتل ! !

اقتل ! ! اقتل ! !

اقتل ! ! اقتل ! !

سيطرت الهتافات على ذهن آزر مؤكدة له أكثر حقيقة أنه منبوذ ومكروه؛ فتحطمت عزيمته وكُبلت أطرافه كما لو أن احباط قلبه قد انعكس على بدنه وشل حركته .. كل ما كان بوسعه أن يفعله هو أن يستعد للموت، ولكن عند تلك اللحظة النادرة انبعث صوت من فوق قِمة جبل أبي قُبيس أخرس أفواه الحشود البشرية، كان ذلك صوت عواء أمه الذئبة حواء التي وكأنما كانت تقول له بأنها كل جماهيره التي تشجعه وتؤمن به.

شحذ ذلك الصوت روح الحماس بداخله وعزز ثقته بنفسه ما جعله ينهض ويكون شخصًا آخر يختلف عن الذي كانه قبل قليل، فعاد النِزال يشتعل بينهما، واشتبك الخصمان بقوة عنيفة وقد استمر بينهما القِتال مدة من الزمن حتى استطاع آزر أن يُسقطه في النهاية ويصوب سيفه نحو عنقه؛ ما جعل الفتى الكِندي يؤثر حفظ روحه ويقول مُعلنًا:

- أستسلم.

صمت الحشد بسبب النتيجة غير المتوقعة، بينما لم ينتظر آزر من أحد أن يُشجعه كان يَكفيه فقط أن ينظر نحو قِمة الجبل - جبل أبي قُبيس - ويرفع يده الممسكة بسيفه لتعوي الذئبة حواء، وخلفها يتعالى صوت عواء زُمرة الذئاب المُنبعثة من أعماق الوادي.

**

(بعد سبعة أيام)

كان الحارث بن الأجهر ذلك المساء يجلس على مصطبة من الطين عند باب داره، وقد بدا سارح الذهن وهو يتأمل السماء بشرود؛ مما جعل صاحبه عبد هُبل الجالس إلى جواره يعلق قائلًا:

- أأرسلت عبيدك في طلبي لتمكث ساهم الفكر هكذا ؟

واصل الحارث صمته، ما جعل عبد هُبل يقول حاثًا إياه على الكلام:

- هذا الوجه العبوس لا يَليق بحالك؛ فقد وصل ابنك كعب إلى النِزال الأخير بعد أن خاض نِزالات عديدة، وها هو قد قاب قوسين أو أدنى من تحقيق لقب الصِنديد

قال الحارث يكاشفه عما يفكر فيه بصوت مُثقل بالهموم:

- أفكر فيما سيحدث غدًا يا عبد هُبل، إن الذي كنت أخاف منه بات واللات قريبًا.

كان يوم الغد حاسمًا في المسابقة؛ إذ يُنازل فيه آزر فتىً من القبائل الشمالية لجزيرة العرب اسمه - قَيس بن هامة الشمال - والفائز منهما يصعد بعد أيام للقاء كَعب بن الحارث وينافسه على حَمل لقب الصِنديد في النِزال الأخير.

قال عبد هُبل يُطمئنه:

- ألا تعتقد أن ابنك كَعب يستطيع هزيمته إن لاقاه في النِزال الأخير ؟!

- كَعب قوي، وقد شَهدنا منه ما يسر الفؤاد.

- لماذا فؤادك مُشتعل بكل هذا القلق إذًا يا حارث ؟!

- لأنني وإن كنت واثقًا من مهارته .. إلا أنني لا أستطيع ضمان تغلبه على ذلك البربري - ثم أضاف وثَمة قلق رهيب يقدح كالشرار من عينيه:

- ماذا تراني سأصنع إن استطاع ذلك البربري التغلب على ابني يا عبد هُبل، أي عارٍ سوف يَلحق بي وبأهل الوادي ؟! .. أتقول العرب إن فتىً عديم النسب جندل ابن الحارث بن الأجهر سيد سادة البطحاء والوادي ؟! تلك إذًا واللات سُبة الدهر وعار الأبد .. وإن ضياع المال عندي أو الموت لهو أهون من حدوث ذلك ! !

ولمّا صمت عبد هُبل وطال سكوته التفت إليه الحارث غاضبًا:

- لو كنت أطمح بسماع الصمت لكنت شكوت همي إلى حمارة الدار؛ فهي تُحسن الصمت خيرًا منك - وصاح عليه قائلًا: ألا تشور عليَّ بشيء قبحتك الآلهة ؟

- ما فهمته منك هو أنك لا تُبالي بهزيمة ابنك كَعب.

- ألم أقل إن الحمارة كانت ستفهمني أكثر منك ؟

- دعني أُكمل !

- تكلم ..

- أنت لا تُبالي بهزيمة كَعب، المهم عندك فقط هو ألَّا يُهزم أمام آزر.

صمت الحارث قليلًا ثم قال معترفًا:

- إن كان لا بد من الهزيمة، فأن يُهزم ابني كَعب أمام مقاتل ذي نسب، خيرٌ عندي من أن يُهزم أمام فتىً لقيط لا نسب له ولا أصل.

قال يُشير عليه:

- كِد للبربري مكيدة لا فِكاك منها إذًا؛ تجعله يُهزم في نزال الغد ضد فتى قبيلة الشمال؛ فتضمن ألَّا يلاقي ابنك في الجولة الأخيرة.

هزَّ الحارث رأسه وقد أعجبه ذلك الاقتراح، وصاح ينادي:

- جحش، يا جحش !

وما هي إلا لحظات حتى جاء جحش مهرولًا بجسده الضخم:

- أمرك سيدي.

الحارث وهو يُشير بيده:

- تعال ادنُ يا جحش، واجلس ها هنا ..

أدرك العبد فورًا أن هنالك أمرًا هامًّا يريده منه سيده؛ فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يطلب فيها منه الجلوس أمامه، فجلس مقابلًا له خافضًا رأسه.

أمسكه الحارث من شحمة أذنه الكبيرة وهمس فيها:

- أتعرف اسم صاحبي هذا يا جحش ؟!

- نعم أعرفه.

- ما اسمه ؟

- إنه سيدي عبد هُبل.

- وتعرف هُبل يا جحش ؟

- ومن لا يعرف إله الحرب والنُصرة يا سيدي ؟

- وتعرف كيف يُقدم الناس أُضحياتهم له ؟!

- أعرف، أعرف.

- سوف أسفك دمك، وأُقدمه قُربانًا لهُبل إن عرف أحد بما سوف أُكلفك به الساعة.

- لن أخبر أحدًا - قال جحش وكرر - أعدك بذلك يا سيدي.

أفلت الحارث أذن جحش، ثم قال له:

- اسمع إذًا ..

**

(القلادة)

ليلًا،

وقبل انقشاع ضوء الفجر بوقت قصير، التقى الحارث بالمدرب المسؤول عن تدريب فتى قبيلة الشمال - الذي سوف يُنازل آزر غدًا - التقى به في أحد الشِعاب البعيدة حتى لا ترصده العيون، يحمل بيده الشيء الذي كان قد أوصى عبده جحش أن يذهب ليجلبه له وهو عبارة عن صُرة صغيرة من الجلد تحوي بداخلها شيئًا.

قال وهو يمد الصرة نحو المدرب:

- اطلب من تلميذك أن يضع هذه على عنقه في قتال الغد يا حاييم.

أخرج المدرب حاييم ما كان مَخبوءًا داخل الصُرة فوجدها قلادة صُنعت من جلد الماعز، وقد كُتب عليها بعض الحروف والكلمات والرسومات الغريبة:

- لا أستطيع - قال وهو يعيدها - أنا لا أستطيع قبول أمرٍ كهذا.

ابتعد حاييم مغادرًا، ولكن الحارث الذي يعرف من أين تؤكل الكتف قال بمكر:

- إنك واللات لفي حاجة إلى هذا الطلسم أكثر مني.

التفت حاييم بفضول، بينما أكمل الحارث:

- إنك من يهود يثرب، وإن قومك أهل تجارة وزراعة، فإن فاز تلميذك غدًا أصبتَ معه صيتًا رفعت به نفسك وقومك؛ فتصبح بينهم عزيزًا مُطاعًا، فأطعني ولا تخسر هذه الفرصة.

لم ينتهِ الحارث من كلامه ذاك حتى عاد حاييم أدراجه:

- وماذا عن الكَهنة الذين سيَشهدون النِزال ؟

- لا تكترث بشأنهم سنعرف كيف نكسب ودهم؛ فأنا وبقية السادة غير راضين عن هذا الفتى البربري عديم الأصل وسوف يُسعدنا أن يُهزم بأية طريقة كانت.

أخذ حاييم الصُرة وخبأها تحت ثيابه ثم استدار، ولكنه قبل أن يبتعد حذف إليه الحارث بصرّة مليئة بالدنانير:

- سوف يَصنع تلميذك لنا معروفًا جليًا إن قتل ذلك البربري غدًا.

انكسرت نظرة حاييم وبات يتطلع إلى الحارث بذات الطريقة التي يتطلع فيها العبد إلى سيده، قال وهو يُخبئ صُرة المال في ملابسه:

- سأحثه غدًا على ذلك يا سيدي.

٨

النِزال ما قبل الأخير
"آزر وفتى قبيلة الشمال"

بدأت الهتافات مبكرة باسم فتى قبيلة الشمال قَيس الذي أحس بنشوة مُضاعفة وهو يسمع الحشود تُردد اسمه، بينما لم يكترث آزر لتجاهل الجمهور له؛ فقد قالت له العامرية شيئًا جعله ينظر للأشياء بزاوية مختلفة:

" الإنسان وحده من يَملك بداخله عوامل فنائه أو بقائه،

لا الجماهير التي تهتف باسم خصمك، لا المكائد التي تُحاك ضدك،

لا الحروب التي تُشن عليك، لا شيء يستطيع هزيمتك إلا إن سمحت له بذلك، وتذكر دائمًا:

إنه على قدر إيمانك بنفسك تتسع لك رُقعة الأرض "

مع صوت قرع الطبل هجم آزر بكل قوته، كان يريد أن يُنهي الأمر بضربة واحدة قاصمة تحسم النِزال سريعًا؛ فهجم بواسطة درعه وسيفه في هجوم كاسح مشترك.

ورغم أنه وضع طاقة كبيرة في ضربته إلا أنها وقعت سهلة على خصمه، الذي لم يبذل مجهودًا يذكر بصدها .. دُهش آزر مما حدث ودخل الشك إلى قلبه فالتفت نحو الكَهنة ليجدهم يتابعون النِزال بحياد ودون تدخل؛ الأمر الذي دفعه إلى أن يستبعد احتمال أن يكون خصمه يستخدم السحر ضده.

مستغلًا حالة الدهشة تلك التي كان عليها، قام قَيس بتسديد ضربة قوية بسيفه، انتبه لها آزر متأخرًا لكنه استطاع أن يصدها بدرعه. ليشتبك بعدها الخصمان في مبارزة غير متكافئة القوى؛ فقد كانت ضربات آزر تقع سهلة على خصمه، بينما ضربات خصمه تتجاوز درعه وتجرح جسده وتُنذره باقتراب هزيمته .. ومع مرور الوقت واستمرار النِزال كثرت الجِراح في جسد آزر وبدأت خطواته بالترنح وقد بدا مُجهدًا أكثر مما ينبغي؛ حتى أن خصمه الذي جاء يتوقع نزالًا صعبًا بعد أن كان شاهدًا على منافساته السابقة في مقارعة الخصوم قد أذهله ما يراه الآن عليه من كل ذلك الضعف والتخبط.

- اهجم عليه بكل قوتك، إنها فرصتك !

كانت تلك صرخة حاييم الذي كان يوجه بها تلميذه ..

مستجيبًا إلى تلك التعليمات: ركض قَيس نحو آزر مندفعًا حتى ارتطم به بقوة، كان الارتطام عنيفًا للحد الذي جعل درع آزر يرتد إلى الوراء بطريقة مفاجئة، ويتسبب في خلع كتفه، ليسقط أرضًا وقد أفلتت منه صرخة ألم عجز عن كبحها.

هنا صاح المدرب حاييم على تلميذة قائلًا:

- اقتله ! ليكون عِبرة لغيره.

كان القتل في نِزالات صِنديد العرب أمرًا مشروعًا؛ ولكن أخلاق قَيس أبت عليه أن يفعل ذلك؛ لا سيما أنه انتصر في النِزال ولم يعد هنالك داعٍ لإراقة الدماء:

- لا أقتله وقد انتصرتُ عليه.

قالها ثم رفع يديه محتفيًا بانتصاره فصاحت له الجماهير وراحوا يرددون اسمه .. ولكن الهتافات لم تستمر طويلًا حتى أُخرست فجأة وذلك عندما شاهدوا امرأة متلفحة بالسواد تخترق صفوفهم وتقف وسط الحلبة يُحلق فوق رأسها غرابٌ أسود يظللها بجناحيه:

- ما كنتُ أعلم أنني سأعيش حتى أرى سادة مكة لا يراعون الذِمة ! !

أدرك السادة أن أمرهم قد كُشف، واصلت العامرية كلامها تخاطب الكهنة الذين كانوا يشهدون النِزال فوق هوادج يحملها العبيد، وقد كانوا جميعهم من الكَهنة حديثي السِن الذين لم يذع صيتهم بعد عند العرب؛ ولذلك كان من السهل شراء ذممهم:

- ألا تخجلون من أنفسكم أيها اللكع الفَسوق ؟! تَشهدون الباطل بأعينكم ولا تنكرون، ألا تبًا لكم وشانت الوجوه ! ![11]

هنا تدخل قَيس:

- مهلًا، عن أي باطل تتحدثين ؟

رفعت العامرية يدها وأشارت بها نحو صدره:

- هذه التميمة التي أُهديت لك البارحة هي التي فازت بهذا النِزال.

صُعق قَيس وقد فهم الآن فقط لماذا كانت ضربات خصمه لا تصله بالقوة المتوقعة .. ولماذا انتصر عليه بكل هذه السهولة والسرعة، تدخل مدربه حاييم:

- لقد نُلنا الفوز؛ وحُسم أمر النِزال.

صاحت العامرية: ألا بئس لفوزٍ لم يحصده ذراع الفتى !

عاد حاييم يُردد مقولته متمسكًا بالنتيجة التي حسمها السادة لصالح تلميذه:

- لقد حُسم الأمر، والناس شهود !

---

١١ لُكع معناها " لئيم أو حقير " وكلمة فَسوق تعني العاصي.

كان بوسع قَيس أن يحتفظ بالفوز لولا أن صاح مرددًا جملة العامرية:

- ألا بئس لفوزٍ لم يَحصده ذراع الفتى !!

ثم انتزع القلادة من عنقه وألقاها بعيدًا، وقال بصوت معتذر وهو يمد يده نحو آزر:

- أتستطيع الوقوف ؟

أمسك آزر باليد الممدودة ونهض، ليكمل قَيس وهو ينظر إليه:

- ما كنتُ لأقبل أن أفوز عليك بهذه الطريقة - ثم يضيف وهو ينظر إلى الجموع المحتشدة حول الجبال المحيطة بالحلبة مُعلنًا: إنني أتنازل عن هذا الفوز الذي لا فخر به ولا شرف.

ابتسمت العامرية لسماعها تلك الكلمات التي لم تتوقع سماعها بعد حسم النتيجة:

- أنعم يا ابن الشمال، والله إنك أهل للفوز وإن لم يكن لك.

أثار ذلك التنازل بلبلة وسط الجماهير لا سيما أن قانون نِزالات صِنديد العرب لا يسمح للفائز بالتنازل عن فوزه بعد أن تُحسم النتيجة لصالحه، وبينما كانت الجماهير تتجادل حول ما حدث وقد انقسموا بين مؤيد ومعارض، إذ تقدم الحارث إلى وسط الساحة رافعًا يديه:

- يا قوم .. يا قوم ! !

أطبق الصمت على المكان وأنصتوا إلى السيد وهو يقول:

- إننا واللات نأبى الذِلة والغدر ونرعى الأمانة والذِمم .. وإننا نتعهد لكم بألَّا نترك هذا الأمر حتى نعلم من يقف خلفه ونُنزل به واقعة تجعله عِبرة لكل من تُسول له نفسه الغش والخداع مرة أخرى.

منحته العامرية ابتسامة ازدراء جعلته يرتبك ويُدرك بأنها تعرف أنه الشخص الذي دبر تلك الحيلة؛ وهذا ما جعله يُنهي نِفاقه سريعًا وينفذ إلى صلب الموضوع:

- لقد أجمع سادة الوادي بعد المشورة والمداولة على قُبول تنازل قَيس بن هامة الشمال؛ وبذلك يكون الفائز في هذا النِزال هو آزر.

اشتد حماس الناس لفرط هول الموقف وراحوا يَهتفون لقَيس ويُثنون على شهامته التي لم يسبق لها مَثيل. ثم ما لبثوا قليلًا حتى راحت أفواههم تهتف لآزر أيضًا والذي دمعت عيناه وهو يسمعهم يُرددون اسمه، وقد أنسته تلك الفرحة ألم كتفه المخلوع، وجعل سؤالًا فاتنًا يقفز إلى قلبه وهو يرى الجماهير حول الجبال يَهتفون له:

أتكون أمي الآن بينهم، تهتف باسمي معهم ؟!

٩

عودة عامر بن لُكيز

في اليوم التالي، اجتمع السادة في دار الندوة أبكر من عادتهم؛ وذلك احتفاءً بعودة سيدٍ من سادة البطحاء هو عامر بن لُكيز الذي كان في تجارة له في اليمن، وكان أول ما فعله حين حطت قافلته هو أن أخذ ناقة من خير نوقه ونحرها حمدًا وشكرًا لهُبل وبقية الأصنام لأنها كللت رحلته بأرباح لم تخطر له على بال، وحين فرغ من صلواته ودعائه، ذهب إلى داره ليغتسل ويلبس ثياب الحرير ويتطيب بأزكى أنواع الطِيب، ثم يذهب للقاء من ينتظره من السادة في دار الندوة.

**

استقبله السادة بالحفاوة والترحاب، وعندما انتهت لحظات الاستقبال وهدأ المجلس، نظر السادة إليه وقد اعتقدوا أنه سيحدثهم عن أخبار تجارته باليمن ولكن عامر كان لديه ما هو أهم من ذلك فقال:

- إنني أنذر أن أذبح قربانًا لجميع آلهة العرب هي مئة ناقة حمراء إن وضعت زوجتي اليوم مولودًا ذكرًا .. وإنني لأطلق عليه اسم جُمح تيمنًا بجدي جُمح بن كِنان.

هتف أحد السادة وقد كان طاعنًا في السن:

- نِعم السيد هو، ونِعم التسمية.

ردد السادة قول الشيخ: "نِعم السيد، ونِعم التسمية".

بينما انبرى الحارث يقول في حماس وقد واتته فكرة شيطانية:

- يا معشر السادة، ألا تستحق عودة صاحبنا عامر أن نحتفي بها ؟!

همهم السادة موافقين دون أن يدركوا المعنى الخفي والخبيث الذي كان ينطوي خلف ذلك الرأي، بينما واصل الحارث كلامه مقترحًا ليقنعهم بالفكرة التي ستخدم مصلحته الشيطانية:

- أرى أن نُعجل بالنِزال الأخير احتفاءً بهذه المناسبة.

التقط صاحبه عبد هُبل المغزى من وراء الفكرة وقال يُعززها:

- إنه واللات لرأيٌ صائب؛ فإني لا أظن أن صاحبنا عامر سيمكث حتى يحين موعد النِزال الأخير.

تساءل عامر بن لُكيز ببراءة:

- ومتى يكون موعد النِزال الأخير ؟

أجابه عبد هُبل:

- بعد تسعة أيام من يومنا هذا.

- لا وحق هُبل .. لا أستطيع أن أمكث هذه المدة؛ فقد تركتُ تجارتي في اليمن تحت وصاية وكيلي (سُراقة بن ذيل الناقة) حتى أدرك موعد ولادة زوجتي فأرى ابني جُمح وأطمئن عليه ثم أعود إلى اليمن من فوري.

الحارث مستغلًا تلك المعلومة: إذًا نُعجل في النِزال فنُقيمه يوم الغد؛ ليشهده صاحبنا عامر فيكون هذا احتفالًا برؤيته وعودته سالمًا، وإنه واللات لهو أهل لذلك.

وافق السادة على مقترح التبكير بموعد النزال، فصاح الحارث بن الأجهر بصوت حماسي حين تأكد له أن مخططه الخبيث قد نجح:

- إذًا ليأتي العبيد بالخمر، وليذبحوا لإطعامنا .. ولتُحضر الجواري الدفوف لنُقيم ونشرب ونلهو إلى طلوع الفجر احتفالًا بعودة صاحبنا !

ابتهج السادة بهذه الضيافة الكبيرة؛ فقد جرت العادة على أن من يُنادي بالشيء يتولاه؛ والحارث هو من نادى على تلك الضيافة وهو وحده من سيتكفل بها .. ومع بدء العزف ودخول الجواري ودق الدفوف وتوزيع الشراب أومأ الحارث لعبده جحش وأوصاه أن يذهب للعَامرية من فوره؛ لكي يُبلغها بما قرره السادة.

١٠

فوق قِمة جبل مجر الكَبش

داخل الدار التي تستقر وحيدة فوق قمة الجبل، كانت بُثينة تُنظف الجروح التي ملأت جسد آزر وتُمسد كتفه المخلوع بمزيج من منقوع زيت الأعشاب وهي تقول بقلق:

- هل سيُطيل الأكتع غيابه ؟!

- لا تقلقي - أجابتها العامرية - ما يزال أمامنا تسعة أيام على موعد النِزال المحدد.

عند تلك اللحظة استدارت الذئبة ناحية الباب وهي تُزمجر بأصواتٍ متوجسة، فتساءل قَيس بن هامة الشمال الذي ارتاح له آزر بعد تصرفه النبيل وطلب منه مرافقتهم إلى الجبل، تساءل وهو لا يعلم لماذا تصدر الذئبة تلك الأصوات:

- ما بها حواء تحدق إلى الباب وتزمجر ؟

قال آزر وهو يُغالب ألمه:

- يبدو أن هنالك أقدامًا غريبة تقترب من الدار.

هنا تحركت العامرية نحو الباب لتفتحه .. وثمة شعور غير مُريح يخالج أعماقها، وما إن شاهدت القادم حتى قالت بصوت غير مُرحب:

- أيُ رياح سوء أتت بك اليوم يا جحش ؟!

رغم ضخامة العبد جحش إلا أنه ارتعد خوفًا كقط عندما وجد نفسه يقف أمام العامرية، وغرابها الأسود غريب الأطوار يستقر فوق كتفها الأيسر ويُحدق إليه بنظرات حادة.

- لقد كلفني سيدي الحارث أن أنقل إليك خبرًا.

- قُبحت، وقُبح سيدك، أخبرني بالمصيبة التي كلّفك بها ..

**

بعد قليل: لاحظت بُثينة أن العامرية قد عادت بغير الوجه الذي ذهبت به، فقالت تسألها:

- من كان عند الباب يا عامرية ؟!

- جحش، وقد جاء ليخبرني بما عزم عليه تَيس البطحاء وكبيرها.

لم يستطع قَيس أن يغالب ابتسامته رغم حساسية الموقف وهو يسمعها تصف الحارث بالتيس، واصلت بُثينة تسألها:

- وما تُراه قد عزم عليه ؟!

- لقد أقنع السادة أن يُقيموا النِزال الأخير غدًا.

اتسعت عينا بُثينة في ذهول وهي تقول بصوت مضطرب:

- ولم عساهم يوافقون على أمر كهذا ؟!

- احتفاءً بعودة تيس آخر هو عامر بن لُكيز، والذي عاد سالمًا من تجارته باليمن.

قالت بُثينة في هلع:

- آزر لن يستطيع القِتال بكتف مخلوع وكنا نأمل أن يعود الأكتع غدًا ليعالج كتفه، فأرى ألَّا يذهب إلى النِزال؛ فيجبرهم بذلك على تأجيله ليوم آخر.

قال قَيس الذي يعرف القوانين جيدًا:

- سوف يعتبرونه منسحبًا في هذه الحالة .. ويلحقه بذلك عار الأبد؛ سوف يقولون عنه أنه جبن وتراجع، وسيتم بعدها تتويج كعب بن الحارث بطلًا على صِنديد العرب.

- وما الحل برأيك ؟!

- إننا في موقف حرج للغاية، ولا أرى حلًا غير أن يأتي الأكتع الآن لإصلاح كتفه، ثم نأمل أن يكون آزر بعد ذلك قادرًا على القِتال في نزال الغد.

سارت العامرية نحو آزر الممدد فوق السرير وهي تقول:

- لم يعد أمامنا وقت لننتظر أحد.

بُثينة في حيرة:

- وما الذي تنوين فعله ؟!

- ما كان يجب أن يفعله الأكتع.

- وتُجيدين فعل ذلك ؟!

- لستُ متأكدة، ولكنني رأيته يفعلها ذات مرة.

قال قيس الذي كان يدرك الخطورة المنطوية على ذلك:

- ألن تتعطل كتفه إلى الأبد إن حاولتِ إصلاحها بطريقة خاطئة ؟

- بلى؛ ولن يستطيع الأكتع حينها ولا غيره علاجها.

- لماذا تُقدمين على هذه المخاطرة إذًا ؟!

- لأن آزر إن لم يستطع القِتال في النِزال القادم، فلا يهمني هو ولا تُهمني كتفه أو روحه إن خُلعت من مكانها حتى.

أرسل إليها آزر نظرة كسيرة هو يدرك أنها تلتزم باتفاقها معه حين قالت إنها لن تحبه أو تعطف عليه .. ولكنه لم يكن يدرك أنه هيّن إلى هذا الحد عندها، فقالت العامرية التي انتبهت إلى مغزى نظراته:

- لا تنظر إليَّ هكذا فأنت لا تعني لي شيئًا؛ وأنني أتوق لأن ننتهي من هذا الأمر ثم تُنفذ عهدك الذي قطعته لي؛ فلا أراك بعدها أبدًا.

في الحقيقة: طوال مدة التدريب التي امتدت بينهما زُهاء السبعة أشهر لم يستطع آزر أن يلتزم بجانبه من الاتفاق، لقد تعلق بها وأحبها رغمًا عنه وبات لا يستطيع تخيل يومه يمضي دون أن يسمعها تصرخ عليه أو تشتمه أو تضربه بحذائها أو بكل ما تطاله يدها؛ وبالرغم من أنه لم يرَ أمه أبدًا إلا أنه يشعر وبطريقة غامضة أن العامرية تشبه أمه أو ربما تكون هي أمه بالفعل، فأغمض عينيه وقال:

- هاكِ كتفي، وهاكِ روحي، افعلي بهما ما تشائين.

قالت وهي تُمسك ذراعه بيد، وكتفه باليد الأخرى:

- إن سمعتُ لك صوتًا، قطعت لسانك، هل هذا مفهوم ؟!

هزَّ رأسه بعلامة نعم، وعض على فمه بقوة ليضمن عدم إصدار الصوت.

بعد ذلك وبطريقة سريعة: قامت بدفع ذراعه ناحية كتفه بقوة حتى سمع الجميع صوت فرقعة عظمه أعقبها صوت صرخة وجع عالية لم يستطع كبحها رغم محاولته؛ فأدخلت العامرية إصبعيها داخل فمه وأخرجت لسانه وهي تقول:

- أخبرتك أنني سأقطع لسانك إن سمعت لك صوتًا !

أغمض قَيس عينيه لكي لا يرى لسان صاحبه يُقطع، بينما تدخلت بُثينة تتوسلها في آخر لحظة.

- إن ألمه أكبر من أن يحتمله؛ فدعيه بحق رب إبراهيم عليكِ.

تركت العامرية لسانه وغادرت الدار ورأسها لا يحتمل صراخه، لتلحق بها بُثينة إلى الساحة الخلفية حيث ساحة التدريب، وتجلس إلى جوارها وهي تسألها في فضول:

- لم كل هذا الحزن يبدو عليكِ يا عامرية ؟

- ما زال الحارث يكيد لآزر؛ فهو لم يقم بتعجيل موعد النِزال إلى الغد احتفاءً بقدوم صاحبه عامر من اليمن؛ بل قام بفعل ذلك لكي يمنع كتف آزر عن التشافي؛ فيعطي بذلك أفضلية النصر لابنه كَعب.

قالت بُثينة كما لو أنها تحاول بكلامها أن تطمئن نفسها:

- لا عليكِ؛ آزر قوي وسيعرف كيف يتدبر أموره.

- أتمنى أن يُحسن ذلك الغبي التصرف.

- إنه يحبك أيتها العامرية، وأعتقد أنه يرى فيكِ شيئًا من والدته.

- أما أنا فلا أحبه.

- لماذا اخترتِه هو بالذات إذًا ؟! كنتِ تستطيعين انتقاء أي فتىً آخر تقومين بتدريبه .. لماذا آزر بالذات إن كان لا يعني لكِ شيئًا وكنتِ تحشدين له كل هذا الكره ؟!

- لأنه الوحيد من بين فتيان الوادي القادر على تنفيذ العهد.

رغم إلحاحها عليه - إلحاح بُثينة على آزر - إلا أنه لم يخبرها بسر ذلك العهد؛ وهذا ما دفع بُثينة إلى أن تستغل هذه الفرصة المواتية الآن وتسأل العامرية:

- تُرى ما هو العهد الذي طلبتِه من آزر ؟

- أتريدين نصيحة لكِ وللزمان يا بُثينة ؟

- نعم

- أبقي أنفكِ في وجهك، ولا تحشريه في شؤون الآخرين.

ثم نهضت وهي تُردف قائلة:

- لقد هدأ صياح المزعج، فإما أنه مات، وإما أن وجعه قد خف.

ثم أردفت وهي تسير ناحية الدار: تعالي نرى أي مصيبة حلت به.

**

حين دخلتا إلى الدار شاهدتاه وهو متدثرٌ باللحاف؛ فقالت بُثينة في ارتياح:

- جيد، يبدو أنه خلد إلى النوم.

لم تعلق العامرية وظلت تنظر نحو السرير وثمة شيء غير مريح يدور ببالها؛ إنها تعرف جسد تلميذها جيدًا وهذا الجسد الذي تراه متدثرًا تحت اللحاف أمامها يبدو مختلفًا بعض الشيء؛ الأمر الذي دفعها لأن تزيل اللحاف من فوق الجسد لتكتشف أنها كانت محقة في ارتيابها؛ فقد كان المتدثر باللحاف هو قَيس وليس آزر.

قالت في غضب:

- أين ذهب صاحبك المعتوه ؟!

- لا أدري - قال مرتعدًا - فقد طلب أن آخذ مكانه بينما غادر مع حواء إلى مكان لا أعرفه.

تساءلت بُثينة في قلق:

- أين عساه يكون قد ذهب وهو بتلك الحالة ؟

لم تنطق العامرية بشيء، ولكن ملامحها بدت متزنة. وكأنها فطنت إلى ما دار في ذهن آزر وإلى المكان الذي ذهب إليه؛ فحركت كتفها الأيسر بهزّة طفيفة، ليلتقط غرابها تلك الإشارة ويطير متجهًا صوب المكان الذي فكرت به.

**

(فوق سقف دار الندوة)

تسلل الاثنان - كلٌّ من آزر والذئبة حواء - إلى سقف دار الندوة، يسيران بخطوات خفيفة فوق سقف الدار المكون من الطين وسعف النخيل؛ كانت أصوات خطواتهما ستُكشف بالتأكيد لولا أن غطت عليها أصوات المعازف وغناء الجواري في الأسفل .. لقد جاء إلى هنا مدفوعًا بالفضول؛ يريد أن يرى عامر بن لُكيز: الرجل الذي سيرتبط به في نبوءة عَجيبة، فهو والد تلك الطفلة التي جاءت نبوءة الكاهن فيها بأن حارسها يخلد اسمه في تاريخ العرب.

لم يسبق لآزر أن شاهد عامر بن لُكيز من قبل؛ فقد قضى ذلك الرجل جُل حياته في اليمن وكان لا يأتي مكة إلا قليلًا فيرى أهله ويتفقد أحوال داره ثم يعود سريعًا إلى تجارته. ورغم ذلك فإن آزر لم يكن بحاجة ليبحث عنه بين الوجوه؛ كان يكفيه فقط أن يختلس النظر من خلال أحد شقوق السقف إلى الرجل الذي كُن الجواري يطفن حوله بالدفوف ويتوجهن إليه بالغناء فيعرف أنه الرجل المنشود.

في الجهة المقابلة:

لم تكن الذئبة تعرف السبب الذي جاء بها جروها إلى هنا من أجله.

ولكنها كانت سوف تتبعه دون تردد حتى لو أنه قادها نحو الجحيم، فمكثت مكانها تتأمله - تتأمل آزر - شعره الطويل المعقود فوق رأسه على هيئة ذيل حصان والذي باتت مربيته بُثينة مؤخرًا تُصر على أنه يكون أجمل بهذه الطريقة، عيناه الكحيلتان الناعستان، وجهه الأمرد الوسيم، ولون بشرته الأشبه بلون تُربة البطحاء، فكان أحسن الأشياء خِلقة في عيني أمه الذئبة، والتي كانت في تلك اللحظات - وهي تتأمله - في حالة من الانبساط والأمان الأبدي. لكن ذلك الأمر لم يستمر طويلًا فما هي إلا لحظات يسيرة حتى لاحظت تبدلًا رهيبًا في ملامح آزر؛ الذي بدا وكأنه لمح مصيبة تحدث في الأسفل ..

وكان هذا ما حدث في دار الندوة:

(ما حدث في دار الندوة)

فبينما كان آزر ما يزال يختلس النظر إلى الأسفل من خلال ثقب السقف، وكان كل شيء يمضي بشكلٍ طبيعي إذ دخلت إحدى الجاريات إلى دار الندوة وذهبت قاصدة سيدها عامر لتنحني عند أذنه وتهمس فيها بخبرٍ ما، لينفجر عليها سيدها غاضبًا:

- قبحكِ الله يا وجه الشؤم؛ وقُبح ما جئتِ به الساعة !

كانت تلك الصرخة هي ما أوقفت مظاهر الاحتفال في دار الندوة؛ وجعلت أحد السادة يتساءل مستفهمًا:

- على رسلكَ يا عامر، وأخبرنا ما الذي جاءت تنقله لك الجارية ؟

- أخبرتني أن زوجتي وضعت مولودة أُنثى.

لم يكن هذا هو الشيء الذي فاجئ آزر؛ فهو يعلم مسبقًا من خلال نبوءة الكاهن أن زوجة عامر بن لُكيز ستضع مولودة أنثى هذا اليوم، ولكن ما فاجأه وخلع قلبه وجعل ملامحه تتبدل تلك الساعة هي العبارة التي قالها عامر للجارية:

- اطلبي من عبيدنا أن يئدوها.[١٢]

---

١٢ يئدوها بمعنى يدفنوها حية.

ومع انتهاء جملته تلك نهض عامر وغادر الدار،

وبمغادرته انفضت الأمسية وبدأ الجمع ينسلون واحدًا واحدًا إلى الخارج، بينما ظلت حواء تنظر إلى وجه جروها المتخشب كصنم وهي لا تدري ما الذي حلّ به أو الذي كان يفكر فيه.

١١

عند منتصف تلك الليلة:

وصل عامر بن لُكيز إلى باب داره بجسد مثقل بالخمر، وقد تردد قليلًا قبل أن يدخل الدار وكأنه ما عاد يرغب بها ولا برؤية من فيها، وكاد أن ينصرف من هناك لولا أن كان التعب قد تمكن منه وأجبره على الدخول .. فمرَّ بمحاذاة حجرته متجاوزًا إياها إلى حجرة أخرى؛ إنه لا يريد النظر إلى وجه زوجته، وكأنما كانت هي المسؤولة عن جنس الجنين الذي وضعته ولكنه قبل أن يدخل الحجرة الأخرى، سمع بكاء الصغيرة فجُن جنونه عندما أدرك أنهم لم ينفذوا أمره؛ فاقتحم حُجرة زوجته صارخًا راعدًا مثل جمل هائج:

- أما أبلغتكِ جارية السوء تلك بما كنت قد أمرتها به ؟!

- بلى؛ ولكنني أبيتُ أن أعطيها العبيد ليئدوها - وأضافت تَليدة وهي تنحني والرضيعة بين ذراعيها تقبل قدميه وتتوسله من بين دموعها وشهقات بكائها:

- ناشدتك بكل ما هو مُقدس إليك أن تبقيها.

لم تحرك فيه توسلاتها قيد أُنملة، وواصل يصرخ عليها وهو لا يصدق أن أحدًا من داره قد عصى أمره، ولولا أنها تشاركه نصف تجارته بمالها لطلَّقها الساعة:

- كيف سولت لكِ نفسكِ عصيان أمرٍ قد أمرتُ به ؟!

ولم يعطها الفرصة لتتحدث؛ بل انقضّ عليها لينتزع الرضيعة من بين ذراعيها وهو يقول:

- خيرٌ للمرء أن يفعل الشيء بنفسه؛ حتى يتأكد من تمامه !

ثم استدار بعد عبارته تلك والرضيعة تبكي بين ذراعيه، وغادر الدار بينما زوجته من خلفه تتضرع إليه أن يُبقيها، وقد منعها مرضها وجسدها المُثقل بسبب الولادة أن تلحق به.

١٢

خرج بها عامر بن لُكيز – خرج بالطفلة – من وراء البيوت متجهًا إلى بطن الوادي حيث المكان الذي اعتاد آباء مكة فيه وأد إناثهم، وما إن وصل بها إلى هناك حتى أقعدها أرضًا وبدأ يحفر بيديه كضبع مسعور .. حتى أتمّ الحفر بمساحة تكفي حجم الرضيعة .. ثم حملها بعد ذلك دون أن يطرف له جفن ووضعها في القبر، لكنه قبل أن يُهيل عليها التراب أحس بكف كبيرة تحط على كتفه مع صوت يعرفه جيدًّا يقول:

– على رسلك يا عامر.

دون أن يستدير قال عامر بن لُكيز وهو يغالب دموعه:

– ذرني أيها الحارث .. ذرني وهذ العار وحيدً !

– ليستَ عارًا؛ فإني واللات أشعر بأنها ستكون فأل خيرٍ علينا.

التفت عامر نحو صاحبه متعجبًا مما سمع وهو يقول:

– ومنذ متى كُن فأل خير ؟!

– إنهن دائمًا فأل خير؛ نحن الذين نتشاءم بهن فقط.

رغم دموعه انبعثت منه ضحكة طويلة، وهو يعلق مستفهمًا:

- أيقول هذا رجلٌ وأد نِصف إناث مكة، حتى أصبح وأد الإناث عنده نوعًا من الهواية والتسلية ؟!

جلس الحارث إلى جوار القبر ومد يده ليحمل الرضيعة من جوفه ويرقدها حضنه، ثم يقول مبتسمًا وهو ينفض الغبار عن رأسها ووجهها الذي ما تزال تنبعث منه رائحة الحليب:

- لا أدري لم استبشرتُ بهذه الرضيعة خيرًا، ولكنه شعور لا أجد له تفسيرًا فدعها بحق هُبل عليك، وحق صحبتنا التي امتدت خلال هذه السنوات الكثيرة.

لقد ترك عامر تجارته في اليمن وجاء إلى مكة متنازلًا عن فرصة ثمينة كانت ستجمعه برجل مهم في قصر آل حِمير، فتمهد له الطريق لتحقيق أحد أحلامه الكُبرى: وهو لقاء مرتقب يجمعه (بالتُبع اليماني)[13] لقد جاء إلى مكة وهو متأكد من أن زوجته ستضع له غلامًا ذكرًا، كيف لا وقد أجزل القرابين لهُبل وكان طوال الشهور التسعة الماضية يدعوه صباح مساء ليرزقه بالمولود الذكر؛ لذلك كانت صدمته عظيمة اليوم حين نقلت له الجارية خبر ولادة الأنثى؛ وأحس بألَّا شيء سوف يُطفئ غضبه غير أن يُخفي تلك المولودة بنفسه عن وجه الدنيا.

---

١٣ تُبع هو اسم استخدمه أهل اليمن القدماء في زمن المملكة الحِميرية، ومعناه الاصطلاحي الملك.

لم يكن عامر مستعدًا لأن يتنازل عن قرار الوأد من أجل أي أحد، باستثناء الحارث بن الأجهر، ليس فقط لأن الحارث سيد سادة الوادي ولا بسبب وجاهته بين العرب ومكانته العظيمة في نفوسهم .. بل بحق الصحبة التي جمعتهما منذ أن كانا طفلين يلهوان بين الأصنام حول الكعبة:

- كُرمى لك يا حارث.

ثم ما لبث قليلًا حتى أضاف متسائلًا:

- ولكن أتظن أنها بالفعل قد تكون فأل خيرٍ علينا ؟

ابتسم الحارث وهو يقف حاملًا الرضيعة بين ذراعيه ويقول:

- دعنا نعقد الرهان .. فإن فاز ابني كَعب بلقب صِنديد العرب يوم الغد تركنا الصغيرة تحيا وقد ثبت لنا فعلًا أنها فأل خير؛ وإن حدث غير ذلك فهذا القبر لن يتغير مكانه.

١٣

النِزال الأخير

"لقب صِنديد العرب – بين آزر وكَعب"

احتشدت الجماهير حول الجبال المحيطة بساحة القِتال في حالة من الترقب الشديد والحماسة التي خفقت لها القلوب وطربت لها الوجدان، كان نِزالًا تصعب فيه التكهنات: فبالرغم من أن آزر كان الأقوى إلا أن كتفه مصابة، وجسده يضج بالجروح وبحاجة لمزيد من الوقت حتى يصبح جاهزًا للمواجهة.

في الجهة المقابلة كان الجميع يدرك أن كَعب بن الحارث ليس بالمنافس السهل؛ فهو بارع في استخدام السيف والدرع واستغلال نِقاط ضعف الخصم، ولكنه اليوم لن يعتمد فقط على مهارته للفوز .. بل سيعتمد على شيء آخر أكثر فعالية: فوالده الحارث بن الأجهر وسادة الوادي كلهم سيفعلون المستحيل حتى يتوجوه باللقب ولا يسمحوا لخصمه عديم النسب ذاك بأن يعلق اسمه على أستار الكعبة.

**

قُرع الطبل إيذانًا ببدء النِزال،

رغم ذلك، لم يشتبك الخصمان فورًا كما توقع الجميع، بل أخذا يتحركان ببطء حول بعضهما البعض بطريقة دائرية وكل واحد منهما يرفع درعه في وضعية الدفاع، وكأن كل واحدٍ منهما كان يحسب ألف خطوة قبل بدء الانقضاض ثم فجأة بادر آزر بالهجوم .. ورغم ثِقل الدرع الذي يحمله بسبب ذراعه المصابة، إلا أنه قفز برشاقة وخِفة وهبط بسيفه على خصمه الذي أحسن استقبال الضربة بدرعه .. ثم اشتبك الخصمان في نِزال سريع بالسيوف واستمرت المبارزة لوقت طويل قبل أن يُقدم آزر على مناورة بارعة جعلت كَعب يسقط أرضًا.

كان آزر يستطيع أن يستغل الموقف ويحسم النِزال تلك اللحظة لصالحه ولكن لسببٍ خاص لا يعلمه إلا هو .. قرر أن يُعطي خصمه فرصة أخرى لينهض ويقاتل مجددًا .. وبالفعل استغل كَعب تلك الفرصة ونهض مستعيدًا توازنه وفي رأسه ينهض سؤال وحيد: تُرى ما هو السبب الذي جعل آزر يُحجم عن مهاجمته وهو ممدد على الأرض بوضع مكشوف ؟! تُراه قد فعل ذلك لكي يُهينه أمام الجماهير ويُثبت لهم أنه سيد القتال بلا منازع ؟!

على كل حال: لم يفكر كَعب طويلًا بالسبب؛ كان عليه أن يتصرف بسرعة فهو لا يستبعد أن يقوم والده بسفك دمه أمام الناس إن نجح هذا البربري في إطاحته مرة ثانية ..

وسرعان ما صعدت إلى رأسه فكرة ذكية، فأرجع سيفه إلى غِمده وسط أنظار الجماهير التي تساءلت عن السبب الذي قد يدفع ذلك الصبي إلى إغماد سيفه وهو في حلبة الصراع ؟! .. حتى أن آزر تساءل في نفسه عن السبب الذي دفع خصمه ليُغمد سيفه في هذا التوقيت .. ولكن كَعب لم يلبث كثيرًا حتى جعلهم يَشهدون الإجابة بأعينهم؛ حيث أمسك مقبض دِرعه بيديه الاثنتين ثم راح يندفع به ككتلة واحدة تجاه خصمه ليرتطم به !

ندت عن آزر آهة ألم وشت بنجاح خطة خصمه الذي قصد بهجمته تلك أن يستهدف نقطة ضعفه – كتفه المصابة – فأُصيب بوجع شل أطرافه وأسقط الدرع والسيف من يديه .. لم يَلبث كَعب طويلًا بعدها حتى عاد يهجم بنفس الطريقة مستهدفًا ذات المكان، ليسقط آزر بعدها أرضًا ويدفعه الألم إلى أن يعلن استسلامه أمام الجميع.

ورغم انتهاء النِزال وحسم النتيجة لصالح كَعب .. إلا أن هنالك غضبًا دفينًا ظل بداخله من تلك الإهانة التي ألحقه بها آزر أمام الجماهير قبل قليل عندما أطاح به وتعمد أن يعطيه فرصة أخرى للنهوض وكأنه كان يُنازل فتىً صغيرًا .. وهذا ما جعل كَعب يواصل هجومه عليه حتى بعد انتهاء النِزال، فجعل يركله على وجهه وصدره وسط صيحات بعض الجماهير المعترضة على هذا الاعتداء السافر والمخالف لقوانين المسابقة.

لم يجرؤ أحد على أن يعترض ابن السيد غير مخلوق واحد فقط هو من تجاسر واعترض طريقه؛ لقد كانت الذئبة حواء التي بَرزت من بين الجماهير فجأة وكأنها جاءت من العدم لتقف أمام كَعب وتُزمجر عليه في تهديد صريح بالمهاجمة .. هنا تدخلت مجموعة من الفرسان ليعاقبوا الذئبة التي اعترضت ابن سيدهم وقد همّوا بقتلها .. فانتبه آزر لما كانوا بصدد القيام به .. وبالرغم من ألمه وتوجعه إلا أنه انتصب واقفًا بسيفه ودرعه أمام الفرسان ليصدهم عن أمه، لقد كان عددهم كبيرًا وآزر يدرك أنه لن يستطيع الصمود بمفرده أمامهم ولكنه سيقاتلهم وحده.

- لا، لستَ وحدك.

كان صاحب الصوت هو قَيس الذي وقف إلى جواره مُلصقًا كتفه بكتفه؛ فتمتم آزر يُجيب عليه:

- ما الذي تفعله يا قَيس ؟ ابتعد، فهذه ليست حربك !

صامدًا وقف قَيس مكانه غير متزحزح، وأردف وهو يُشهر سيفه:

- أما سمعت أن أهل الشمال لا يتركون أصحابهم ؟

ارتبك السادة لا سيما وأن هذا يُنذر بالخطر فإن مُسَّ قَيس بسوء فإن عشيرته لن تسكت وهذا سيدخلهم في حرب لا معنى لها مع قبائل الشمال؛ ولأجل ذلك تدخل الحارث:

- على رِسلكم يا قوم فما جئنا اليوم لهذا !

يهتف أحد الجماهير من فوق الجبل في اعتراض وقد كان يرغب بالاستمتاع في مشاهدة القِتال:

- ولكن الذئبة كادت أن تهاجم ابن السيد !

- وأنا أبوه يا رأس الفتنة وأعفو - ثم أضاف كما ليحصد الثناء:

- ثم أنني لا أنسى كفالة سيدنا نُمير بن رَبيعة لهذه الذئبة .. وما دامت لم تسفك دمًا فإننا نحفظ الجوار ولا نقطعه.

كان الحارث يُحسن استغلال المواقف دائمًا لصالح تلميع صورته عند الآخرين، وبالفعل ما كاد ينتهي من كلامه ذاك حتى حصد مزيدًا من الشعبية في النفوس وراحت الجماهير تُردد كلمات الشكر والثناء عليه بينما هم يتجهون قاصدين الموائد التي نُصبت حول دار الندوة على شرف الفائز كما جرت العادة، ليأكلوا ويَشربوا ثم يَشهدوا مراسم تعليق اسم الفائز على أستار الكعبة.

**

خلت الجبال المحيطة بالحلبة من الجماهير،

ولم يبقَ غير آزر والذئبة وصاحبه قَيس الذي انتبه وحده إلى ملاحظة غريبة، ثم كما ليتأكد منها فإنه تناول الدرع من الأرض وحذف به نحوه قاصدًا جهة ذراعه المصابة:

- هاك - قال وهو يرميه - أمسكه إن استطعت.

كان الغريب في الأمر هو أن آزر التقط الدرع الحديدي بذراعه المصابة بسهولة دون أن ينتبه للفخ الذي نُصب له، وما إن شاهد قَيس ذلك المنظر حتى أدرك أنه لم يُهزم في النِزال بسبب كتفه المصابة؛ فها هو الآن يلتقط الدرع بها وكأنها سَليمة معافاة؛ تُرى لماذا اختار أن يترك ذلك المجد طواعية منه رغم قدرته على نَيله ؟! ..

في تلك اللحظة التفت ثلاثتهم نحو الخلف بعد أن سمعوا وقع خطوات تقترب، ليجدوا العامرية التي قالت ونظراتها مُسلطة كما السيف على آزر:

- اتبعني.

تحرك آزر تتبعه الذئبة حواء، فصاحت العامرية: اتبعني وحدك.

توقفت الذئبة وكأنها فهمت الأمر .. بينما أكمل آزر الطريق وحده يسير خلف العامرية مطأطأ الرأس وهو لا يدري ما الذي سوف تفعله به، ولا كيف سيُبرر لها الهزيمة.

مراسم تنصيب صِنديد العرب، كَعب بن الحارث بن الأجهر

سار سيد الوادي ممسكًا بيده رقعة الجلد التي كتب اسم ابنه عليها بماء الذهب "كَعب بن الحارث بن الأجهر" ليتجه بها مع السادة ناحية الكعبة تحفهم الجماهير وهم يحملون الفائز فوق الأعناق ويتنادون باسمه ويهتفون ويُنشدون الأشعار، حتى إذا وصلوا إلى هناك علَّق الحارث رقعة الجلد على أستار الكعبة بيديه وقد ازداد حماس الجماهير وارتفعت أصواتهم بالتصفير والهُتاف.

صاح الحارث بصوتٍ جهوري:

- يا مَعشر العرب، يا ضيوف مكة وعِزها ..

هنا توقفت الجماهير وأصاخت السمع إليه وهو يخطب فيهم:

- يا مَعشر العرب وضيوف مكة وعِزها .. لقد حللتم بدارنا أهلًا ونزلتم في حِمانا سهلًا .. فأنتم الساكنون في صدر مكة ونحن الخارجون إلى أطرافها، نجتمع اليوم على شرف هذا الفوز العظيم .. وما ولدي كَعب إلا فتىً عربي فخره أنه منكم وعزه أنه صَنيعتكم؛ وهو منذ اليوم صِنديد العرب وفارسها والمُنافح عنها .. وإني لأتضرع إلى الآلهة أن تُطيل عمري حتى أُعلق اسم الفتى القادم بعد خمسة عشر عامًا بنفسي.

ثم أنهى حديثه بحماس وهو يُردد:

- أُعلُ هُبل، أُعلُ هُبل! ![14]

فردد الناس ذلك النداء بحماس وقد أضافوا عليه اسم الفائز:

- أُعلُ هُبل، كَعب بن الأجهر صِنديد مكة والعرب !

استمرت الاحتفالات بعد ذلك والناس يأكلون ويسكرون ويَمرحون في بهجة، وبينما هم كذلك إذ اقترب عامر بن لُكيز من صاحبه الحارث وقال وهو يمد إليه قدح الخمر:

- لقد صدق حدسك حين قلت إن الطفلة فأل خير؛ وها قد كسبت الرِهان يا أبا كَعب وقد سلمت الطفلة من الوأد وكُتب لها بفضلك حياة جديدة؛ فاختر لها اسمًا.

الحارث وهو يأخذ من يده القدح:

- إنني أسوأ من يختار الأسماء، وإنني لأتنازل عن هذا الحق لك.

- وأنا لا أقلُ عنك سوءًا، ما رأيك أن نختار لها ذات الاسم الذي اختارته لها والدتها.

- وما ذاك ؟!

- اسم غريب، لقد اختارت لها اسم: **قَمر**.

---

١٤ كلمة عربية تُقال وقت الانتصار.

الحارث:

- غريب، ولكنه جميل.

ثم أضاف وهو يرفع قدح الخمرة ويُفرغ بعضها في جوفه:

- لنشرب نخب ابنتك صاحبة الاسم الغريب، ولنأمل ألَّا تشبهك عندما تكبر.

يضحك عامر بن لُكيز وهو يرفع كأسه ويقول:

- لنأمل ألَّا تُشبه أحدًا منا؛ فتكون تلك مصيبة عليها.

١٤

آزر
العامرية
العهد

مرَّ وقت طويل والعامرية تحدق بصمت نحو القمر المكتمل في السماء، بينما آزر ينتظرها تشتمه أو تضربه ولكنه لم يتخيل أبدًا أن تفتح فمها لتقول هذه الكلمات:

- أعلم أن هزيمتك اليوم كانت ضمن اتفاق عقدته مع الحارث.

اتسعت عيناه من الدهشة وبينما هو يفكر بالطريقة التي استطاعت بها معرفة ذلك السر .. إذ وقعت عيناه على الغراب الأسود الذي كان يستقر فوق كتفها الأيسر؛ فاتسعت عيناه أكثر وقد أدرك الحقيقة: الغراب هو من ينقل إليها ويخبرها عن كل ما يحدث وهو الذي كان شاهدًا على ما حدث ليلة البارحة بينه وبين الحارث بن الأجهر.

ما حدث ليلة البارحة،
ونقله الغراب الأسود لسيدته
(الصفقة)

في تلك الليلة: سَمع الحارث أصواتًا غريبة قادمة من خارج الدار وحين ذهب ليستطلع الأمر شاهد شيئًا أخافه: لقد شاهد عبده جحش مُمدَّدًا على الأرض بعد أن أُوسع ضربًا.

ظن الحارث في البداية أن هنالك جماعة هاجمته فصاح قائلًا:

- من فعل بك هذا، لأمك الثُكل ؟!

مدَّ جحش إصبعه نحو مكان ما .. ليلتفت الحارث صوب المكان المشار إليه ويشاهد على أضواء المشاعل شبح فتًا صغير بدا أنه لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره:

- لقد حفرت قبرك بيدك أيها البربري اللعين.

قال ذلك ثم أمسك مقبض سيفه وهمَّ بمهاجمة آزر؛ إنها فرصة سانحة لقتله فقد اعتدى ذلك الصبي على داره وألحق الأذية بعبده وبات بوسع الحارث أن يقتله دون أن يلومه أحد على مخالفة وصية السيد، ولكن جملة واحدة قالها آزر كانت كفيلة بأن تغير الموقف بأكمله:

– ألا تريد أن ينال ابنك لقب صِنديد العرب غدًا ؟

ما إن سمع الحارث تلك الجملة حتى وقف وقال بنبرة مستفهمة:

– أفصح.

– جئتُ لأخبرك بأنني مستعد لأن أتنازل غدًا عن الفوز لابنك كَعب.

الحارث يعلم أن الفوز باللقب سوف يُكسب آزر مكانة بين العرب؛ وهذا ما كان الصبي يريد الحصول عليه طوال عمره، فما الذي يجعله الآن يتنازل عن الفوز بهذه السهولة فسأله:

– وما المقابل ؟!

شبح ابتسامة غامضة طفت على شفتي آزر وهو يقول:

– أن تمنع عامر بن لُكيز من وأد ابنته.

– طفلة لا تعرفها، ولا تربطك بها صِلة دم، فما مصلحتك من هذا ؟

– أيهما يُهمك أكثر: أن تعرف مصلحتي في هذا الأمر أم أن ينال ابنك اللقب ؟!

– بل الثانية.

– إذًا لا تحشر أنفك فيما لا يُهمك.

متجاوزًا قِلة أدبه، سأله الحارث باهتمام:

- أضمن لك حياتها ولكن كيف أضمن أنك لا تكذب ؟

- اختر الضمانة التي تريدها.

- سأعقد الرِهان مع عامر؛ فإن فاز ابني غدًا عاشت الفتاة، وإلا فقبرها ينتظرها - ثم مدَّ يده في الهواء مصافحًا وهو يقول:

- ما رأيك ؟

صافحه آزر وهو يرد:

- مباركٌ على ابنك اللقب.

وهكذا عقد آزر (الصفقة) مع الحارث؛ فكانت تلك أول مهمة يؤديها كحارس للقمر وأول خطوة يضعها في طريقه الطويل نحو تحقيق هدفه الأكبر.

**

- أعلم أنكِ غاضبة مني يا عامرية ولكن ..

- لستُ غاضبة؛ لقد خسرت اللقب؛ ولكنك كسبت ما هو أهم وأعظم وهو أن تكون رجلًا؛ فالذكور تلدهم أمهاتهم ولكن الرجال تصنعهم المواقف.

العامرية تدرك أن آزر لم ينقذ الطفلة من الوأد بسبب النبوءة فقط؛

بل كان سينقذها حتى لو كان لا يرجو منها شيئًا، وهذا ما أكسبه احترامها.

نهضت العامرية من مكانها وسارت نحو حافة الجبل ثم رفعت بصرها وأخذت تنظر إلى السماء وتقول:

- **قرص القمر مُكتمل في نصف عباءة الليل، أليس كذلك ؟**

ما إن سمع الغراب تلك الجملة حتى قفز من فوق كتفها وحلق مبتعدًا دون أن ينظر إلى الوراء .. بينما احتشدت دموعٌ غريبة في عيني آزر، دموع ليس لها تبرير أو سبب واضح، وقال يجيب عليها:

- **نعم، إنه كذلك.**

وبينما كانت اليمامة بنت أدحج العامرية تحدق إلى غرابها الذي ابتعد كثيرًا في الأفق ولا تُزحزح بصرها عنه وشفتاها ترسمان ابتسامة غامضة، إذ تَلقت طعنة قاتلة في ظهرها أَنفذها إليها آزر مستخدمًا سيفه، ثم أعقبها بطعنة أخرى بواسطة خنجر أسود خاص حفر به لحمها وعظامها حتى أنشب رأسه الحاد في قلبها؛ لتسقط العامرية بعدها على ركبتيها أرضًا، يَسيل من فمها المبتسم خيطٌ دم أحمر يُعلن عن نهايتها، وخيط دمٍ آخر أسود مجهول المصدر، لا يخرج عادة من أبناء بني البشر.

كل ذلك لم يكن يَعنيها في شيء .. كل ما كان يُهمها تلك اللحظة فقط هو أن تواصل النظر إلى غرابها الأسود وهو يُحلق مبتعدًا ويَنعق مودعًا بنبرة باكية، حتى إذا اختفى خلف السُحب الرمادية سقطت العامرية على وجهها ميتة ..

عانق آزر جثتها وهو يبكي ويهمس في أذنها " **هذه المرة فقط** " ثم حملها على متن الحصان، وابتعد بها من هناك قاصدًا مكانًا ما .. تُرى هل كانت العامرية أمه ؟! إنه لا يدري ..

كل ما يعرفه تلك اللحظة فقط، هو أنه طعن قلبه حين طعنها.

١٥

عدد من المنازل الطينية الكثيرة تتوزع بشكل شبه منتظم فوق هضبة واسعة لعشيرة تبعد مسافة نصف يوم .. منزل واحد فقط كان ينهض بعيدًا عن البقية .. تسكنه امرأة عجوز وحيدة طاعنة في السن ما إن سمعت وقع حوافر خيل تقترب من باب دارها حتى خرجت لتستقبل القادم وكأنها كانت على موعد معه .. كان القادم هو فتىً يافع يَسير نحوها ممسكًا لِجام حصان تتمدد على ظهره جُثة.

قال وهو يقف أمام المرأة بصوت جنائزي:

- لقد أوصتني أن آتي بجثتها إليكِ، بعد أن أقتلها.

أمسكت المرأة العجوز بوجهها - وجه العامرية - والذي عجز الموت عن طمس ملامحه الفاتنة، وضعت قبلة على جبينها، ثم قالت من بين دموعها:

- نعم؛ فلا مكان أفضل من جوار أمها لتنام فيه رقدتها الأخيرة.

ثم أردفت وهي تُمسك بلجام الحصان وتسير به خلفها:

- تعال أعني على دفنها يا آزر؛ ثم سأخبرك بكل شيء.

**

لم يستغرق الدفن وقتًا طويلًا؛ فقد كان القبر محفورًا وكأن العامرية كانت قد طلبت من والدتها أن تحفره لها هذه الليلة، وبعد أن انتهيا من الدفن جلست والدة العامرية إلى جوار القبر وقالت:

- تعال ادنُ مني يا آزر لأحكي لك قصة أجمل فتاة في جزيرة العرب.

جلس آزر بالقرب منها وما كان يعلم أنه الآن بصدد سماع القصة التي لا يعرفها أحد .. القصة التي أوصت العامرية والدتها أن تخبر آزر بها بعد رحيلها عن الدنيا.

- عُرفت العامرية في صِباها بجمال نادر جعل الرجال يتسابقون لخطبتها يا آزر .. ولكنها كانت ترفض كل من يتقدم إليها دون إبداء الأسباب حتى أن كل أترابها[15] من الفتيات كُن قد تزوجن وأنجبن وأصبحن أمهات إلا العامرية؛ وهذا ما جعل الألسن تلوك سمعتها وتحكي عنها الأقاويل؛ فأخذ الناس يقولون: تالله ما أحجمت تلك الفتاة عن الزواج إلا لعيب فيها أو مفسدة تُخفيها .. ولما كثر الكلام المسموم حولها ضاق صدري فواجهتها عند بئر العشيرة، وطلبتُ منها أن تخبرني عن السبب الذي يدفعها لرفض الزواج؛ فألححت عليها وألححت حتى دفعتها لأن تخبرني.

---

١٥ الأتراب هنا تعني الفتيات اللائي بنفس عمرها.

كان عذرها الحب فاطمأنت والدتها عندما عرفت السبب؛ فحتى وإن كان الحب أمرًا محرمًا على نساء العرب إلا أنه أهون من الأسباب الباطلة التي يدعيها الناس عليها، قالت متسائلة:

- أهو رجل نعرفه ؟

- لا، إنه ليس رجلًا.

- ويلكِ - قالت والدتها بذهول بريء - أهي امرأة ؟!

- لا يا أمي، ليس رجلًا وليست امرأة.

- أهو لُغز ؟

- ليس لغزًا.

- أفصحي بحقي عليكِ ..

خافت العامرية أن تخبر والدتها بالحقيقة دفعة واحدة فلا تستوعب الخبر، وهذا ما جعلها تلجأ لتمرر الأمر إليها بالتأني، فقالت تمهد لها الإجابة:

- إنه ليس من بني الإنس.

لحظات من الصمت استمرت بينهما قبل أن ينفرج فم والدتها بتلك الأمنية البسيطة:

- لكم أتمنى الآن أن يكون بكِ عِلة ما، أو مَسلك سوء أو مرض يمنعك من الزواج ولا أن يكون ما تقولينه صحيحًا.

سارت العامرية نحو البئر – في تصرف غامض – ثم ارتقت حافته وألقت بنفسها في جوفه الذي لا يُرى قاعه لفرط عمقه .. صاحت الأم وهي ترى ابنتها تهوي أمام عينيها .. وركضت نحو البئر ولكنها لم تكد تصل إلى حافته حتى رأت أمرًا عجبًا: فقد ارتفعت العامرية في الهواء أمام عينيها محمولة على ذراعي مخلوق نحيل، طويل، تُرابي البشرة، أحمر الشعر وكأن فوق رأسه شُعلة من نار قانية .. وبالرغم من أذنيه غريبتي التكوين، الطويلتين والأشبه بأذني القِط إلا أن ذلك لم يزد ملامحه الحادة إلا وسامة وجمال، نزلت العامرية عن ذراعيه، ثم سارت نحو والدتها المتجمدة أطرافها لفرط الصدمة وقالت تقدمه إليها:

– اسمه (أعصم) وهو من بني الجان يا أمي.

لقد سمعت تلك المرأة – والدة العامرية – عن قصص تجمع بني الإنس بالعالم الآخر، ولكنها كانت تظن دومًا أن تلك الأخبار ستظل مجرد قصصٍ تسمعها ولن تحدث لها أبدًا، غرابة الموقف هو ما جعل والدة العامرية تتصرف بطريقة غريزية؛ فالتقمت حصاة من الأرض حذفتها نحو ذلك المخلوق ثم أمسكت يد ابنتها وسحبتها خلفها وهي تصرخ:

– لنهرب !

اندفعت الأم تجر ابنتها خلفها بسرعة في الطرقات حتى وصلت بها إلى المنزل .. وما إن تجاوزت بها العتبة حتى أغلقت الباب خلفها وأسندت ظهرها إليه وهي تلهث قائلة:

- لا أصدق أننا نجونا من ذلك الشيطان.

انبعث حينها صوت من العدم، لمخلوق يظهر أمامها وهو يقول:

- سامحتكِ السماء أيتها الخالة، فأنا لستُ بشيطان إنما أنا نفر من جن الوادي.

وأضاف وهو يُقدم إليها قربة من الجلد:

- إليكِ بعض الماء، فلا بد أن قطعكِ كل هذه المسافة قد جعلكِ تعطشين يا خالة.

- تخلخلت عظامك أيها الشيطان!

قالت ذلك ثم خبأت ابنتها خلف ظهرها وصاحت:

- ما الذي تريده منّا أيها اللعين؟

- هو لا يريد - قال الصوت الرقيق من خلفها - كلانا يُريد منكِ أن تُنصتي إلى حديثنا.

التفتت الأم إلى الخلف - نحو ابنتها - وما إن رأت عينيها حتى لمحت فيهما لمعة الحب الصادقة وأدركت جدية الأمر؛ فقالت بصوت محذر:

- وماذا سيقول الناس عنك يا ابنتي ؟! .. كيف ستواجهين عشيرتك، وتحت أي ذريعة سوف نُبرر لهم هذا الأمر الجلل ؟!

تحدث أعصم قائلًا:

- أنا على استعداد لخط ..

التفتت إليه الأم وقاطعته قبل أن يُتمم جملته:

- اسكت أنت؛ فهذا حديث عائلي لا دخل لك فيه !

ابتسمت العامرية -- ليس لظرافة الموقف - بل لمحاولة تخفيف التوتر الذي كان يسيطر على الأجواء منذ البداية، ثم قالت بصوت هادئ وهي تقف إلى جانبه:

- أعصم سوف يكون من العائلة يا أمي.

- اسمعيني يا خالة.

- تخلخلت عظامك ! .. هذا إن كان لديك عظام !

- اسمعيه يا أمي - قالت العامرية - اسمعيه أرجوكِ.

قالت بصوت خرج من بين أسنانها المغلقة:

- تكلم .. أسمعك ..

- أنا على استعداد لخطبتها كما تَسن أعراف بني البشر.

- والناس ؟

- لن يعرف أحد بحقيقة أنني مختلف.

- وهيئتك الغريبة هذه ؟!

- أُجيد مهارة التشكل؛ أستطيع أن أتشكل على نفس هيئتك إن أردتِ رؤية ذلك.

- أرني أنظر ..

ورغم أنه كان يستطيع بالفعل التشكل إلى هيئتها، إلا أنه كما ليكسب ودها قال بذكاء:

- أود ذلك ولكن جمالكِ لا يُمكن تقليده.

لقد استحت الأم من عبارته تلك دون شك؛ ولكنها واصلت هجومها كما لتداري خجلها:

- ومن سيرضى أن يزوجكما أيها الأحمق ؟!

- كاهن بمكة أعرفه: اسمه شِق.

- أرجوكِ وافقي يا أمي.

لم يكن لديها في الحياة إلا تلك الابنة؛ وكانت تخاف أن تفقدها لو رفضت؛ وهذا ما دفعها لأن تلتزم الصمت .. الصمت الذي لا يعني الموافقة بل يعني قِلة الحيلة.

وهكذا ذهبت العامرية في اليوم التالي مدفوعة بالحُب ومعها أعصم لعقد قِرانهما عند الكاهن شِق، والذي بارك زواجهما في ليلة اختفى القمر من سمائها؛ وطاف حول الكعبة عكس اتجاه الطائفين وهو مضطجع فوق هودج يحمله أربعة من العبيد ليُتمم مراسم الزواج.

**

هنا قطع آزر عليها سرد القصة وهو يسألها في فضول:

- تبدو الأحداث متوائمة؛ فما هو سبب انقلاب حالهما يا تُرى ؟

- لقد قررت قبائل الجن أن تقتل أَعصم.

- ولماذا يُقررون ذلك ؟!

- سؤالك هذا يُشبه تمامًا السؤال الذي قاله أعصم للشخص الذي جاء يحذره تلك الليلة المشؤومة.

**

(الليلة المشؤومة)

في تلك الليلة طرق أحدهم باب المنزل بقوة؛

ذهب أعصم ليفتح الباب وهو يعلم أن صاحب تلك الطرقات لا يُمكن أن يأتي إلا بمصيبة وما إن فتح الباب وشاهد ملامح وجه الطارق حتى تأكدت له ظنونه:

- ما بك يا يَغوث ؟!

يَغوث وهو يتلعثم لفرط خوفه:

- لقد بذلتُ كل ما أستطيع لكي أصلك قبلهم يا أعصم؛ فأحذرك من شرٍ قد اقترب !

- تصل قبل من، وتُحذرني ممن ؟

- لقد أُصدر الحُكم ضدك، وقرر الكَهنة إعدامك.

- ولماذا يُقررون ذلك ؟!

- هناك من لَفق عليك تهمة الخيانة؛ وأقنعهم أنك نقلت إلى زوجتك الإنسية أسرار العالم الأسفل.

تدخلت العامرية وقد تناهى إلى سمعها ما دار عند الباب:

- اذهب يا أعصم وأخبرهم أنك لم تفعل شيئًا من هذا.

- لا فائدة - قال أعصم - فلن يتراجع الكَهنة عن حُكم أصدروه حتى لو اقتنعوا بأنني لم أفعل.

تدخل يَغوث:

- سأحاول تعطيل الحرس عن الوصول إليك قليلًا، ولكن تذكر يا أعصم أنك يجب ألَّا تكون هنا عندما يصلون إلى منزلك.

- شكرًا لك يا يَغوث، أنا لا أعرف كيف أكافئك.

- مكافأتي أنالها عندما ترحل بأمان من هنا.

كانت العامرية تريد الهرب مع زوجها أعصم لكنها تدرك أن وجودها معه سوف يجعله غير قابل للتخفي بالشكل المطلوب ولذلك فإنها قالت:

- اهرب بسرعة.

- لا أستطيع؛ فقد يقتلونك إن جاء الحرس ولم يجدوني.

- لا بأس؛ فالمهم أن تنجو أنت من الموت.

- لا فرق؛ فالعيش بعيدًا عنكِ والقتل كلاهما موت بالنسبة إليَّ.

- وما الحل ؟!

فكر أعصم قليلًا قبل أن يقول متمتمًا:

- الحل الوحيد هو أن نستخدم ما يتهمونني به.

- ماذا تعني ؟

- يجب أن أكون هنا لأحميك، وألّا أكون هنا عندما يصلون.

- وكيف سيكون ذلك ؟

- هذا يعتمد على رباطة جأشك ورجاحة عقلك؛ فما سأخبرك به سيكون أصعب من أن تصدقيه أو تتعايشي معه .. سيؤلمنا جميعًا ولكنه الحل الوحيد لأن ننجو من الموت، ونكون معًا

- سأحتمل أي شيء؛ المهم أن تكون بأمان ونكون معًا.

كانت العامرية تتوقع الأسوأ، ولكن لم تتوقع أبدًا الفكرة التي كان يفكر بها أعصم، إذ قال:

- سأربطكِ بتعويذة رادعة تحميكِ من شر الكَهنة وتمنعهم من أذيتك.

- وماذا بشأنك أنت ؟!

- إنه الجزء الأصعب أيتها العامرية؛ ولكن هذا ما يجب أن تعتادي عليه وتحتمليه - ثم واصل يخبرها: سأفقد قوتي كلها وأتحول إلى مخلوق لا يستطيعون تتبعه ومعرفة هويتي في داخله؛ إنها الطريقة الوحيدة لحمايتك والبقاء معك.

- وما هو هذا المخلوق الذي ستتحول إليه ؟

- **غراب أسود، يستقر دائمًا على متن كتفك الأيسر.**

**

(أعصم)

بعد وقت ليس بطويل حطَّم حرس الكهنة الباب ودخلوا للبحث عن أعصم، فتشوا عنه المنزل حتى عجزوا عن إيجاده، فقال أحدهم يُحادث القائد الذي كان خارج المنزل ينتظر نتيجة التفتيش:

- سيدي، لا وجود لأعصم هنا.

في تلك اللحظة دخل قائد حرس الكهنة من باب الدار وما إن رأته العامرية حتى اتسعت عيناها في رعب؛ فقد كان قائد الحرس هو نفسه يَغوث الذي جاء قبل ساعة ليحذر أعصم من الشر الذي قد اقترب، قال يخاطب الحرس وهو يتقدم في المنزل:

- هروب أعصم ليس إلا تأكيدٌ على جريمته.

سأله أحد الحرس: أنقتل الزوجة يا سيدي ؟

اقترب القائد يَغوث من العامرية ولكنه توقف على بعد مترٍ منها؛ إذ إنها كانت محمية بتعويذة - رادعة - تمنع أبناء الجن من الاقتراب أكثر من ذلك الحد؛ وأخذ يتطلع إليها قبل أن يرد على الحارس:

- امضوا خارج المنزل وانطلقوا للبحث عن أعصم.

استمع الحرس إلى التوجيهات فغادروا المنزل وانطلقوا كُل في مَسلك للبحث عن الهارب، وحين تأكد يَغوث من مغادرة الحرس قال يكاشف العامرية:

– حين انتشر خبر زواج أعصم كنت أول الشامتين به، قلت في نفسي كيف له أن يترك فتيات الجن ويرتبط بفتاة إنسية تتعب وتشيخ وتكبر فتزول عنها فتوة الصِبا ويذهب عنها رونق الجمال .. وهكذا مدفوعًا بالفضول ذهبتُ إلى سوق بني الإنس لأرى تلك الفتاة التي تَعلق بها قلب صاحبي، وما إن وقعت عيناي على جمالك النادر حتى وقع قلبي في هَواك أسيرًا.

ثم سألها:

– أرأيتِ في حياتك أسيرًا يَقعُ في حُب آسره ؟ هذه حالتي معك.

بحقد تكلمت العامرية:

– إذن أنت من لفق عليه تهمة الخيانة !!

– نعم؛ ومن أجل هذا جئتُ أحذره قبل قليل لأحثه على الهرب؛ وإن هروبه الآن لهو بمثابة الدليل الإضافي الذي يُثبت للكهنة تورطه في التهمة الموجهة إليه.

– حلّت عليك اللعنة يا وضيع؛ ألهذا فرقتنا ؟

– إما أن أضمك أنا، أو يَضمك قبرك.

– فالقبر عندي خيرٌ من نجسك.

اتجه يَغوث نحو باب المنزل وقال قبل أن يغادر:

- أتفهم غضبك؛ فلا بد أن جرحك ما يزال ينزف على فِراق أعصم، وإنني لأكثر من يعرفكم يا بني الإنس؛ جراحكم تبدأ كبيرة ولكنها تلتئم مع الوقت؛ ولذلك سأظل أراودك عن نفسك، وآتيك كل يوم لأسألك يا جميل المُحيا، فإذا كنتِ غاضبة رحلت، وإذا نسيتِ اقتربت.

ما إن غادر يَغوث المنزل حتى دخل غراب أسود من النافذة، ومكث في حِجر العامرية ينظر إليها وفي عينيه تحتشد دموع القهر؛ قالت حينها العامرية وهي تمسح الدموع عنهما:

- لا تبكِ يا أعصم، أعدك أن نقتل يَغوث يومًا.

**

وهكذا بات قتل يَغوث هو هدفها الوحيد،

كان انتقامها يتطلب منها العثور على شخص لا يُثير وجوده الشبهات حولها .. فواصلت بحثها خلال سنوات طويلة حتى عثرت على آزر الذي كان يُحقق لها المطلوب - فهو فتىً مجهول الوالدين، قوي، لديه حُلم مستعد لأن يضحي بأي شيء من أجل تحقيقه، يَفي بالوعود ولا يخلفها، والأهم من كل ما سبق هو أن اهتمامها به لن يكشف حقيقة سعيها وراء تحقيقها للثأر - فقامت بإيوائه وتدريبه على شرط أن يُنفذ لها العهد الذي طلبته منه، وهو أن يَقتلها في اللحظة التي تنطق فيها أمامه جملة السر والتي كانت عبارة عن:

" قرص القمر مُكتمل في نصف عباءة الليل، أليس كذلك "

لذلك فإنه ما إن سمع تلك الجملة حتى أدرك أنها اللحظة المنشودة؛ فاحتشدت في عيونه دموع غريبة هي دموع الوداع؛ وقال يؤكد لها أنه ماضٍ في الوفاء بعهده:

- **نعم، هو كذلك.**

ثم طعنها بالسيف من ظهرها بغتة،

وأعقبها بطعنة خنجر كانت العامرية قد أعطته إياه بعد أن لعنته بطلسم ما، وطلبت منه الاحتفاظ به دائمًا معه أينما حلَّ وارتحل لتنفيذ المهمة متى يحين وقتها.

وهكذا فإنها ما إن نطقت أمامه بكلمة السر حتى نفذ ما تعهد لها به، فطعنها أولًا بالسيف ليُغلق منافذ الهرب على الشيطان يَغوث الذي كان يسكن جسدها تلك الليلة مختبئًا من وجع مرضه " **الجازور** " كعادته كل ليلة يكتمل فيها القمر، ولما بات الشيطان في جسدها محاصرًا قتله آزر بالخنجر المُطلسم؛ فسقطت العامرية أرضًا ومن فمها ينزفُ خيطان من الدم:

أحدهما أحمر وهو دمها، وآخر أسود وهو دم الشيطان الذي بداخلها.

لقد كان يَغوث شيطانًا قويًا،

ولم يكن بوسع العامرية أو أي أحدٍ آخر أن يقتله إلا بهذه الطريقة،

وهكذا دفعت تلك المرأة حياتها ثمنًا لتحقيق ثأرها الذي تعهدت به أمام العرب، عندما أمسكت أستار الكعبة بيديها النازفتين دمًا وأقسمت بأنها لن تنسى وسوف تثأر.

**

وبعد أن انتهت والدة العامرية من سرد حكاية ابنتها جففت دموعها بيدها المعفرة برمل القبر، ثم أطالت النظر إلى آزر وقد أُعجبت بوسامته العربية وحُسن استماعه إليها وأدبه الجم أثناء حديثها، ومسحة الحزن الصادقة التي رأتها عليه.

- لا عجب في أن العامرية كانت تُحبك يا فتى.

قال يُصحح لها:

- بل كانت تكرهني أكثر مما تكره الشيطان يَغوث ربما .. وأظنها كانت ستكون أكثر سعادة لو أنها وجدت من يقتلني بعد موتها.

ابتسمت بحزن وقالت تكاشفه:

- لقد أحبتك بصدق ولكنها كانت طوال الوقت تتجنب أن تخبرك بذلك؛ حتى لا تجعل من مهمة قتلك لها صعبة.

- حقًا ؟

- نعم؛ لقد كنت بالنسبة إليها الولد الذي كانت تتمنى أن تُنجبه.

لم يكن آزر يدري - بعد ذلك الاعتراف - إن كان يجب عليه أن يحزن لأنه خسر المرأة التي أحبته بكل ذلك القدر ؟ أم يفرح لأنه كان عند حسن ظنها وحقق لها ما تعهد لها به.

- إن العامرية توصيك بأن تكمل طريقك لتصل إلى المجد الذي جاء في نبوءة الكاهن؛ فاجعل روحها تستقر سعيدة يا بني؛ فهي ستظل دائمًا تتطلع إليك من السماء.

رفع آزر رأسه إلى الأعلى ومكث يتأمل السماء وكأنه يُفتش بين النجوم عن عيني معلمته، قبل أن يقول بينه وبين نفسه " أعدك أن أفعل" ثم استدار وقفل عائدًا إلى مكة دون أن يعلم أن روح العامرية قد استمعت إلى وعده الذي نطق به في نفسه، وستظل طوال الوقت القادم تنتظر وفاءه بذلك الوعد.

١٦

ما إن عاد إلى المضارب المكية حتى لاحظ شيئًا أثار تعجبه؛ فقد شاهد صاحبه قَيس وهو يعسُّ الدروب ويتلفت حوله، وكأنه يتلصص على أحد ما؛ فاقترب منه وسأله:

- ما الذي تفعله هنا يا قَيس ؟

- لقد رأيتُ اليوم ثلاثة رجال غرباء عليهم هيئة أهل اليمن.

- وما في ذلك وكل الناس يأتون إلى مكة من كل أصقاع الجزيرة ؟!

- لقد رابني أمرهم يا آزر؛ فهم لم يأتوا لزيارة قريب أو صديق؛ ولم يذهبوا للطواف حول الكعبة، أو مقابلة السادة في دار الندوة، أو للتبضع من السوق؛ لقد جاؤوا لأجل هدفٍ ما وإن قلبي ليس مرتاحًا لأمرهم.

انتقلت عدوى القلق إلى آزر الذي أدرك أن في الأمر ما يُريب:

- وأين هم الآن ؟

- لستُ متأكدًا ولكنني لمحتهم يسلكون ذلك الممر هناك.

وما إن نظر آزر إلى حيث يُشير صاحبه قَيس حتى تضاعف القلق في داخله أكثر؛

فهناك تنهض دار عامر بن لُكيز ..

**

(عامر بن لُكيز)

كان عامر مستيقظًا في تلك الليلة يتأمل على ضوء الشمعة الخافتة ملامح ابنته الراقدة في مهدها بسلام، وثمة صِراع من المشاعر المختلطة؛ ففي ذلك الزمن حتى وإن نجت الطفلة من الوأد فإنها لا تسلم من كره الأب وإهماله وإقصائه لها .. لكن عامر تلك الليلة كان يحمل مشاعر مختلفة تجاه ابنته، فجعل يدنو مقتربًا منها بخفة وحرص وكأنه يخاف أن يصدر صوتًا يوقظ به زوجته من نومها، فتراه متلبسًا وهو بصدد القيام بذلك الشيء المستنكر على رجال ذلك الزمان: واصل عامر اقترابه من قَمر مدفوعًا بغريزة أبوية عجز عن مقاومتها؛ فحملها بين يديه وراح يستنشق عَبق بشرتها البريئة الصافية الممتزجة ببقايا الحليب ورائحة الأطفال المحببة؛ فكان ذلك الشعور هو ما جعله يبتسم على الرغم منه بينما كان يضمها إلى صدره بحنان غريب.

في تلك اللحظة اقترب ظلّ ما من عند نافذة الحجرة؛ فانتبه عامر إليه؛ وتساءل عن السبب الذي قد يدفع بأحد عبيد الدار إلى الاقتراب من حجرته في هذا الوقت المتأخر؛ فأعاد الطفلة إلى مهدها وذهب ليستطلع الأمر:

- ما وراءك يا عبد الدار ؟!

- وكيل تجارتك في اليمن: سُراقة بن ذيل الناقة يا سيدي.

- ما به ؟

- ينتظرك عند الباب.

قطب السيد حاجبيه وقد دهمه سيل من الهواجس المرعبة: فوكيل تجارته في اليمن سراقة بن ذيل الناقة لن يأتي إلى مكة في هذه الساعة إلا لأمر جلل، اندفع السيد عامر عبر فناء الدار وبالكاد تحمله قدمان راجفتان حتى وصل إلى الباب وفتحه:

- أبيتَ اللعن يا سُراقة، أحل شيء بتجارتي في اليمن ؟!

- اطمئن يا سيدي، كل شيء هنالك على ما يرام.

- إذًا، ما الذي دفعك للقدوم الساعة ؟

- إنها بعض الأخبار.

- وهذه الأخبار ألم تكن لتنتظر عودتي إلى اليمن ؟!

- عفوك يا سيدي ولكنها بالفعل أخبارٌ لا تنتظر.

دقّ قلب عامر بقوة وهو يقول:

- إذًا هات ما عندك بسرعة !

قال سُراقة:

- من الأفضل أن تأتي لترى بعينك؛ فهذه بضاعة خاصة يجب أن تراها بنفسك قبل عرضها في أسواق مكة.

ومع أن هنالك الكثير من التناقضات في كلام الوكيل؛ فمرة يقول إن لديه أخبارًا من اليمن لا تحتمل التأجيل، ومرة يغير كلامه فيقول إنه جاء ببضاعة لعرضها في السوق؛ غير أن الطمع لدى عامر بن لُكيز غلب بداخله غريزة الحذر وهذا ما دفعه لأن يسير بصحبة سراقة إلى خارج الدار، ثم يتبعه حتى وصل معه إلى مكان منزوٍ بعيد لا يراه فيه أحد:

- أين البضاعة التي قلت عنها ؟

في تلك اللحظة أخرج سُراقة خنجرًا من حزامه في ذات الوقت الذي اندفع فيها زجلان من مخبئهما، وأحاطاه من اليمين والشمال ليدرك عامر حقيقة الفخ الذي وقع فيه.

فقال وهو ينظر إلى وجه غادره:

- ويلك أيها الخائن، أتعض اليد التي أطعمتك ؟!

- أفعل مقابل الثمن المناسب؛ فما إن يُقطع رأسك حتى تؤول كل تجارتك في اليمن إليّ.

قال سُراقة ذلك ثم انقضَّ عليه بسرعة دون أن يمنحه الفرصة ليقول شيئًا أو يدافع عن نفسه. لكن قبل أن يصل بخنجره إلى صدر سيده ارتفع في سكون الليل صوت يشبه حفيف سيفٍ يشق بنصله تيار الهواء ليقطع عنق سُراقة ويفصلها عن جسده؛ فهوى الجسد المقطوع أرضًا ليكشف من ورائه عن الفاعل الذي كان صبيًا يافعًا بدا أنه لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، يعقص شعره فوق رأسه على هيئة ذيل حصان، ويقف إلى جواره فتى له سحنة أهل الشمال يُمسك بسيفه استعدادًا لما سيقع من اشتباك: وبالفعل سارع صاحبا سُراقة بمهاجمة الصبيين انتقامًا لمقتل صاحبهما وقد استهانا بهما لحداثة عمرهما، لكن آزر وقَيس انقضّا عليهما مثل ذئبين جامحين؛ فكومَّا جثتيهما إلى جوار جثة صاحبهما المقطوعة الرأس.

احتاج عامر بعض الوقت حتى يَفيق من نوبة الهلع التي أصابته .. وعندما استجمع شتاته لاحقًا والتفت إلى حيث يقف الصَبيان شاهدهما وهما يبتعدان في عمق الظلام؛ فتبعهما بصوته:

- على رسلكما أيها الصبيان، على رسلكما لحظة.

توقف الاثنان وهما يَلتفتان إلى الخلف ويشاهدانه وهو يقترب منهما بخطوات كان ما يزال عليها أثر الخوف واضحًا .. قال من بين أنفاسه الراجفة:

- إنني مدين لكما بحياتي.

قال آزر:

- لم نفعل ما فعلناه لتدين لنا بحياتك يا عم؛ إن ما فعلناه نخوة وحمية، فأنت من حينا، وما يمسَّك يمسَّنا.

ابتسم عامر وقال في إعجاب:

- وبحق هُبل إنَّ هذا ليس بكلام بربري لا أصل له.

مال فؤاد آزر إلى تلك الكلمات، وتمنى أن يُطال في عمره حتى يأتي اليوم الذي يسمع فيه الناس وهم يعترفون بأصالته وشجاعته، ثم استدار بعد ذلك ومعه قَيس وهمَّا بالمغادرة، ولكن عامر استوقفهما مجددًا وقال وقد انتبه للتو لملاحظة مهمة:

- إنك بارع في القِتال يا فتى، وما رأيته منك قبل قليل لا يستقيم مع خسارتك لقب صِنديد العرب؛ فأسألك بحق هُبل أن تُخبرني عن الثمن الذي دفعه لك الحارث لتدع ابنه يتغلب عليك.

صمت آزر بينما أَفلتت من لسان صاحبه قَيس كلمة كانت السبب في كشف الحقيقة:

- لم يكن لأجل ثمن دُفع بل لأجل روح دُفع عنها الموت.

كانت الجملة التي قالها قَيس هي السبب الذي جعل الخيوط تنتظم في عقل عامر وترشده إلى معرفة الحقيقة: " **فصاحبه الحارث لم يلحق به تلك الليلة ويطلب منه عدم وأد ابنته من تلقاء نفسه، بل كان هذا هو الثمن الذي دفعه إلى آزر مقابل شراء الفوز لابنه** "

- ولكن لماذا - قال عامر - لماذا صنعت هذا أيها الفتى ؟

في الحقيقة: لم تكن نبوءة الكاهن شِق المتعلقة بقمر هي السبب الوحيد الذي جعل آزر يُقدم تلك التضحية بل كان هنالك سبب آخر أكثر أهمية بالنسبة إليه:

- إنقاذ روحٍ بريئة أعظم عندي من لقب صِنديد العرب.

الجميع يعتقد أنه يملك القِيم والأخلاق، وحدها المواقف الصعبة التي يمر بها الإنسان هي ما تؤكد أو تَنفي ذلك .. وقد أثبت هذا الموقف لعامر إنسانية وأصالة ذلك الصبي؛ وهذا ما أكسبه احترامًا له فاق احترامه لسادة الوادي:

- اطلب ما تشاء يا فتى؛ إن مالي وكُل ما أملك رهن إشارتك.

- لا تقل هذا يا عم؛ فالكريم لا يؤجر على شجاعته.

ربّت عامر على كتفه وقال بصدق:

- لطالما تمنيت أن ترزقني الآلهة بالولد .. وإني وحق هُبل لا أتمنى أن أُرزق إلا بولد في مثل شمائلك؛ فاطلب يا بني واعتبرها أُعطية من شخص في مقام أبيك.

اختلجت أعماق آزر حين سمع لفظ الأب وقال يطلب:

- لقد وعيت على هذه الدنيا، ولستُ أعرف إلا أمي الذئبة حواء وأجيرة تعمل لدى جدي المتوفي (نُمير بن رَبيعة) اسمها بُثينة، فإن أبيتَ إلا أن أطلب منك شيئًا يا عم فإني آمل أن تساعدها على إيجاد عملٍ لها؛ فإن كل البيوت ينفرون منها ولا يستأجرونها؛ لكونها ترعى غلامًا بربريًا غير ذي نسب.

قال عامر:

- إني أبحث بالفعل عن امرأة ترعى ابنتي "قمر"؛ فإن والدتها عاجزة عن الحركة منذ أن أنجبتها بسبب المرض - ثم أضاف يقترح عليهما: وإنني غدًا صباحًا سأسافر إلى اليمن؛ فيجب أن أسارع بالعودة إلى تجارتي بعد موت هذا الخسيس؛ فما رأيكما أن تُرافقا قافلتي إلى اليمن فأعلمكما هناك التجارة وتُصيبان ثراءً عظيمًا ؟

- أما أنا فلا أستطيع مفارقة حواء ولا بُثينة، ولا يَطيبُ لي فِراق الكعبة وأرض مكة، ولكن قَيس سوف يأتي معك.

التفت قَيس نحو آزر وقال رافضًا:

- لقد تعاهدنا ألَّا نتفارق.

- إنه فِراق مؤقت يا صاحبي.

- ما لي أراك تريد فِراقي إلى هذا الحد ؟

- لا ورب الكعبة؛ فأنت الشخص الوحيد الذي ارتضى أن يكون صاحبي، وإنني بأمسِّ الحاجة إليك، ولكنني هنا لا أستطيع أن أقدم لك شيئًا، بينما هناك ستتعلم التجارة وتحوز مالًا وفيرًا - وأضاف مازحًا: ثم تعود لفتح دكانًا في سوق مكة لأعمل فيه معك صبيًا بالأجرة.

- بل مالي، ونفسي، وكل ما أملك لك.

تعانق الاثنان ولا أحد منهما يعلم إن كان سيلقى صاحبه بعد يومه هذا أم هو فراق أخير.

التفت آزر نحو عامر وقال يوصيه:

- لو حدث له مكروه فإنني لن أسامحك يا عم.

ابتسم عامر بن لُكيز لذلك التهديد اللطيف وقال مبادرًا:

- لا تقلق على صاحبك .. وفي المقابل أنا لن أقلق على منزلي فأنت سوف تتولى في غيابي كل شؤوني في مكة .. ثم مد يده في الهواء مصافحًا وقال:

- هل اتفقنا يا آزر ؟

مد آزر يده مصافحًا وقال:

- نعم، اتفقنا.

**

عاد عامر بن لُكيز إلى داره فجرًا وقد جمع الخدم في ساحة الدار وأخبرهم أنه سينطلق بعد قليل بقافلته إلى اليمن .. وأخبرهم أنه قد استأجر مربية خاصة لتعتني بطفلته قَمر اسمها بُثينة، وأنه قد أوكل جميع شؤونه إلى آزر وأمرهم بطاعته، ثم استدار وذهب إلى الحجرة ليودع الزوجة والطفلة قبل أن ينطلق.

حين دخل عامر إلى الحجرة لم يجد زوجته فوق السرير كما كانت عليه قبل أن يغادر، لم يتعجب حينها كثيرًا، حيث ظن أنها قد ذهبت كعادتها إلى الكعبة لأجل أن تُصلي إلى هُبل وتدعوه أن ينصرها على مرضها ويشفيها منه، فاقترب من طفلته منحنيًا ليضع قبلة على جبينها ولكنه ما كاد يدنو منها إلى ذلك الحد حتى انتبه لوجود شيء مُقزز؛ إنها حشرة ذات أربع وأربعين كانت تختبئ في قِماط الطفلة؛ فأزاحها بظهر يده لتسقط أرضًا ثم قام بدهسها.

ولما تأكد من أن الحشرة ماتت تحت قدمه عاد لينحني ويضع قُبلته على جبين طفلته ثم أوصى أحد الخدم أن يُزيل الحشرة المدهوسة عن الأرض ويُنظف المكان من دمها وقال يوصيه أيضًا:

- وأريدك أن تنقل إلى والدة قَمر تحياتي وأن تخبرها بأنني كنت سأنتظرها حتى تعود من عند الكعبة لولا مخافة التأخر عن موعد سير القافلة.

ثم رحل دون أن يعلم أنه

لن يرى زوجته بعد ذلك اليوم أبدًا ..

١٧

بدأ آزر ذلك الصباح بتولي مهامه الجديدة ما بين جلب لوازم الدار ورعاية الماشية وإعادتها إلى مرابضها والتأكد من أن الغِلمان يؤدون أعمالهم كما ينبغي، وأثناء ذلك الوقت كانت المربية بُثينة تتولى رعاية الطفلة قَمر، وقد جلبت لها إحدى المرضعات من البوادي المحيطة لتكمل فطامها بعد اختفاء والدتها المريب.

وبعد شهور من ذلك بعث آزر برسالة إلى سيد الدار عامر بن لُكيز في اليمن، يطمئنه فيها عن أحوال الدار ويخبره فيها بما توصل إليه بشأن البحث عن زوجته إذ كتب إليه يقول: " وقد انتشرت إشاعة غريبة أيها العم عامر، تزعم فيها بعض النسوة أن كاهنًا ما قد سخط زوجتكم (تَليدة) إلى حشرة ذات أربع وأربعين .. وإنني أكتب إليك الآن وأنا لا أصدق ما يُقال ولكنني أنقله إليكم من باب العِلم بالشيء لا أكثر " وبالرغم من أن آزر كان قد استمع لذلك التهديد بنفسه قبل زُهاء العام عندما قال الكاهن لها: " تُسخطين إلى ذات أربعٍ وأربعين إلا أن تقولي الحق ولا تكذبين " إلا أنه لم يخطر بباله أبدًا أن يكون ذلك التهديد حقيقيًا؛ ولذلك لم يأخذ الإشاعة المنتشرة على محمل الجِد.

بعد أسابيع من ذلك وصلت من عامر بن لُكيز رسالة إلى آزر، " أوقف البحث عنها يا آزر " هذا ما جاء مكتوبًا في الرسالة، سطر واحد فقط، يخفي خلفه سر لن يكشفه عامر لأحد.

**

(قَيس بن هامة الشمال)

مرَّ بعد تلك الرسالة الكثير من الشهور، كان قَيس خلالها قد أصبح الوكيل المعتمد لدى تجارة عامر بن لُكيز في الجزيرة العربية، وقد ساهم بذكائه في تأسيس شبكة تجارية ضخمة لصالح سيده عامر تربط ما بين إفريقيا واليمن، فتضخَّمت مسؤولياته وتراكم عليه العمل حتى بات يومه يذهب كله في أمور التجارة وشؤونها، وبالرغم من تلك المشاغل، كان يؤمن بأن الوقت يُصنع لأجل الأحبة، فكان يغادر اليمن كل شهر مرة ليزور مكة؛ من أجل ليلة واحدة فقط يقضيها مع آزر والذئبة حواء فوق جبل أبي قُبيس، يستلقون على ظهورهم ويتأملون السماء، بينما بُثينة تقصُ عليهم وتُنشد الأشعار وتغني بصوتها العذب بينما الطفلة قَمر تَرقد في حضنها.

**

(عامر بن لُكيز)

وفي تلك الفترة كان الحظ قد ابتسم في وجه عامر بن لُكيز الذي استطاع عبر شبكة من المعارف والأصحاب مدعومًا بسمعته الطيبة وكونه أحد أكابر التجار في الجزيرة من الوصول إلى المجلس الخاص لعائلة آل حِمير الملكية؛ حيث أصبح من الجُلساء المقربين لرأس الحُكم " التُبع اليماني " الأمر الذي حاز بسببه مزيدًا من القوة والنفوذ اللذين أسهما في زيادة ثرائه وذيوع صيته في أقطاب الجزيرة العربية.

**

(آزر)

في الجهة المقابلة: كان الحظ أيضًا قد أرخى بظلاله على آزر الذي أصبح يستطيع - بسبب ظروف عمله الجديدة - أن يشاهد قَمر وهي تكبر شيئًا فشيئًا أمام عينيه؛ فتتحول من رضيعة تحبو على أربع إلى طفلة تمشي وتهرول بين قطعان الأغنام، عندما يأخذها معه في الصباح الباكر فتملأ الوادي بأصوات ضحكاتها المُبهجة، وهي تَلعب وتكتشف الأشياء بيديها ولسانها حتى يُرهقها التعب عند المساء وتغفو في حُضن حواء ليحملها على كتفه ويُعيدها إلى الدار مجددًا وهو يسوق خلفه قطعان الماشية.

ومع الوقت:

تعلقت به تلك الطفلة أيضًا وكأنما عَقدت السماء قلبها به برباط وثيق؛ فعوضها عن الأب الذي حرمتها ظروف الحياة منه، وعن الأم التي وعت للحياة وهي لا تعرفها .. حتى إنها حين نطقت لأول مرة كان اسمه هو أول شيء تنطقه .. وقد لفظته بطريقة طفولية جعلت آزر وبُثينة يغرقان في دوامة من الضحك المتواصل .. وسار الحال على هذا المنوال تسع سنوات قادمة حتى إذا جاء موسم حج[16] ذلك العام كان آزر موعودًا بغمامة سوداء سوف تُعكر صفو حياته، وتكون نهاية حقبة سعيدة وبداية لحياة مختلفة.

---

١٦ كانت العرب تحج إلى الكعبة في زمن الجاهلية حيث كانوا يجتمعون لعبادة آلهتهم المنتصبة حول الكعبة، وكانت للحج أهمية اقتصادية حيث العرب يتبادلون السلع ويَعقدون الاتفاقات فيما بينهم، وكان ذلك الموسم يشكل لهم أيضًا مناسبة اجتماعية لتبادل الاخبار، وتقوية العلاقات فيما بينهم.

الباب الثالث

١

في حضرة تُبع اليمن

كانت قاعة مَلكية مَهيبة بحق؛ زُينت حوائطها العالية برسومات تصور مشاهد من الحروب والملاحم التي خاضها تبابعة اليمن القِدام تُظهر فيها مدى قوتهم وقدرتهم على هزيمة أعدائهم وسحق جيوشهم في الحروب، أما سُقوف القاعة فقد زُينت بأبيات شِعرية تُظهر مدى عَظَمة آل حِمير وحقهم في السيادة على بقية الخلق.

في منتصف القاعة كان التُبع اليماني (مَعد بن شَهوان) يجلس بكامل قيافته الملكية فوق عرش مُذهب طويل الظهر .. وإلى جانب عرشه أسد ضخم مُقيد عنقه بالأغلال .. ويحف عرشه عن اليمين والشمال أصحابه الأخلاء من الأمراء وأعيان القوم.

نهض أحد رجال التُبع وهو أمير اسمه مَرحب، كان التُبع قد ولاه على إقليم يُسمى " إقليم تُهامة السوداء " وهي المنطقة ما بين مكة واليمن تسكنها قبائل عربية كان التُبع قد أدخلها إلى حكمه بالغدر والحيلة:

- إنني استأذنك يا تبع الزمان وسليل آل حِمير العظام، أن تسمح لي بالذهاب إلى الحجاز؛ فقد نويت هذا العام أن أحج البيت المعمور، وأذبح الأضاحي فأقدمها قرابينَ لهُبل؛ وأطلب منه أن يُكللك بالنصر والأمان ويَمدك بطيلة العمر وراحة البال.

مع هزة رأس طفيفة قال التُبع اليماني:

- أسمح لك يا مَرحب - وأضاف: اذهب مُكللًا بالسلامة والبركات.

هُنا تشجع رجل آخر من الأعيان، حيث نهض وقال:

- اسمح لي يا تبع الزمان وسليل آل حِمير العظام، أن أُرافق الأمير مَرحب إلى مكة فأُرشده إليها؛ فإنني كما تعلم من أهل تلك المنطقة وأدل طرقاتها المختصرة.

كاد التُبع أن يرفض، ولكن الأمير مَرحب قال يطلبه:

- ائذن له يا سيدي؛ فالطريق تقصر بالصحبة ولا بد أن عامر بن لُكيز قد اشتاق لبني قومه.

كان التُبع قد أنزله مكانة مُحببة في قلبه، وقد أسند إليه بعض الأمور المتعلقة بالتجارة الخاصة لعائلة آل حِمير الملكية؛ لذلك كان السماح له بالذهاب شيئًا ليس بالسهل:

- أمللت صُحبتنا يا عامر ؟

- حاشى وكلا يا مولاي؛ فإن السنين مرّت كلمح البصر في ظِل حفاوتكم ومودتكم - ثم أضاف موضحًا:

- حتى أن ابنتي قد بلغت عامها التاسع دون أن أراها إلا مرة أو مرتين؛ وكل ما أطمح إليه هو أن أتفقد شؤونها وشؤون الدار وأُلقي على أصحابي السلام ثم أعود إليكم.

هزَّ التُبع اليماني رأسه كما لو أنه اقتنع بما سمعه وقال:

- آذن لك بالرحيل على ألّا تُطيل الغياب، وتعود مع الأمير مَرحب بعد انقضاء موسم حجكم دون إبطاء.

عامر وهو ينحني:

- لمولاي تبع الزمان، سليل آل حِمير العظام السمع والطاعة.

ارتسمت على وجه التُبع اليماني ابتسامة الرضى والموافقة وهو يرفع يده بإشارة محددة سرعان ما التقطها العبيد؛ فبدؤوا يطوفون بصحاف الخمور ليستبدلوا الأقداح الفارغة بأخرى مليئة. في هذه اللحظة كان عامر بن لُكيز سعيدًا لاقتراب ذهابه إلى مكة ورؤيته أصحابه وابنته قمر، ولو كان يعلم ما ينتظره هناك لكان سيفعل كل ما يستطيع لمنع تلك الرحلة المشؤومة.

٢

على ضوء القمر الناعم ونسمات الفجر الباردة وعَبق أوراق شجرة السِدر، وبينما السكون يعم وادي مكة العظيم، كانت هنالك أصوات قرع للسيوف تَنبعث من فوق جبل أبي قُبيس لشاب يُدرب فتاة في التاسعة من عمرها.. فقد قرر آزر منذ عام ونصف أن يبدأ تعليم قَمر على استخدام السيف والدرع؛ فهو يؤمن بأن حراسته لها لا تعني بقاءه كما الظل معها، بل تعني أن يجعلها قادرة على الدفاع عن نفسها عندما تقتضي الحاجة إلى ذلك.

انتهى التدريب مع انتصاف الليل؛ فأرجعت قَمر السيف إلى غمدها وألقت بنفسها تتوسد حضن الذئبة حواء، وهي تُرسل بصرها إلى القمر في السماء وتتساءل في حيرة:

- تُرى هل سيأتي والدي هذا العام ؟!

لم يكن السؤال غريبًا على آزر؛ فقد اعتاد سماعه عند كل مرة يقترب فيها موسم الحج .. فجلس بالقرب منها وقال يُجيبها بالجواب نفسه في كل مرة تسأله فيها:

- إن جاء وفد اليمن إلى الحج هذا العام فسيكون والدكِ معهم.

- ولكن وفد اليمن لم يأتِ إلا قبل خمس سنوات حين كسى التُبع اليماني الكعبة بالجلود .. وإنني لا أتذكر شيئًا من ملامح والدي غير أنفه الكبير.

في تلك اللحظة يأتي صوتٌ مُعاتب من الخلف يقول:

- من غير اللائق أن تتحدثي عن والدك بهذه الطريقة يا قَمر !

التفتت قَمر إلى مصدر الصوت لترى بُثينة وقد جاءت تحمل بين يديها الطعام:

- ولكنني لم أقل غير الحقيقة؛ فلفرط ما كان أنفه كبيرًا أذكر أنه عندما انحنى ليضع على جبيني قبلة الوداع .. أذكر أنه قبلني بأنفه قبل أن يُقبلني بشفتيه.

ضحك آزر على الرغم منه وهو يتخيل المشهد، بينما وضعت بُثينة الطعام أرضًا والتفتت نحوه موبخة:

- لا تشجعها على مثل هذه الأفعال يا آزر !

كتم آزر ضحكاته ولكنه قال بوجه عجز عن إخفاء ملامح التبسم من عليه:

ولكنني لم أقل شيئًا.

دنت منه بُثينة وهمست له في أذنه:

- إنها تُحبك وترى فيك قدوة لها؛ فلا تشجعها على مثل هذا السلوك بمثل هذه الضحكات.

قالت تخاطب قَمر:

- تعلمي ألَّا تقولي كل ما يَخطر ببالك يا عزيزتي؛ فليس كل ما يُعرف يُقال.

قَمر بطبعها فتاة متمردة؛ ترفض التوجيهات والنصائح ولا تفعل أو تقول إلا ما يخطر ببالها، ولكنها تصبح مطيعة عندما يتعلق الأمر بإحدى نقاط ضعفها الثلاث - آزر، بُثينة، والذئبة حواء - لذلك أخفضت رأسها أمام بُثينة وهي تقول:

- آسفة.

قربت بُثينة الصحن الأول من الذئبة وكان فيه بعض اللحم النيء والعظام، ثم مدت الصحن الآخر نحو آزر وقمر وهي تقول بلطف وحُب:

- كُلا؛ فلا بد أن تدريب اليوم قد أفرغ بطنيكما.

كان الطعام الذي أعدته لهما مزيجًا ما بين التمر والعسل وسمن الأغنام، نهضت قَمر من فورها حين رأت مكونات الطعام وهي تقول في اشمئزاز وقرف:

- أن آكل مع حواء هذا اللحم النيء والعظام خيرٌ عندي من هذا الطعام.

زمجرت حواء بغضب وهي تُطبق ذراعيها حول طعامها وكأنها تحذرها من محاولة المشاركة، بينما قالت بُثينة في تعجب وعِتاب:

- ويحك يا قَمر؛ أيقال مثل هذا الكلام عن تَمر يَثرب وعسل الطائف وسِمن أغنام مكة ؟!

لم تعلق قَمر وامتطت ظهر حصانها وهي تقول:

- لن أتأخر.

ثم ضربت الحصان بكعبي قدميها وابتعدت.

بُثينة وهي تنظر نحو آزر متسائلة:

- ما بها هذه المجنونة ؟

- أنتِ قلتِها - وأضاف وهو يرفع كتفيه في علامة حيرة:

- مجنونة.

بُثينة وهي تحملق نحوه بعينيها في نظراتِ وعيد وتهديد:

- هذه المجنونة تخبرك بكل أسرارها؛ فأخبرني الحقيقة.

- لقد اخترتِ الشخص الخطأ يا بُثين - وأضاف وهو يمد يده نحو الطعام:

- فآزر لا يكشف أسرار أصحابه.

وهي تضرب ظهر يده وتمنعها من الوصول إلى الطبق:

- والآن ؟!

- سأخبركِ بكل شيء؛ فاسمحي لي بالأكل.

- تحدث أولًا.

أمام إلحاح بطنه، بدأ آزر يعترف لها بالحقيقة:

- أتذكرين ذلك الجفاف الغريب الذي أُصيبت به قَمر قبل عامين ؟!

- أذكر ولكن ما دخل ما حدث قبل عامين، بما يحدث اليوم ؟

- دخله أن "قَمر" لم تكن مريضة آنذاك.

- كيف وقد كادت تموت عطشًا، وكنا نقرّب لها صِحاف الماء فكانت لا تُطيق بلَّ ريقها برشفة ماء حتى ؟

آزر معترفًا بالسر الذي لا تعرفه بُثينة:

- الحقيقة هي أن قَمر قبل ثلاثة أيام من إصابتها بذلك المرض؛ ابتلعت عن طريق الخطأ نواة تمرة كانت تأكلها؛ فخافت أن تشرب بعدها الماء فتسقي بذلك نواة التمرة وينبت ببطنها نخلة .. وقد أَقسمت غير حانثة بعد أن شُفيت من المرض بألّا تقرب التمر أبدًا.

بدأت الخيوط تنتظم في عقل بُثينة التي قالت متسائلة:

– ولماذا أنا آخر من يعلم بهذا الأمر – وأضافت بعد لحظة إدراك:

– ولماذا كذب علينا ذلك المداوي الحقير، وقال إنها مصابة بمرض العطش ؟!

– لا أعلم ..

وهي تحملق بعينيها نحوه أكثر وتقول مهددة: آآآزر ! !

قال راضخًا، خائفًا منها:

– لأنني هددته بالقتل إن أخبركِ بالحقيقة.

– ولماذا تهدده بالقتل ؟

– لا أعلم

– آآآزر ! ! !

– لأنني أنا من أدخل فكرة النخلة تلك إلى عقل قَمر؛ فقد جاءتني تقول إنها ابتلعت نواة التمر عن طريق الخطأ ونصحتُها مازحًا بألَّا تشرب الماء حتى لا تَنبت نخلة في بطنها .. لقد كنت أمزح معها يا بُثينة ولكنها أخذت الأمور بجدية.

صمتت بُثينة؛ فمدَّ آزر يده نحو الطبق ولكنها عادت لتضرب يده مانعة إياها من الوصول إلى الطعام؛ ليدرك أنه لن يأكل قبل أن تُمطره بعتاباتها، ولكن على خِلاف ما كان يعتقد قالت بنبرة هادئة منطقية:

– أنا أعلم أنني أُكثر اللوم عليك وأن هذا قد يزعجك؛ ويجبرك أحيانًا على إخفاء بعض المسائل عني تفاديًا لكلامي الكثير؛ فأنتم الشباب تفضلون تجرع السم على أن تسمعوا كلمات العِتاب من أحد.

وبينما هو يصغي إليها، أكملت بُثينة كلامها قائلة:

- ولكن يجب أن تعرف أن للحب وجوهًا عديدة، وأحد تلك الوجوه وجه اسمه العِتاب؛ فلن يُعاتبك أحدٌ إلا إن كان يحبك.

- أعرف

قال ذلك ثم مدَّ يده ليأكل،

ولكنها ضربت يده قبل أن تصل للصحن وهي تصيح عليه:

- **أناا لم أُنهِ كلامي بعد ! ! !**

سحب يده وتجمد وجهه وهو ينظر إليها، بينما واصلت:

- لقد جاءت قَمر إلى هذه الحياة يا آزر وهي لا تعرف أمها إطلاقًا، ووالدها منشغل بتجارته في اليمن وهي بالكاد لا تتذكر من ملامحه شيئًا غير أنفه الكبير؛ إنها لا تعرف غيرنا: (أنا وأنت وحواء) وهي متعلقة بك كثيرًا وتقلدك في كل حركاتك وتصرفاتك .. تخيل أنها أصبحت لا تخلد إلى النوم إلا وهي تحتضن سَيفها، وحين سألتها عن سبب ذلك قالت لأنها تراك تفعل ذلك !

وأضافت في حسرة:

- من يتخيل أن صبية في التاسعة من عمرها وبكل ذلك القدر الوفير من الجمال تُشبه الصبيان في مشيتها، ولا تسير إلا وهي تتمنطق بسيفها على خصرها، في الوقت الذي تعيش فيه الصبايا بمثل عمرها حياة تَليق بالفتيات، لم يعد ينقص قَمر إلا أن تحلق شاربها وتُهذب ذقنها !

استطاع آزر أن يحافظ على وجهه محايدًا؛ ولكنه في الحقيقة كان سعيدًا بما يسمع، فعلى الرغم من أن تصرف قَمر في اقتدائها به على ذلك النحو كان تصرفًا خاطئًا؛ إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يشعر بالسعادة وهو يعلم أن هنالك على الأقل شخصٌ واحدٌ يؤمن فيه ويراه عظيمًا ويقتدي به:

- ماذا تريدين مني أن أصنع ؟

- أريدك أن تكون حذرًا في جميع تصرفاتك أمامها يا آزر؛ فعلى المرء عندما يقتدي به الآخرون أن يبذل نصيبه من الانتباه، فيكون أكثر حذرًا في كل ما يقوله أو يفعله.

في تلك اللحظة يتعالى صوت وقع حوافر خيل تقترب منهما لتظهر قَمر وهي عائدة تحمل في يدها حبلًا معقودًا فيه ثلاث طرائد صغيرة كانت قد اصطادتها بالسهام للتو، ألقت بما في يدها عندهما وهي تقول:

- أوقدا النار ! سنأكل هذه الأرانب الليلة.

ثم هرولت بالحصان نحو شجرة السِدر لتربط لجامه على الجذع، بينما بُثينة تميل إلى آزر وتهمس له:

- انظر أين أوصلنا استهتارك بالأمر .. إنها تتصرف كما الرجال، ولا ينقصها الآن غير أن تعود فتطلب مع العشاء خمرًا وجواري !

استطاع آزر أن يحافظ على وجهه محايدًا؛ ولكنه في الحقيقة كان سعيدًا بما يسمع، فعلى الرغم من أن تصرف قَمر في اقتدائها به على ذلك النحو كان تصرفًا خاطئًا؛ إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يشعر بالسعادة وهو يعلم أن هنالك على الأقل شخصٌ واحدٌ يؤمن فيه ويراه عظيمًا ويقتدي به:

- ماذا تريدين مني أن أصنع ؟

- أريدك أن تكون حذرًا في جميع تصرفاتك أمامها يا آزر؛ فعلى المرء عندما يقتدي به الآخرون أن يبذل نصيبه من الانتباه، فيكون أكثر حذرًا في كل ما يقوله أو يفعله.

في تلك اللحظة يتعالى صوت وقع حوافر خيل تقترب منهما لتظهر قَمر وهي عائدة تحمل في يدها حبلًا معقودًا فيه ثلاث طرائد صغيرة كانت قد اصطادتها بالسهام للتو، ألقت بما في يدها عندهما وهي تقول:

- أوقدا النار ! سنأكل هذه الأرانب الليلة.

ثم هرولت بالحصان نحو شجرة السِدر لتربط لجامه على الجذع، بينما بُثينة تميل إلى آزر وتهمس له:

- انظر أين أوصلنا استهتارك بالأمر .. إنها تتصرف كما الرجال، ولا ينقصها الآن غير أن تعود فتطلب مع العشاء خمرًا وجواري !

قال يُحفف عليها:

- إنكِ تضخمين المسألة يا بُثين.

- أتعتقد ذلك ؟

- نعم، إنها صبية مهذبة وقد أشرفت بنفسي على تأديبها كما تعلمين.

قَمر وهي تقترب منهما:

- إنها ليلة باردة، لا ينقصها إلا بعض الخمر.

التفتت بُثينة نحو آزر وهي تلكزه:

- قل شيئًا !

آزر بنبرة غاضبة:

- ما هذا الكلام يا قَمر ؟!!

ابتسمت بُثينة وهمست تشجعه: هيهِ، هيهِ ..[17]

أكمل آزر يقول:

- إنكِ ما تزالين صغيرة، انتظري إلى بعد عام ثم اطلبي الخمر.

أمسكت بُثينة رأسها لفرط غضبها، وهنا لم يتمالك آزر وقَمر نفسيهما من الضحك؛ إذ إن كلامهما ذاك لم يكن سوى بعض المزاح الذي اعتادا تمثيله أمامها ليضحكا على ردة فعلها ..

---

١٧ (هيهِ) كلمة استزادة من الكلام، يقولها صاحبها ليحث من أمامه على المواصلة.

في تلك الليلة أوقدوا نارًا وقاموا بشي الطرائد، وسهروا على الحكايات والقصص القديمة، ولما كانت مكة تستعد لاستقبال أهم مواسم السنة وهو موسم الحج فإن بُثينة راحت تحكي لهما قصة النبي إبراهيم وبناءه للكعبة، فأصغى الاثنان إليها بكل جوارحهما بينما كانا يأكلان العشاء، حتى إذا وصلت في القصة إلى الجزء الذي فيه يدعو النبي إبراهيم للناس بالحج قالت قَمر:

- لدي سؤال فيما يخص ..

قاطعتها بُثينة قبل أن تكمل:

- لا تتحدثي وأنتِ تمضغين الطعام يا قَمر !

آزر وهو يأكل:

- بُثينة معها حق يا قَمر لا تتحدثي وأنتِ تمضـ ..

قاطعته بُثينة وهي تضربه على رأسه:

- الكلامُ موجهٌ لك أيضًا !

صمت وأكمل طعامه، بينما التفتت بُثينة نحو قَمر وانتظرتها حتى تنتهي من مضغ طعامها وقالت:

- الآن تستطيعين أن تسألي يا عزيزتي.

- كيف أذَّن النبي إبراهيم في الناس بالحج ؟! .. أقصد كيف وصل صوته إليهم وسمعوه ؟!

قالت تُجيبها بما يعرفه أهل الوادي:

- يزعم أهل الكتاب أن الله أمر النبي إبراهيم (أن أذن بالناس في الحج) تساءل حينها النبي إبراهيم قائلًا: (وكيف ينفذ صوتي إليهم ؟)

فأجابه الله حينها:

(عليك النداء، وعلينا البلاغ).

ثم نهضت بُثينة وسارت نحو حافة جبل أبي قُبيس وواصلت حديثها قائلة:

- على هذه البقعة تحديدًا وقف النبي إبراهيم واضعًا إصبعيه في أذنيه مناديًا: (يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه) فتواضعت الجبال وتحركت الرياح بأمر الله؛ وأوصلت صوته إلى كل أقطاب الأرض ليجيء الناس من كل فجٍ عميق ملبين النداء (لبيك، لبيك) .. ويُقال إن صوت ندائه نفذ أيضًا حتى إلى أرحام النساء وأصلاب الرجال؛ وبذلك سوف يظل البشر إلى أن تفنى الأرض ومن عليها يأتون إلى حج بيت الله يلبون النداء في كل عام قائلين (لبيك، لبيك)

سوف تظل قصة النداء هذه راسخة في ذهن قَمر وكأنها أهم رسالة تعلمتها في حياتها حتى الآن، بل وربما تكون أهم ما سوف تتعلمه أبدًا وهو **أن الإنسان مسؤول عن السعي فقط، أما النتيجة فيأتي الله بها كيف ومتى شاء.**

٣

بعد زهاء الأسبوعين من ذلك ومع إشراقة شمس أحد الأيام، بدأت تتصاعد أصوات قادمة من ناحية جبل الطائف لوفود يُنشدون أهازيج الحج بينما قوافلهم تحث خطاها نحو الكعبة قائلين: "لبيك اللهم هُبل، لبيك يَحدونا الأمل، الحمد لك، والشكر لك، والكل لك، يخضع لك، لبيك اللهم هُبل"[١٨]

وراحت قبائل أخرى تأتي من أصقاع الجزيرة العربية وما حولها يحجون إلى البيت المعمور، وكلٌ يُنشد أهازيجه الخاصة .. وما هي إلا أيام بعد ذلك حتى امتلأ الوادي بالخيام؛ فأخذ السادة يتسابقون في ذبح المواشي وإرسال عبيدهم بصِحاف الطعام والماء إلى ضيوف الموسم، فيقدم كل عبدٍ ما لديه من الأعطيات وهو يصيح بين الحُجاج باسم سيده قائلًا هذه أُعطيات سيدي (فلان بن فلان) ليشكره الناس ويرتفع اسمه ومقامه بينهم.

---

١٨ في زمن الجاهلية: كانت لكل قبيلة أُهزوجة للحج خاصة بها، ولكن ربما تكون أكثر القبائل تشترك في هذا الجزء من التَلبية.

وبينما الوادي مزدحمٌ بالحُجاج والقوافل القادمة .. والسادة منشغلون ما بين الاعتناء بمن فيها والاستعداد لاستقبال من سيأتيها، إذ ارتفع صوت بُثينة في الدار قائلة:

- ماذا تفعلين عند الباب يا قَمر ؟

دون أن تلتفت أجابت قَمر التي كانت تختلس النظرات من فُرجة الباب، تفتش بين وجوه الوافدين علّها تعثر على وجه - أو أنف - أبيها:

- لا تَقلقي يا بُثين، سأبقى عند الباب فقط.

بُثينة بلهجة صارمة غير راضية:

- سمعتُ منكِ مثل هذا الكلام في العام الماضي .. ونتيجةً لتصديقي لكِ بقيتُ أنا وآزر حتى مَغيب الشمس نبحث عنكِ بين الخيام والحَجيج حتى عثرنا عليكِ.

التفتت قَمر نحو بُثينة وقالت معترفة:

- لقد سمعتُ أهازيج الوفود اليمنية .. ومن المرجح أن يكون والدي قد جاء معهم .. فذريني بالله عليكِ أذهب إلى عمي الحارث في دار الندوة فأسأله عن والدي؛ فهو صاحبه المقرب كما تعلمين ولا بد أنه أول من سيعرف بقدومه.

- الحق أقول لكِ: سوف يَغضبُ منكِ آزر، لو عرف أنكِ خرجتِ في هذا الزحام.

قَمر:

- لن أتأخر، ولن يغضب آزر إذا ما عرف أنني عدت بسرعة!

- لن أقبل منكِ كلمة واحدة؛ فعودي إلى حجرتك الآن، قبل أن ترَي مني تصرفًا آخر.

طأطأت قَمر برأسها وراحت تسير بخطوات مثقلة نحو حجرتها، ولكنها سمعت صوتًا انبعث من عند باب الدار تلك اللحظة زرع الابتسامة على وجهها، كان الصوت يقول:

- لا تدعيها تدخل حجرتها يا بُثينة؛ فوالدها جاء من اليمن لأجلها.

التفتت قَمر نحو الباب لتشاهد الأنف الكبير يعبر من خلف باب الدار قبل أن ترى وجه صاحبه، فركضت نحو والدها لتعانقه، بينما بُثينة تقف وترحب به:

- حللت في دارك أهلًا يا سيدي يا عامر.

طال عناقه بابنته فترة تَليق بغيابه عنها لمدة خمسة أعوام؛

ثم لاحظ عليها أمرًا أثار فضوله وهو السيف المعلَّق على خصرها؛

إنه يذكر أن آزر قد بعث إليه برسالة قبل عام ونصف يخبره فيها أنه يستعد لتدريبها على المبارزة، ولكنه لم يتوقع أن يعود فيجدها تتمنطق بالسيف وهي في دارها:

- لم هذا السيف يا ابنتي؟!

- إنها الحاجة يا أبتي.

- أي حاجة هذه التي تدفع فتاة بمثل عمرك إلى تَعليق السيف على خصرها وهي آمنة في دارها ؟!

- لقد كُتب علينا أن نسكن مكة، وقد كُتب على أهل مكة وسادتها أن يخدموا حَجيج البيت المعمور .. وإن أرضنا اليوم لتحتشد بالضيوف يا أبتي، وهم في حِمانا وجوارنا؛ فنخدمهم ونحميهم؛ ولذلك أعلق سيفي على خصري حتى تصله يدي عند الحاجة.

كانت تلك عادة شبان مكة في مواسم الحج؛

حيث كانوا يتوشحون السيوف أينما حلوا لحماية الحَجيج متى ما دعت الحاجة:

- بخٍ بخ؛ وحق هُبل إنكِ خير ما يُرزق به أب ..[19]

يدرك عامر أن تصرف ابنته ذاك نابع من احتكاكها بآزر والاقتداء به؛ فقال وكأنه تذكر السؤال عنه:

- بالمناسبة، أين آزر ؟

- إنه عند الكعبة يا سيدي - قالت بُثينة - أأُرسل في طلبه ؟

- لا عليكِ، سأذهب لأراه بنفسي، ثم أعود لاحقًا لأمكث عندكم.

**

19 كلمة " بخٍ بخ " في اللغة العربية تستخدم للتعبير عن المدح والإعجاب والرضا بالشيء.

عند الكعبة ووسط حشود الحُجاج كان آزر يوزع الدقيق والتمر وقِطع اللحم هاتفًا بصوت جهوريٍ: هذه أُعطيات سيدٍ من سادة البطحاء، هلموا إلى أُعطيات السيد عامر بن لُكيز، وادعوا له ولآل بيته بالخير والبركة!

أشرق وجه عامر وهو يرى آزر على ذلك المنظر ومكث يتأمله بحب وإعجاب وفخر وكأنه يلمح فيه ابنه الذي لطالما تمنى من إلهه هُبل أن يرزقه بمثله، وفي تلك اللحظات - وعامر يتأمله - ما كان يدري بأنه كان يتأمله للمرة الأخيرة،

فالعاصفة لا تأتي إلا بعد هدوء يُشبه الهدوء الذي هُم فيه.

**

(الأمير مَرحب)

سارت الأمور بشكل سلس في الأيام القادمة؛ وبدا أن الموسم سوف يُكلل بالنجاح لولا تلك الصرخة التي قلبت الموازين رأسًا على عقب؛ فبينما الناس منغمسون في أداء مناسك حجهم من طواف حول الكعبة والسجود وتقديم القرابين للأصنام إذ سمعوا صرخة انبعثت من داخل أكبر خيمة في الوفود اليمنية، ليخرج بعدها الأمير مَرحب باديًا على ملامحه أمارات السخط والغضب وهو يصرخ قائلًا:

- بئس قومٌ يُسرق ضيفهم وهو في ديارهم ! !

سرعان ما انتشرت تلك الجملة بين وفود الحج واجتمع لأجلها السادة ينظرون في المسألة، اقترب منه أولًا صاحب الطريق عامر بن لُكيز وهو يستوضح قائلًا:

- ما الذي سُرق منك أيها الأمير ؟

- سُرق الخاتم يا عامر !

كان الحارث بن الأجهر قد وصل لتوه على أثر الصيحة والجلبة، فاقترب منهما وهو يقول في ملامة:

- أصلحتك الآلهة أيها الأمير؛ أكل هذا من أجل خاتم سُرق ؟ نعوضك بعشرة خواتم فتضع في كل إصبعٍ خاتمًا.

رمقه الأمير بنظرة غاضبة، بينما قال عامر يوضح له أهمية ذلك الخاتم:

- هذا ليس خاتمًا عاديًا أيها الحارث، بل هو خاتم أعطاه إياه التُبع اليماني وهو لا يُعطى إلا لأمراء مملكته.

هنا أدرك الحارث فورًا خطورة المسألة؛ فخاتم مثل ذاك يعد رمزًا ملكيًا، وسرقته قد تُغضب التُبع اليماني ما قد يؤدي إلى قطع التجارة بين مكة واليمن:

- أتشتبه بأحد أيها الأمير ؟!

- لا؛ فلا أحد مُصرح له بدخول خيمتي إلا المقربين مني، وأنا لا أشك

هنا انبعث صوتٌ من حاشية الأمير، كان لرجل متقدم في العمر يقول:

- لقد رأيت السارق بعيني.

التفت الأمير مَرحب نحوه:

- من هو أيها العم أحنف ؟!

- شابٌ حدث السن كان يُغطي وجهه بلُثام.

هنا قال الحارث بن الأجهر وهو يشعر بخيبة الأمل:

- وكيف سنعرفه طالما أنه كان يغطي وجهه باللُثام ؟!

أجابه العم أحنف:

- لقد رأيت عينيه من فوق اللثام؛ إنهما مميزتان ولا يمكن أن أُخطئهما حتى ولو كانتا وسط جيش من العيون، فاحشدوا لي الشبان أستخرج السارق من بينهم.

**

(السارق)

قام السادة بجمع الشبان - ليس شبان مكة فحسب - بل حتى الشبان الذين جاؤوا للحج، حشدوهم جميعًا في صف طويل .. وراح العم أحنف يطوف بينهم متأملًا محاجر العيون وأشكالها ويقارنها بعيني السارق حتى وجد أخيرًا ما كان يبحث عنه:

- هذا - قال وهو يُشير بالسبَّابة نحو الشاب - هذا هو السارق.

وما إن وجد آزر نفسه هو الشخص المتهم بالسرقة حتى خرج عن صمته وقال بنبرة ثائرة:

- أبعد إصبعك عني، وإلا قطعته لك وألقمتكَ إياه.

تدخل الأمير مَرحب وقد ساءه أن يسمع من يهين أحدًا في حاشيته بتلك الطريقة.

- تأدب أيها الفتى في حضرة السادة.

التفت آزر بعينيه الحادتين ونظر مباشرة إلى عيني الأمير وقال:

- لا سيد لي، ولم يُقطع لساني بعد ليتهمني أحدهم بالسرقة وأصمت.

ظن الأمير مَرحب للحظة أن ذلك الفتى قد يكون من أبناء السادة؛ وهذا ما يفسر شجاعته وعدم مبالاته؛ فقال يسأله حتى لا يتهور فيقتل صبيًا ذا نسب:

- انتسب يا غلام.

ربما لو كان أحدٌ غير آزر لكان قد اختار تلك اللحظة أن ينسب نفسه لأحد السادة - حتى ولو كذبًا - فيدخل بذلك في جواره ويأمن على نفسه من غضب الأمير، ولكنه كان يُفضل أن تُقطع عُنقه ولا أن ينسب نفسه لقبيلة ليس منها:

- اسمي آزر.

ما إن اكتفى باسمه مجردًا من النسب؛ حتى أدرك الأمير بألَّا قبيلة للفتى ستطالب بدمه؛ وهذا ما جعله يتجاسر أكثر على عقابه أمام الناس فيكون لهم عِظة وعِبرة؛ فقال وهو يُمسك مقبض سيفه هامًا بإخراجه من غِمده:

- سأقطع لسانك إذًا؛ حتى تعرف كيف تحترم أسيادك في المرة القادمة.

صاح آزر عليه متوعدًا، غاضبًا، مهددًا:

- تالله لإن أخرجت سيفك من غِمده، فلا يعودن إلا بعد أن يُقطع به رأسك.

تلك الجملة التهديدية هي ما جعلت الأمير مَرحب وحاشيته يستشيطون غضبًا ويصرون على قتله .. تدخل عامر بن لُكيز ليحتوي غضب صاحبه الأمير:

- على رِسلك أيها الأمير، فإن طغى على الولد شيءٌ من الطيش فازت حكمتك وعدالتك - وأضاف بلهجة راجية: ثم إنه ليس من الحكمة أن تدع العرب يقولون بأن الأمير هو من أفسد عليهم حج هذا العام؛ فيصل خبر هذا إلى التُبع فيغضب منك.

صاح الأمير:

- غضب التُبع سيكون أكبر إن عرف أن أحد رعاياه قد سُرق وأُهين بين ظهرانيكم؛ دعني أقتله فواللات والعُزى إن هذا الصبي قد ألحق بأهل الوادي عارٌ لا يُمحى إلا بدمه.

- كيف تُريق دمه ولم يَثبت أنه السارق بعد.

تعاظم غضب الأمير مَرحب وقال ينهره:

- ويحك يا عامر، أتكذب معاوني العم أحنف الذي أأتمنه على نفسي ومالي وأهلي ؟!

هنا تدخل الحارث بينهما يقول:

- حاشى لله يا أمير؛ فعامر لا يقصد أن يُشكك في نزاهة أحد ولكن معاونك أحنف قال بأنه لم يرَ من السارق إلا عينيه؛ وبهذا ربما يكون الأمر قد التبس عليه واختار الشخص الخطأ.

على الرغم من كرههم لآزر إلا أن الموقف كان يستدعي منهم أن التدخل السريع لإنهاء الأزمة التي قد تُفسد عليهم حج هذا العام؛ وقد نجح الحارث بكلامه في تهدئة الوضع قليلًا؛ ما جعل الأمير يقول مقتنعًا:

- وما الرأي لنتحقق من المسألة ؟

تدخل العم أحنف مقترحًا:

- أرى أن نُرسل من يفتش مَتاع الفتى، وأن نكون شهودًا على الأمر؛ فإما أن نجد خاتمك في متاعه فنعاقبه، أو لا نجده فنُطلق سراحه؛ وهكذا لا نَظلم ولا نُظلم.

الأمير مَرحب مستحسنًا ذلك المقترح:

- لعمري إنها نِعم المشورة - وأردف وهو يَلتفت: فما يرى السادة في هذا الرأي ؟

- رأيٌ حسن - قال الحارث وأردف: لنذهب ونفتش متاعه.

**

سار الجميع نحو دار عامر،

ولكنهم ما إن وصلوا عند باب الدار حتى أوقفهم آزر الذي لم تُنسه تلك المصيبة أمانته لسيده:

- إن للدار حُرمتها ولا ينبغي أن يدخل الجمع كُلهم؛ فانتخبوا من شئتم يدخل الدار ليفتش متاعي؛ شريطة أن يكون سيدي عامر بن لُكيز مع من تنتخبون.

وعلى الرغم من سخط الأمير مَرحب عليه، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يقول منصفًا:

- صدق الفتى والله وبرَّ سيده .. فليدخل معاوني للتفتيش عن خاتمي يصحبه عامر بن لُكيز، بينما ننتظر نحن هنا ريثما يأتينا الأمر والخبر.

**

(التفتيش عن الخاتم)

وقف عامر عند باب الحُجرة دون تدخُّل،

بينما انطلق أحنف يفتش المتاع بكل حرص ودقة، ولم يتوقف عن التفتيش إلا حين اصطدمت أصابعه بجسم معدني بين متاع آزر؛ فارتسمت على وجهه شبح ابتسامة منتصرة.

وبينما الجميع في الخارج ينتظرون الأخبار، إذ بباب الدار يُفتح ليخرج منه عامر مطأطأ الرأس، يتبعه العم أحنف وهو يُمسك بين إصبعيه خاتم عقيق أسود منقوش عليه هذه العبارة (مَرحب خليل تُبع آل جِمير) رفع الخاتم عاليًا ليراه الجميع وصاح يهتف:

- لقد كذب الفتى، وحُقت عليه العقوبة !

صمت آزر؛ بعد أن ألجمت المفاجأة لسانه وصاح الأمير على رجال حاشيته:

- اقبضوا عليه !

من اليمين واليسار اندفع فوج من رجال الحاشية ينفذون الأمر،

وهنا سرعان ما تخلص آزر من حالة الصدمة التي كان فيها وأخرج السيف من غِمده .. وراح يُسقط كل رجل يقترب من محيط دائرته وفي رأسه تتردد كلمات معلمته العامرية حين قالت له: " **ولكننا سنعمل في الوقت القادم على أن نجعلك الذئب الذي يرى في عدوه مهما بلغ حجمه وقوته، فريسة ينقض عليها فيصطادها** " لقد أسقط آزر الكثير دون أن يقتل أحدًا منهم، إذ كان فقط يكتفي بأن يجردهم من أسلحتهم ويُسدد إليهم ضربات موجعة تُمددهم أرضًا.

وبينما هو يقاتل إذ انضمت إليه الذئبة التي لمع فروها الأسود تحت شمس الأصيل، وقد راحت تهاجم كل من يقترب منه .. وقد انشغل آزر بالدفاع عنها والتأكد من أن أحدًا لن يغدرها بسهم أو رمح؛ وهذا ما شتت تركيزه قليلًا وأبطأ حركته.

استغل أحد رجال الحاشية ذلك التشتت الذي أصاب آزر؛

فهجم عليه من الخلف بضربة أسقطته أرضًا، لتسارع حواء بمحاوطته جاعلة من جسدها حصنًا لحمايته .. هنا أدرك الأمير مَرحب على الفور أن فرصته قد حانت لإنهاء المعركة، فسدد طعنة في ظهر حواء أنفذها بالخنجر بين عظامها جعلتها تُطلق أنّة ألم تشي بمدى تمكن الطعنة منها، ثم انحنى عليها برشاقة واضعًا حد الخنجر على عُنقها وقد هم بنحرها لولا أن أتاه صوت آزر المتوسل يقول:

- دعها وسآتي معك، لا أخالفك أبدًا !

لم يتزحزح الأمير مَرحب من مكانه إذ ظل ينظر بصرامة نحو آزر وخنجره ما يزال مثبتًا على عُنق الذئبة حواء المتألمة .. فعاد آزر يتوسله بصوتٍ خاضع:

- ناشدتك بكل ما هو مقدس لديكِ أن تُطلقها.

- من سيدك يا غلام ؟

ولما طال صمت آزر قليلًا عاد الأمير يسأل وهو يضغط بالخنجر على عُنق الذئبة أكثر:

- من سيدك يا غلام ؟

لم يكن لينطقها حتى لو كان ذلك الخنجر مثبتًا على عنقه، ولكنه مستعد لفعل أي شيء في الحياة ولا يخسر الشيء الوحيد الذي يُمثل له العائلة:

- اتركها، وأنت سيدي.

هنا رفع الأمير مَرحب خنجره عن عنق الذئبة وقال يأمر رجاله:

- قيدوا الفتى، وسوقوه إلى حيث أذهب.

قام رجال الحاشية بتقييد آزر بالحبال وأخذوه إلى حيث سار الأمير مَرحب متجهًا ناحية الكعبة .. كان آزر يسير مُقيدًا وهو ينظر من فوق كتفه إلى الخلف ناحية حواء، يعلم أن جرحها خطير وأنها سوف تموت لو أن أحدًا لم يعتنِ بها .. كان بوسعه أن يدعو هُبل أو اللات أو العُزى طلبًا للمساعدة كما يفعل بني قومه عندما يرغبون بتدخل العناية الإلهية، ولكن آزر تجاهل كل تلك الآلهة ودعا رب إبراهيم في قلبه، دعاه أن يُرسل إلى حواء من يعتني بجرحها فلا تفارق الحياة .. أكمل آزر السير معهم وشعور يُشبه اليقين يخالط قلبه، يخبره بأن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

**

كانت دموعها - دموع الذئبة حواء - تحتشد في عينيها وهي تنظر إليهم بينما كانوا يقتادونه بعيدًا .. وقد ذكرها هذا المشهد بما حدث قبل سنين طويلة عندما قام بنو البشر بإصابة جروها أمام عينيها بالسهم لمجرد التسلية؛ فحاوطته حتى لفظ آخر أنفاسه في حضنها؛ استجمعت حواء قوتها وحاولت أن تنهض لتلحق بهم فتمنعهم من أخذ آزر عنها، ولكن جرحها أسقطها أرضًا مانعًا إياها من الحركة.

عند تلك اللحظة وبينما هي ممددة أرضًا،

سمعت وقع خطوات شخصٍ غريب يقترب منها .. ورغم أنها لا تقوى على الحركة إلا أنها أصدرت صوتًا مزمجرًا وكأنها بذلك غريزيًا كانت تحاول إخافة الغريب القادم ..

وضع الغريب يده على رأس الذئبة بحنو ولُطف ثم همس قائلًا:

– لقد اعتنيتِ بطفل أختي حين كانَ رَضيعًا، وحان الوقت لأرد لكِ الجميل.

٤

جبل الصّفا

اعتلى الأمير مَرحب جبل الصّفا وإلى جواره يقف معاونه العم أحنف ممسكًا بآزر المقيدة أطرافه بالحبال:

– هلموا إليَّ يا أهل الحج – قال يصيح – هلموا إلي يا أهل الحج !

وما إن اجتمع حوله الناس حتى راح يقول:

– لقد أتيتُ إلى هذا الموسم ضيفًا؛ فهل من إكرام الضيف أن يُسرق ؟!

هتف الناس قائلين:

– لا ورب الكعبة، ليس هذا من الإكرام في شيء.

– فاشهدوا إذًا أن هذا الغلام قد سرق خاتمي .. وإن سرقة الضيف لهي من مَثالب الأمور ومن أبواب الخيانة .. وإن هذا لعار يُعلق في أعناق الرجال لا يغسله إلا الدم – ثم أضاف وهو يستلُّ سيفه من غِمده:

– وإني لغاسله !!

من بين الحشود كانت هنالك فتاة صغيرة تنظر نحو آزر بحرقة والدموع تُبلل وجنتيها، كانت تتمنى لو أن بوسعها أن تمتشق سيفها وتدافع عنه ولكن الموقف كان يتجاوز حدود قدرتها .. ورغم الحشود الملتفة حول آزر إلا إنه استطاع أن يلمح وجهها المضيء كالقمر من بين وجوه الناس فتتحرك شفاهه تلقائيًا:

"وداعًا قَمر"

لم تكن تُحبه فقط بل كانت متعلقة به وكأنما قلبها لا يَطمئن إلا بوجوده؛ لذلك لم تحتمل الفتاة ذات التسعة أعوام مشاهدة اقتراب موته؛ فسقطت مغشيًا عليها؛ ليسارع والدها عامر بحملها والابتعاد بها من هناك حتى لا تَفيق بعد قليل على مَشهد رؤية رأس آزر مفصولة عن جسده. رفع الأمير سيفه عاليًا ولكن قبل أن يهوي به على عُنق آزر، راحت صفوف الحشود بالتباعد مفسحة الطريق لرهط من الرجال انبعثت من مقدمته صيحة لرجل يقول:

- توقف يا مَرحب ! !

التفت الأمير صوب المكان الذي أتت منه الصيحة؛ يريد أن يرى من تجرأ وناداه مجردًا من لقبه؛ فشاهد لفيفًا من السادة والذين كانوا يشاهدون المنظر منذ البداية وقد تركوه - تركوا الأمير - حتى يُفرغ غضبه، ولكنهم لم يتخيلوا أن يصل به الحال حد أن يقرر معاقبة السارق بالقتل؛ فصاح عليه الحارث آمرًا:

- أغمد سيفك يا مرحب، فما هكذا تورد الإبل ! !

صحيح أن وجود ذلك الفتى كان ثقيلًا على أهل الوادي بشكل عام والسادة بشكل خاص، الجميع يرغب في إقصائه والتخلص منه ولكن ليس بتلك الطريقة التي تُقلل من شأنهم بين العرب وتصيب سيادتهم في مقتل وهذا ما جعل الحارث يُنذر الأمير:

- هذا الفتى في حِمانا، ولن يقتله أحد.

هنا اشتعلت أعماق الأمير مَرحب بالغضب وهو يستمع لتلك الجملة التي تخالف رغبته؛ فالحارث وإن علت مكانته بين العرب إلا أنه يظل بسيد قبيلة بينما هو يُعد أميرًا لدى التُبع اليماني وهذا ما دفعه ليقول متحديًا:

- بل أقتله ولا أُبالي.

ردَّ الحارث:

- لئن قتلته فلا تبرحن هذا المكان حيًا.

لم تذهب المخيلة لدى الأمير مَرحب أن يسمع ذلك الوعيد يومًا من أحد وهو من هو في المنصب والشأن والمكانة؛ فقال مهددًا:

- تالله لئن مسني منكم الأذى؛ ليُرسلن إليكم التُبع اليماني جيشًا يكون رأسه في الحجاز وذيله في اليمن .. فلا يُبقي فيكم يا آل مكة كهلًا ولا فتى.

رد الحارث غير مبالٍ:

- تالله لئن يُصيبنا الهلاك فنفنى كلنا عن بكرة أبينا، لهو أهون عندنا من أن تعيرنا العرب فتقول بأننا لم نَحمِ واحدًا منا.

هنا أدرك الأمير أن القوم عازمون على ما قالوا وأن مكانته ومكانة عرش سيده لن تحميه من العقاب إن سَفك دم الصبي أمامهم، ورغم ذلك كان عليه ألَّا يتراجع عن موقفه؛ خاصة بعد أن استنصر أمام الناس بعرش التُبع ومقامه، تراجعه الآن سوف يكون إساءة تُلصق بوجه التُبع .. وفي الجهة المقابلة لن يتراجع السادة عن موقفهم قَيد أُنملة حتى لو كان في ذلك فناؤهم؛ فهم لن يقبلوا أن تُعيرهم العرب بأنهم لم يستطيعوا حماية أحد أبنائهم حتى وإن كان لقيطًا غير ذي نسب؛ لذلك كان على أحدٍ أن يضع حدًّا لهذا الأمر قبل أن يتفاقم وتشتعل الحرب بين مكة واليمن؛ وهنا قال آزر مفتديًا قومه بنفسه:

- أذهبُ طائعًا مع الأمير، وأكون تحت خدمته.

ارتسمت أمارات الامتنان على كلا الفريقين؛ وقد أعطاهم آزر بكلامه ذاك مخرجًا يحفظون به ماء الوجه، وأردف وقد حثته فطنته على أن يُضيف هذا الشرط:

- أذهبُ طائعًا معه على أن يتعهد بحفظ دمي.

التفت الحارث نحو الأمير ليسأله:

- أترضى بشرطه ؟

واضعًا يده على صدره قال الأمير:

- لكم عهدي وذمتي على ألَّا أهدر دم هذا الفتى.

وما إن تعهد الأمير بتنفيذ ذلك الشرط حتى استتبت الأمور؛ فانصرف السادة وعاد الناس لأداء مناسك حجهم بينما غادرت قافلة الأمير من وادي مكة عند المساء وقد اقتادوا معهم آزر داخل قفص فوق عربة يجرها حصان، لم يكن الفتى حينها يفكر بمصيره أو بما سوف يحدث له في قادم الأيام بل كان يفكر بأمر واحد فقط وهو: المصير الذي آلت إليه حواء، بعد تلقيها تلك الطعنة الخطيرة، هل ماتت متأثرة بجرحها أم أن رب إبراهيم قد أرسل إليها من يُنقذها ؟!

٥

فوق قِمة جبل أبي قُبيس جلست قَمر صامتة واجمة، ترسل نظراتها إلى الوادي الذي بدا حزينًا على فِراق فتاه، وبينما هي كذلك إذ انبعث صوتٌ من خلفها يقول:

- إنه مُصر؛ لقد أقسم ألَّا يسافر حتى يراكِ يا قَمر.

- وأنا لا أريد أن أراه يا بُثينة، اطلبي منه أن يرحل.

- وماذا عساني أن أقول له ؟

- قولي له إنني لا أرغب في رؤيته

جاء صوتٌ ثالثٌ من ورائهما، هو صوتُ عامر قائلًا:

- وأهون عليكِ يا ابنتي ؟

- كما هان عليكَ آزر يا أبي.

- مهٍ يا قَمر - قالت بُثينة توبخها - أهكذا تخاطب الفتاة أباها ؟!

- دعيها تكمل - قال عامر وأضاف وهو ينظر نحو ابنته: أكملي ..

أكملت قمر تقول في ملامة:

- لقد كان سادة البطحاء أشجع منك عندما أبت عليهم نفوسهم وحميتهم أن يُقتل واحدٌ منهم وهم يَنظرون، بينما منعك جُبنك أن تنتصر لمن له حقٌ عليك؛ فهو الذي أنقذك ذات مرة من غدر عاملك سُراقة بن ذيل الناقة وهو الذي حفظ بيتك ومالك وصان عرضك في غيابك، ثم يكون ردك لجميله هو أن تتركه لمصيره دون مساعدة.

كان يدرك أن كلامها هو الحقيقة المرة، ومع ذلك لم يمنع نفسه من التبرير:

- ما الذي كنتِ تنتظرينه مني يا ابنتي ؟! - قالها بانكسار - وحق هُبل لو أن أحدًا مس الأمير مَرحب بسوء .. فلن ينجو الوادي ومن فيه من سخط التُبع اليماني.

- إن الشجاع يموت مرة واحدة، أما الجبان فيموت عدة مرات قبل أن يُصيبه أجله.

أمسك عامر وجهها الحلو بين يديه، ثم نظر عميقًا إلى عينيها الغارقتين بالدموع أسفل ضوء بدر تلك الليلة، وقرأ بين دموعها جُملة لم يَنطق لسانها بها:

(ليتك لم تأتِ، وليتني لم أرك.)

ورغم ذاك إلا أن عامر يُدرك بأن هنالك قلبًا زاخرًا بالحب ينبض في صدرها؛ فعانقها معتذرًا متسلحًا بكونه والدها؛ فلم تَملك قَمر إلا أن تُطوقه بذراعيها وهي تبكي في حضنه.

**

سارت بُثينة مع سيدها عامر إلى سفح الجبل تودعه، وهناك أحنت رأسها في أسف وهي تقول:

- أعتذر لك عما بدر من قَمر، إنها لا تقصد الإساءة يا سيدي عامر.

- لقد أحسنتِ تربيتها، فوحق هُبل ما جاوز كلامها الحق قيد أُنملة.

كان هنالك شيء يشغل بالها فقالت تكشف عنه:

- ألن تستطيع التدخل بشأن آزر يا سيدي.

- لقد افتدى نفسه؛ وهذا يعني أنه الآن بمثابة الخادم عند الأمير مَرحب، فلا يستطيع أحد أن يُطلق سراحه غير الأمير نفسه، وكل ما أستطيع فعله له فقط هو أن أنقل رسالته إلى صاحبه قَيس.

- وما هي الرسالة ؟

- لقد أوصاه بضبط النفس، وعدم التدخل.

كان آزر يدرك أن صاحبه قَيس لن يقف مكتوف الأيدي حين يعلم بما حدث؛ ولذلك فقد أوصاه بعدم التدخل وإقحام نفسه في هذا الشأن، وأن عصيانه لهذه الوصية تعني فراقًا أبديًا بينهما.

**

عادت بُثينة تجلس إلى جوار قَمر فوق قمة الجبل وأخذتا تُشيّعان القافلة المتجهة نحو اليمن:

– ألا تعتقدين أنك قسوتِ على والدك ؟

– أخبرتك أني لا أريد أن أراه؛ حتى لا يسمع مني ما لا يُطيق.

– مهما يكن يا قَمر؛ فما كان ينبغي عليك أن تقولي له مثل ذلك الكلام؛ فهو متألم أيضًا لما حدث لآزر.

– بل هو مثل سائر السادة؛ يرى أنه بربري لا قيمة لحياته.

– هُنا تُخطئين؛ ألم تري كيف فعل السادة ؟! لقد كانوا جادين في الدفاع عنه يوم أمس.

– بل هُنا أنتِ تُخطئين؛ لقد دافع السادة عن سمعتهم أمام القبائل وليس عن آزر، فلو لم يكن هذا موسم الحج والناس شُهود عليهم لتركوه يُقتل.

– أيًا كانت الأسباب؛ فقد منعوا سفك دمه وهذا المهم.

– يبدو أنكِ لا تختلفين عنهم كثيرًا؛ فأنتِ أيضًا تُبررين ما يحدث.

قالت ذلك ثم نهضت من مكانها وسارت ولكنها قبل أن تبتعد استوقفتها بُثينة قائلة:

– أتعلمين لماذا تَعمد بعض الأشجار إلى قذف ثمارها بعيدًا عن ظِلها وتعريضها للشمس ؟!

كان سؤالًا غريبًا في توقيت أغرب؛ مما دفع قَمر لأن تلتفت نحو بُثينة التي واصلت تقول:

- إن الثِمار التي تسقط على الظل تَفسد مع الوقت وتتعفن ولا يُستفاد منها؛ لذلك طورت بعض الأشجار فكرة بديعة لكي تستفيد من ثمارها وذلك بأن تَقذفها - تقذف الثِمار - بعيدًا عن ظِلها لتقوم الشمس بإحراق قشرتها الخارجية فتنغرس نواتها أسفل التربة وتصبح مع الوقت شجرة مُثمرة؛ وهذا بالضبط ما حدث مع آزر؛ لقد قذفته مكة بعيدًا عن ظلالها قذفته في الشمس لتحرق قشرته الخارجية وتُخرج معدنه الحقيقي.

- وهل كان كل هذا ضروريًا ؟

- نعم؛ فالأولاد تلدهم أمهاتهم، ولكن الرجال تَلدهم الظروف الصعبة.

عادت قَمر تجلس حيث كانت إلى جوار بُثينة وتقول:

- وهل سيعود يومًا يا بُثينة ؟

- لقد ظُلم آزر يا قَمر .. وتلوثت سُمعته بين القبائل .. وإن ذرف الدموع على فراقه الآن ليس دليلًا على حُبنا له .. إذا كنا نُحبه بالفعل فيجب أن نؤمن بعودته، ونعمل على أن يعود إلى واقع مختلف تتغير فيه نظرة الناس إليه.

في الحقيقة لقد أشعلت بُثينة بكلامها ذاك شمعة أضاءت عقل قَمر بفكرة خطيرة، نعم إنها يجب أن تؤمن بعودته وتبدأ العمل منذ الآن من أجل أن يعود إلى واقع مختلف، تتغير فيه نظرة الناس إليه.

٦

وصل الأمير مَرحب بموكبه إلى إقليم تُهامة السوداء، الإقليم الذي يحكمه باسم التُبع اليماني، واصل بموكبه المسير وسط ترحيب الناس واحتفائهم بعودته حتى توقفت القافلة عند أعتاب القصر؛ فترجل معاونه أحنف عن جواده وسار نحو الأمير ليسأله:

- ماذا بشأن الفتى المكي يا سيدي، أأنت جاد بمسألة عدم قتله ؟

- لقد تعهدتُ بحفظ دمه أمام العرب، أتعتقد أنني أُخلف عهدي ؟

- ماذا ستصنع به إذًا ؟

- سأقتله.

كان ذلك أسرع تناقض يسمع به المعاون في حياته:

- ألم تقل إنك تلزم عهدك بعدم قتله ؟

- وما زلتُ عند كلامي.

- أوضح بالله عليك.

- سأقتله بطريقة تجعل موته يبدو وكأنه طبيعي لكي لا يَلومني أحد على ذلك، وحتى ينجح هذا الأمر سنؤجل قتله إلى حين أن ينساه بنو قومه.

- وماذا نصنع به إلى أن يجيء ذلك الوقت ؟!

- نحبسه في سجن الجبل.

**

(النِزال)

كان السجن الذي اقتاده الحرس إليه عبارة عن فجوة صخرية صماء داخل عُمق الجبل لها باب غليظ ونافذة صغيرة مُغلقة بقضبان حديدية تُطل على واد سحيق.

تكوم آزر حول نفسه في الزاوية وحيدًا،

وحيدًا تُحيط به الفئران والسحالي وتتسلقه الحشرات الزاحفة،

بدأت الأيام عليه بالتوالي يومًا بعد يوم؛ فتشرق شمس النهار عليه وتغرب ويُنير القمر عليه عتمة ليلة ويغيب دون أن ينتبه على شيء أو يكترث لمرور الوقت؛ لقد اختبر ذلك الفتى في حياته مشاعر سيئة كثيرة ولكن الظُلم كان له مذاق يقف المرء أمامه عاجزًا عن وصفه، مثل شاعرٍ أبكم يحاول أن يتلو قصيدته أمام جمهور أصمّ.

وفي إحدى الليالي الباردة لجنوب الجزيرة العربية، وبينما هو ما يزال متكومًا حول نفسه كعادته كل ليلة إذ به يسمع صوتًا ثقيلًا ينبعث من مكان مجهول يقول:

- نِعم الفتى أنت يا آزر.

تلفت حول نفسه ليبحث عن مصدر الصوت وعندما لم يجد أحدًا قال:

- من أنت ؟

تعالى صوت ضحكة خفيفة لصاحب الصوت وهو يقول:

- لا تخف؛ فأنا لستُ من الجن؛ إنما أنا سجين مثلك في الكهف المجاور لك .. اسمي هو (ليث بن غامد السيف) وصوتي يأتيك من خلف الجدار.

- وكيف تعرف اسمي ؟

- سمعت حرّاس السجن الليلة يتحدثون عنك وعن قصتك وما فعلته بالأمير في موسم الحج - وأضاف بنبرة معجبة: أحقًا أنك صرخت في وجه الأمير مَرحب قائلًا " أغمد سيفك وإلا قطعت به رأسك ؟! "

لم يُجب آزر ولازم الصمت فتنهد ليث من خلف الحائط وهو يقول بنبرة متحسرة:

- ليتك فعلتها أيها المكي، ليتك فعلتها وقطعت رأس الأفعى.

- ليتك تفعلها أنت وتسكت.

لم يصمت صاحب الصوت؛ وكأن مدة سجنه الطويلة فاقمت رغبته بالحديث:

- أصحيح ما يُقال بأنك وأدت حرب قومك وافتديتهم بنفسك، وقلت بأنك تذهب مع الأمير طائعًا ؟

تضجر آزر من كثرة الكلام ونهض من مكانه، وقد همَّ بالانتقال نحو الجهة الأخرى من السجن ليبتعد عن مصدر الصوت، ولكنه ما كاد يبتعد خطوتين حتى سمع صاحب الصوت يقول له من خلف الحائط:

- أنا أعلم أنك بريء من سرقة خاتم الأمير.

لقد نجحت تلك العبارة في إثارة اهتمامه، فاستدار ناحية الحائط وهو يقول:

- وما أدراك ؟

- لقد اخترت أن تذهب طواعية مع الأمير مَرحب وتحقن دماء قومك، وهذا لعَمري فعل نبيل لا يأتي به سارق أو محتال.

ولأول مرة منذ أسابيع يبتسم آزر وقد رفع أحدهم عنه تُهمة الظلم وصدق أنه بريء، هذا الشيء هو ما جعله يشعر بأُلفة غريبة تجاه ليث وقد فُتحت شهيته للحديث؛ فعاد يجلس إلى جوار الحائط ويقول:

- ما هي قصتك يا ليث ؟

ليث ممازحًا:

- إنها قصة طويلة، وأخشى أن أعطلك عن أشغالك بسماعها.

ابتسم آزر من وراء الحائط وهو يقول:

لا عليك؛ فقد أنهيت واجباتي اليومية وأجلتُ ما تبقى من عمل الى يوم الغد.

ورغم أن ما قيل لم يكن مضحكًا إلا أن ليث ضحك من قلبه؛ فقد قضى ذلك الرجل المسن أعوامًا طويلة في حبسه وحيدًا، لا صاحب له إلا الحيطان والفئران والسحالي وهو الآن بالكاد يصدق أن هنالك إنسانًا يبادله الحديث:

- اسمع قصتي إذًا يا صاحب السجن ..

**

(ليث بن غامد السيف)

بدأ الصوت يتحدث من خلف الحائط:

- قبل أعوام طويلة ثارت بين قبائل الجنوب صراعات داخلية لأسباب تتعلق بشؤون الحكم ومناطق النفوذ والصيد .. وقد أدت تلك الصِراعات لاشتعال المنطقة بأكملها؛ فحشدت كل قبيلة من الجنوب جيشها والتقوا في ساحة الحرب .. ولكن عند تلك اللحظة وقبل أن تشتبك الجيوش بعضها ببعض اخترق الصفوف شيخ استطاع بحكمته أن يجد حلولًا ترضي جميع الأطراف المتنازعة وتمنع اندلاع الحرب، فغَمد سيوف المتحاربين وحقن دمائهم؛ ولأجل هذا أطلقوا عليه اسم (**غامد السيف**) وهذا هو والدي يا آزر.

بعد تلك الواقعة أصبح غامد السيف أميرًا على قبائل جنوب الجزيرة العربية، ولما اقترب موته سلّم الإمارة لابنه - ليث - الذي كان أكبر أبنائه وقد واصل ليث المسير على خطى والده؛ فحافظ على الأمان ووحدة الصفوف بين القبائل، وقد حسّن علاقاتها بجيرانها من قبائل الحجاز ونجد وعُمان، لكنه لم يُبايع التُبع اليماني - عملًا بوصية والده - الذي أوصاه ذات مرة قائلًا:

- أهل اليمن أوفياء يا بني، ولكن التبع " مَعد بن شَهوان " ليس كذلك. فهو قد يغرقك بالأموال إن بايعته، غير أنه في اللحظة التي يشعر فيها بأنه مُهدد من الفرس أو الرومّ أو غيرهم من الأعداء، فإنه لن يتردد لحظة واحدة في أن يورط رجال الجنوب كلهم ويُقحمهم في أتون حُروب لا ناقة لهم فيها ولا جَمل لحماية مصالحه وعرشه.

وعملًا بتلك الوصية رفض الأمير ليث الذهاب في زيارة التُبع رغم الدعوات العديدة التي أُرسلت إليه من اليمن .. لقد رفضها جميعًا وظل متمسكًا بوصية والده حتى جاء ذلك اليوم الذي كان نهاية لما قبله وبداية لما بعده: فذات يوم جاءت للأمير ليث دعوة من أحد شيوخ قبائل الجنوب بمناسبة عقد قِران ابنه؛ فلبى الأمير الدعوة وحضر مع شيوخ القبائل كلهم، وما إن وطأت أقدامهم أرض الديوان الكبير الذي أُقيم بمناسبة الاحتفال حتى أحاط بهم من كل جانب حرس مُدججون بالعتاد والسلاح؛ فهتف الأمير ليث وقد أدرك الخديعة:

- خيانة !

(الديوان الكبير)

التفت ليث نحو الداعي وصاح في وجهه:

- أخزاك الله يا مَرحب، تالله لتنتقم منك السماء ولو بعد حين.

كانت تلك هي الجملة الأخيرة التي سمعها شيوخ القبائل قبل أن ينقض عليهم حرس مَرحب.

في ذلك اليوم حاول الشيوخ مقاومة الهجوم بكل ما أُوتوا من قوة، ولكن شجاعتهم لم تُسعفهم أمام الكثرة وقُتلوا جميعًا؛ لقد هُزموا لأن خصمهم استخدم ضدهم سلاحًا يجهلونه وهو الغدر؛ وهذا ما دفع الأمير ليث أن يقول بينما كان يتأمل بحسرة جثث أصحابه القتلى من حوله:

- هذه المعارك لا نُحسن خوضها، فالشجاع يجهلُ شريعة الغدرِ.

ثم التفت نحو مَرحب وقال ببرود وعدم اكتراث:

- ماذا تنتظر ؟! .. أكمل خيانتك.

- لقد ترددت كثيرًا قبل أن أُقدم على هذا الأمر ولكنه.

- لا تُبرر؛ فلا شيء أسوأ من الخيانة إلا التبرير لها؛ فكن شجاعًا وأكمل ما بدأته؛ فإن بطن الأرض خيرٌ عندي من ظهرها بعد موت أصحابي هؤلاء.

مَرحب وهو يُزيح السيف عن عنقه:

- أعلم أنك لا تكترث بشأن الموت يا لَيث؛ ولكن مصلحتي الآن تقتضي أن تبقى حيًا - ثم أضاف يأمر الحرس: قيدوه أيها الحرس وخذوه إلى سجن الجبل.

في تلك اللحظة اقترب منه - من مَرحب - أحد معاونيه وقال:

- لقد دفعت الثمن المطلوب، فمُبارك عليك إمارة الإقليم يا مَرحب.

- بل الأمير مَرحب أيها العم أحنف.

أحنف وهو يُحني رأسه:

- عفوك أيها الأمير.

بصوت نادم وهو يتأمل جثث الشيوخ الذين كانوا بالأمس أصحابه:

- لقد كان ثمنًا باهظًا ذاك الذي دفعناه.

- لا بأس، فالعروش ثَمنها الدم.

- وماذا بظنك سوف يكتب التاريخ عني ؟

- لا تشغل بالك بشأن التاريخ؛ فالمنتصر هو من يكتب قصته.

هزَّ رأسه مقتنعًا وهو يقول وقد تجاوز حالة الصدمة التي كان عليها:

- أرسل للتُبع اليماني من يخبره أن المهمة تمت، وإياك أن يعلم أحد أن أمير الجنوب ليث بن غامد السيف ما يزال حيًا.

- ولكنني حتى الآن لا أفهم لماذا تُصر على إبقائه حيًا.

- إننا تحت راية التُبع ونُكن له الولاء، ولكننا لا نضمن غدره وتقلب مزاجه، الأمير ليث هو الشاهد الوحيد على ما حدث لشيوخ القبائل، وبقاؤه يعني أننا نملك ورقة رابحة قد نحتاج إليها لاحقًا إذا ما حاول التُبع اليماني يومًا الانقلاب علينا.

**

من خلف حائط السجن واصل ليث بن غامد كلامه للفتى آزر بصوت مقهور:

- لقد كان مَرحب أكثر شيوخ قبائل الجنوب دناءة وخِسة، ولكن لم تذهب بي المخيلة إلى أن خسته تلك قد تجعله يصل إلى الدرك الأسفل من الخيانة وتقوده إلى التعاونْ مع ملكٍ أجنبي؛ فيغدر ببني جلدته طمعًا بالمال والجاه والسُلطة.

- وماذا حدث بعد ذلك ؟!

- بعد مقتل الشيوخ وإقصائي إلى هذا السجن، وضع التُبع يده على قبائل الجنوب وقام بتنصيب مَرحب أميرًا عليهم رُغمًا عنهم، وهذا لعمري أنه أشد وجعًا من البقاء محبوسًا بين أركان هذا السجن العفن.

كانت قصة عجيبة تلك التي استمع إليها آزر وقد أدرك أنه ليس الوحيد الذي ذاق الظُلم والخيانة؛ وهذا الشعور أطلق راحة غريبة بداخله؛ فالإنسان يشعر بالراحة عندما يُدرك أن الحياة لا تطحنه وحده.

**

(النوراء)

مضت الأيام والأسابيع،

وقد توطدت أواصر الصُحبة بين السجينين،

ورغم أن هناك حائطًا يفصل بينهما إلا أن جسور المودة قد تجاوزت الحائط وفارق الأعوام لتجمعهما في صُحبة وثيقة؛ فكان لا يخلو يومٌ بينهما من حوارات وحكايات يَرويها الشيخ للصبي عن تاريخ جزيرة العرب، ولكن القصص الأكثر تشويقًا والتي لا يمل آزر من الاستماع إليها كانت قصص الأنبياء. قصته المفضلة هي قصة النبي الذي رفع قوائم الكعبة - النبي إبراهيم - ورغم أنه كان قد سمع قصته من بُثينة مرارًا وتكرارًا إلا أنه كان يَطلب من صاحبه ليث في كل مرة أن يعيد حكايتها عليه من جديد؛ فيستمع إليها في كل مرة بشغف المرة الأولى.

وبينما آزر ذات ليلة مُصاب بحمى شديدة توشك أن تفتك به والحرس يتجاهلون صيحات صاحبه ليث الذي يُطالبهم بالتدخل لمساعدته، إذ انفرج باب سجنه عن امرأة لم يستطع أن يرى ملامحها جيدًا بسبب عَتمة السجن، وقال يسألها:

- من أنتِ ؟!

- اسمي (**النوراء**) وأعمل طابخة طعام بقصر سيدي الأمير مَرحب.

استغرق آزر بعض الوقت حتى يستجمع قوته ويسألها بصوت راجف من بين أنفاسه الخافتة:

- وماذا تريدين ؟!

قالت وهي تتقدم في عُمق الظلام:

- لقد جئتُ لأساعدك.

- لماذا ؟

- إكرامًا لأرض الحجاز التي أنت منها؛ فإن لي فيها أهلٌ وعشيرة.

قال صاحبه ليث من خلف حائط السجن متدخلًا:

- لا تثق بها يا آزر، فقد بعثها إليك أميرها إما لتقتلك أو لغرض في نفسه.

قالت النوراء تحادث ليث من خلف الحائط:

- ما الذي دفعك لهذا الظن ؟

- كيف عرفتِ بأنه مريض أيتها الكاذبة .. وعملكِ هو طهو الطعام في القصر، هل وصلك صوت استغاثتي وأنتِ هناك ؟!

- لا، ولكن الحرس والجواري يتحدثون، وقد بلغني الأمر فجئت.

- وكيف استطعتِ تجاوز حرس الجبل والوصول إلى هنا إن لم يكن الأمير مَرحب هو من سهل لك الدخول ؟

- إن المال مع بعض الحِيَل كفيلٌ بأن يفتح الأبواب المغلقة.

ثم أضافت وهي تنظر ناحية آزر والذي قد أرهقه المرض:

- يجب أن تثق بي أيها الفتى؛ إن كنت تريد النجاة.

بسبب عَتمة المكان لم يكن آزر بوسعه أن يتحقق من ملامحها فيرى مدى صدقها من عدمه، ولكنه على أي حال كان يجد نفسه أمام طريقين يؤديان إلى مكان واحد، فإما أن يرفض مساعدتها له فيموت مقتولًا بالحمى، أو يثق بها فتكون لديه فرصة - ولو بسيطة - للنجاة.

- افعلي ما ترينه مناسبًا.

لم يعترض ليث من خلف الحائط، فهو يدرك أيضًا أنه لا يملك خيارًا آخر غير الوثوق بهذه المرأة المجهولة، والتي جاءت إلى السجن هذه الليلة بطريقة مريبة.

أسندته النوراء وأسقته من قارورة تحوي سائلًا ما:

- لقد طحنتُ لك بعض الأعشاب، وخلطتُ معها بعض التعاويذ السماوية.

- طعمه مُر - قال وهو يمتنع عن إكماله - أهذا سُم ؟

- نعم - قالت النوراء - إنه سُم للمرض.

- طعمه كالحذاء.

- وهل كنت تظن أنني غامرتُ بالقدوم إلى هنا الليلة من أجل أن أسقيك عصير العنب ؟

- أفضل الموت على أن أكمله.

وهي تقرب الزجاجة من فمه: كفاك عنادًا واشرب !!

أفرغت النوراء السائل في جوفه حتى آخر قطرة، ثم قالت:

- لتَشهد السماء أنني فعلتُ ما فعلته إكرامًا لأرض الحجاز التي تجمعنا، أما الآن فلا أستطيع البقاء لمدة أطول حتى لا يكتشف أحدٌ أمر مَقدمي إليك.

وبعد أن انتهت من مهمتها غادرت تلك المرأة الغامضة في عمق الظلام بخفة كما جاءت إلى هنا بخفة بينما أغلق آزر عينيه وغفى.

**

بعد رحيلها بساعات يسيرة أفاق آزر وقد بدأ يشعر بتحسنٍ طفيف وهذا ما أكسبه القوة التي جعلته يزحف نحو حائط السجن، ويُسند ظهره إليه وهو يقول:

- طعم الدواء ما يزال عالقًا في فمي.

- أتشعر بالتحسن يا صاحب السجن ؟

- أظن أن المرض بدأ يهرب من جسدي بسبب طعم الدواء السيئ.

وأضاف آزر بعد لحظات يسأل عن شيء يدور برأسه:

- ولكن من تكون النوراء هذه بظنك ؟

وبرغم ما قدمته تلك المرأة من مساعدة، إلا أن ليث لم يَرتح لها وظل الشك يحوم حول رأسه بخصوصها؛ فهو في بيئة لا تُتيح له أن يحسن الظن بأحد؛ والذي تعود على الغدر والخيانة يرى في حُسن التعامل فخًا:

- ما زلت أظن أن مَرحب هو من أرسلها إليك.

- أيرسلها لتعالجني ؟

- ربما أراد بهذا أن يجعلك تثق بها.

- لأجل ماذا ؟

- لستُ أدري ولكن أيًا يكن هدفها يجب أن تكون حذرًا.

٧

مكَة

مرّت ستة أعوام على رحيل آزر عن الوادي وقد انقطعت أخباره تمامًا، وها هو الوقت يعيد نفسه من جديد وتبدأ مكة اليوم في استقبال القادمين لمشاهدة الحدث - حدث صِنديد العرب - الذي حان أوانه بعد مرور خمسة عشر عامًا على آخر مرة أُقيم فيها.

في ظهيرة ذلك اليوم تعلقت أبصار الناس نحو التلة التي ينتصب فيها طبل المشاركة، حيث كان يقرِع الطبل صبيٌّ مُلثمٌ يرتدي زي الحرب وقد بدا من بُنيته الجسدية الهزيلة أنه ما بين الثانية عشرة عامًا أو الخامسة عشرة عامًا على أكثر تقدير؛ أي أنه ضمن السن القانونية للمشاركة، ورغم ذلك لم يوافق أحدٌ من السادة على طلب انضمامه، لقد امتنعوا عن الموافقة بسبب إخفاء الصبي لملامح وجهه خلف اللثام، ولكن الصبي استمر يَقرع الطبل بقوة وإصرار وعَزيمة ولم يتوقف حتى ارتفعت يد أحد السادة بالموافقة.

وما إنْ رأى الصبي الملثم تلك اليد المرتفعة حتى توقف عن قرع الطبل، وقفل مغادرًا إلى مكان مجهول بينما التفت الحارث بن الأجهر نحو الشخص الذي رفع يده بالموافقة وقال يلومه:

- لم وافقت ؟!

كانت إجابته جاهزة، وكأنه كان يتوقع الاعتراض مسبقًا:

- إنما أنا وكيل من أنوب عنه، ولا أقول إلا ما يقول.

- أتعني أنَّ سيدك موافق على فعلتك هذه ؟!

- نعم؛ وسيدي يعقد الرِهان على هذا الصبي.

- لنر كيف سيصمد صبيكم الهزيل هذا.

**

(الصبي المُلثم)

مع بدء النزالات:

شقَّ ذلك الصبي طريقه نحو انتصارات كاسحة منطلقًا نحو هدف محدد وهو الفوز باللقب، فكان يقاتل قتال من لا يَهاب الموت؛ ويُجندل أقرانه من الصبيان واحدًا تلو الآخر .. ليس بقوة سيفه ودرعه فقط بل متسلحًا بالإيمان الكامن وسط قلبه؛ ذلك الإيمان الذي يجعله يسير بخطوات ثابتة نحو النصر حتى وإن كان العالم كله يقف ضده.

استطاع الصبي المُلثم أن يصل إلى النِزال الأخير ويحسم النتيجة لصالحه، ما دفع السادة إلى الدخول لدار الندوة لأخذ المشورة فيما بينهم، فما حدث اليوم لم يكن له سابقة من قبل: أن يفوز صبي مُلثم لا يُعرف له اسم أو نسب، ما دفع بعض السادة أن يقترحوا حرمانه من اللقب. ولكن الحارث قال كلمته:

- بل نُتمم ما وافقنا عليه منذ البداية.

**

(مراسم التنصيب)

سار السادة نحو الكعبة، وما إن وصلوا إلى هناك حتى وجدوا الصبي المُلثم في انتظارهم مع جَمع غفير من الناس، فقال الحارث:

- انزع عنك اللثام وانتسب؛ لنكتب اسمك في الصحيفة.

هنا تفاجئ الجميع بصوت الصبي المُلثم وهو يقول:

- آزر ابن ذِئبة الوادي.

لم يكن الاسم هو فقط مصدر ذهولهم؛ بل كان أيضًا سماعهم للصوت الأنثوي الذي نطق به الصبي المُلثم وهو ينزع اللثام لينكشف لهم وجه قَمر؛ فصُعق الحضور وأولهم كان والدها عامر الذي جاء من اليَمن ذلك اليوم خصيصًا ليحضر هذه المناسبة ويَشهد مراسم تنصيب الفتى المتوج بلقب الصِنديد، وبدأت همهمات الناس تتردد ما بين هذه الأسئلة:

" فتاة ؟! .. فتاة تفوز باللقب ؟! "

قال الحارث رافضًا:

- بل نكتب اسم قَمر ولا نكتب غيره.

اعترضه صوتٌ انبعث من وسط الحشود - كان هو الشخص ذاته الذي رفع يده ووافق عليها في البداية - وهو قَيس بن هامة الشمال الذي كان يحق له التصويت باسم سيده في اختيار المتسابقين بصفته الوكيل الشرعي له في مكة واليمن:

- إن قانون صِنديد العرب يقول بأن الاسم الذي يُعلق على أستار الكعبة يكون هو ذاته الاسم الذي يختاره الفائز مهما كان؛ فاكتبوا الاسم كما قالته الفائزة.

تلفت السادة بعضهم إلى بعض في استنكار ورفض .. أيكتبون على الأستار اسم صبي لَقيط لا نسب له ولا أصل ؟! .. نظر الحارث بن الأجهر نحو صاحبه عامر، وهو يُدرك جيدًا أن ذلك هو حله الوحيد للخروج من هذا المأزق:

- أكنت تعلم بما يَحدث ؟

- لا وحق هُبل.

- أيرضيك أن يُعلق اسم الفتى اللقيط على أستار الكعبة ؟

تبادل عامر النظرات مع ابنته قَمر التي خافت أن يخذلها والدها للمرة الثانية، مثلما خذلها عندما لم يدافع عن آزر في السابق ولكنها تفاجأت به وصوته يرعد في حزم:

- لا قول يعلو على قول ابنتي قَمر؛ فاكتبوا على الصحيفة مثلما قالت.

وهكذا لم يكن أمام الحارث إلا أن يَلتزم بالقانون، وقد واتته لحظة إدراك نادرة وهو يكتب بخط يده على الصحيفة " آزر ابن ذِئبة الوادي " فبعد أن بث في الماضي يخطط ويدبر المؤامرات لمنع حدوث ذلك، ها هو الزمان يستدير اليوم وتجري الأحداث بطريقة عجيبة، ليكتب الاسم بنفسه ويُعلقه على أستار الكعبة بيديه، وكأنما كانت السماء تسخر منه وتقول له أن إرادة رب السماء وعدالته – نافذة نافذة – مهما حاول البشر منعها أو الاحتيال عليها.

**

(سجن الجبل)

وبينما آزر في سجنه يتجاذب أطراف الحديث مع صاحبه ليث من وراء الحائط؛ إذا بباب السجن يُفتح لتظهر امرأة كانت قد جاءته قبل وقتٍ طويل، كان ظلام السجن دامسًا، ولكنه استطاع أن يحزر من طريقة أنفاسها أن هنالك أمرًا جللًا قد حدث أو أنه على وشك الحدوث فبادرها قائلًا:

– ما وراءك يا نوراء ؟

قالت وقد بانت الفاجعة على نبرة صوتها:

- لقد أصدر الأمير مَرحب قراره: سيقتلك رجاله صباح الغد.

لقد أنقذته تلك المرأة في السابق عندما كادت الحمى أن تقتله؛ ولذلك بات لديه هو وصاحبه الآن سببًا يجعلهما يثقان بها، قال آزر معترضًا:

- ولكنه قد قطع وعدًا أمام العرب بحفظ دمي.

- ما كان ينبغي أن تثق بوعده؛ فلا أمان لمَرحب.

انبعث صوت ليث من خلف الحائط يقول:

- إن الأفاعي وإن لانت ملامسها، في أنيابها يَكمن الغدرُ

ثم أردف يطلب منها:

- لا تتركيه أيتها النوراء وهو من بني قومك.

- وحق البيت المعمور إنني ما أتيت الساعة إلا من أجل أرض الحجاز التي تجمعنا؛ وقد أعددتُ كل شيء للهروب من السجن عند منتصف الليل.

كان موقف آزر واضحًا:

- لا أبرح دون صاحبي ليث.

هتف الرجل العجوز من خلف الحائط:

- أنقذ نفسك ولا تخش عليّ .. فإن مَرحب يُبقيني حيًا ليستخدمني كورقة رابحة ليساوم بها التُبع عند الحاجة.

- وما سيحدث لك إن مات التُبع يومًا - قال آزر في سخط - ما الذي سيحدث لك إن لم يعد مَرحب في حاجة إليك ؟! .. إن بقاءك هنا يا ليث لهو أشد وطأة من الموت .. ورب إبراهيم لا أتركك وأنا صاحبك فإما أن نبقى معًا أو نهرب معًا.

لقد جرب ذلك الفتى شعور التخلي ويدرك كم هو قاسٍ طعمه ومر؛ لذلك فإنه لن يسقي صاحبه من ذات الكأس التي شرب منها .. حتى وإن كان سيدفع حياته ثمنًا في المقابل:

- إن كانت خطتكِ لا تتسع لي أنا وليث فلا حاجة لي بها.

أطرقت النوراء صامتة بعض الوقت قبل أن تقول:

- لا تقلق، سأتدبر أمره ولكن بشرط.

- قوليه.

- أريدك أن تأخذني إلى مكة، فإن قلبي يتوق إلى ترابها.

كان آزر قد قرر في سجنه ألَّا يعود إلى مكة أبدًا؛ إنه يخاف أن يعود إليها بعد هذه الأعوام الستة فيجد نفسه منسيًا هناك، إنه لا يريد أن يغامر بقلبه؛ فالعيش في أوهام الماضي بالنسبة إليه خير من الاصطدام بواقع أليم قد يُحطم أجمل ذكرياته.

- أعدك أن آخذك إلى حدودها، فتُكملين إليها الطريق وحدك.

- هيئ نفسك إذًا أنت وليث؛ فعند منتصف الليل تبدأ خطة هروبنا من هنا.

قالت النوراء ذلك ثم رحلت بينما ظلّ آزر وصاحبه ليث كل في سجنه ينتظر الموعد بفارغ الصبر .. قد تنجح خطتهم في الهرب هذه الليلة، ولكن الأمر الذي لا يعرفونه بعد هو أن ما كان ينتظرهم في الطريق، سوف يكون بالتأكيد أشد وطأة وألم من الأعوام الستة التي كانوا قد قضوها في سجن الجبل.

٨

الهروب

عندما انتصف الليل؛ انفرج باب سجن آزر عن حارس طويل القامة بادره قائلًا في حزم:

- ضع غطاء على رأسك أيها الفتى واتبعني.

قال آزر قبل أن يتحرك من مكانه:

- وماذا بشأن صاحبي ليث ؟

- لا تقلق بشأنه - قال الحارس - سوف تلقاه في الأسفل.

تحرك الحارس عبر سراديب مظلمة وآزر خلفه حتى هبط به إلى سَفح الجبل، وهناك شاهد ثلاثة من الخيول تنتظره وقد عُززت بسيوف مثبتة على سروجها لأغراض الدفاع عن النفس أثناء الهرب .. كانت النوراء تعتلي أحد الأحصنة وإلى جوارها شيخٌ مَهيب الطلة ذو جسد قوي رغم تقدمه في العمر، قال الشيخ وهو يترجل عن حصانه مخاطبًا إياه:

- إنك أكثر وسامة مما تخيلتُ يا فتى.

لم يَملك آزر إلا أن يعانقه وليث يبادله العناق ودموعه تُبلل ذقنه الطويلة البيضاء ويقول معترفًا:

- كنت أخشى أن تغادر وتترك صاحبك في أسره؛ فما عادت روحي تحتمل الوحدة.

- لا الرجولة ولا المروءة تقبل هذا يا صاحب السجن.

ليث وهو يتأمل بفخر صاحبه الشاب:

- لتلعن السماء من يقول بألَّا أصل لك؛ فما هذا إلا بقول سيدٍ أصيل.

تدخل حارس السجن بينهما:

- أكره مقاطعة اللحظات الجميلة؛ ولكن أظن أنكما سوف تعودان إلى السجن، وتُكملا حديثكما الشيق هذا هناك إن لم تغادرا الآن وبسرعة.

النوراء وهي تنظر حولها:

- الحارس معه حق؛ يجب أن نهرب بسرعة قبل أن يُكتشف أمرنا.

**

ابتعد الثلاثة من هناك على ظهور أحصنتهم مُسرعين نحو الشمال، وحين اطمأن الحارس لابتعادهم اتجه عائدًا إلى موقعه وقد أخرج صُرة فيها قطع من الدنانير الذهبية التي أعطته إياها النوراء مقابل تسهيل عملية هروبهم ..

أخذ الحارس يتأمل صُرة الدنانير بيده ويعدها ولكنه ما كاد يسير بضع خطوات إضافية حتى تفاجأ بأن باب السجن مفتوح وليس مغلقًا كما كان قد تركه، تسمرت قدماه من تحته وهو يسمع نبرة الصوت المخيفة التي يعرفها جيدًا تنبعث من خلفه قائلة:

- لستُ في حاجة إلى أن أسألك عما فعلت أيها الحارس؛ فالسجن خاوٍ، وصُرة المال بيدك تُغني عن كل الكلام.

وقبل أن ينطق الحارس، أدار صاحب الصوت يده الممسكة بالسيف؛ فطارت رأس الحارس عن جسده .. ثم التفت الرجل إلى الفرسان الثلاثة الذين كانوا يقفون خلفه وقال:

- اقتسموا صُرة الدنانير هذه فيما بينكم؛ وسوف تجدون مثلها عندما تعودون برؤوس الهاربين.

التقط أحد الفرسان صُرة الدنانير من الأرض ثم قال في ثِقة:

- اجلب المكافأة أيها العم أحنف ريثما نجلب لك الرؤوس الثلاثة.

**

وبينما الثلاثة - آزر، وليث، والنوراء - يحاولون الابتعاد قدر المستطاع عن الخطر؛ إذ توقفت النوراء فجأة بحصانها ليتوقف الاثنان معها وينظران إليها في تساؤل.

- ما بك - يسألها آزر - أهناك خطب ما ؟!

ابتسمت في حنان وهي تلتقط أنفاسها وتقول مازحة:

- يبدو أن النوراء قد شاخت.

قال ليث بصوت متفهم كأبٍ يشجع ابنته: لم تشيخي يا نوراء ولكن كل ما هنالك أنكِ لم تعتادي على ركوب الخيل لهذه الفترة الطويلة من الزمن، وبهذه السرعة العالية.

وهي ما تزال مبتسمة وتلتقط أنفاسها:

- أترى إذًا أنني ما زلتُ صغيرة ؟

ليث:

- صغيرة بعمر جدتي.

لم يكن وقتًا مناسبًا للضحك بالطبع ولكنها ضحكت؛ فالحزن المتأصل في أعماقها كان يجعلها امرأة ذات طبع ضحوك؛ فالناس الأكثر حُزنًا في العالم هم الأكثر قابلية للتبسم والضحك.

فتش ليث حوله حتى وجد ما كان يبحث عنه:

- لنحتمي داخل ذلك الكهف حتى ترتاح النوراء قليلًا؛ ثم نواصل.

هرول آزر بحصانه ناحية الكهف لأجل أن يتأكد من خلوه من الدواب أو الزواحف السامة .. بينما ترجلت النوراء من فوق حِصانها وفعل ليث مثلها وسارا معًا على الأقدام ناحية الكهف .. قال ليث يُلقي بسؤالٍ كان يدور بنفسه ولا يجد له تفسيرًا:

- لقد أنقذتِ آزر لأنه من الحجاز؛ وأنقذتني لأن آزر من اشترط عليك ذلك.

ابتسمت النوراء وقالت:

- ما هو السؤال الذي يشغل بال حفيدي ؟!

- كان بمقدورك البقاء في قصر الأمير مَرحب دون أن يعلم أحدٌ أنكِ من يقف وراء أمر هروبنا، ولكنك بدلًا من ذلك ألقيتِ بنفسك داخل هذه المغامرة الخطيرة وهربتِ معنا.

- ألم تسمعني حين قلت إنني أريد الذهاب إلى مكة ؟

- سمعتكِ، ولكن لا أظن أن هذا هو السبب الوحيد.

في الحقيقة كان إحساس ليث صائبًا؛ فعودتها إلى أرضها ليست السبب الوحيد الذي جعلها تُقحم نفسها في تلك المغامرة الخطيرة، بل كان لديها سبب آخر ..

قالت وعيناها تشعان بسعادة غريبة:

- لقد غادرت الحجاز قبل مدة طويلة، وحان الوقت لأعود إلى قلبي الذي تركته هناك، وأُنهي قصة فراق خاطئة أُجبرتُ عليها ولا أزال أتجرع مرارة عذابها طوال السنين الماضية.

ابتسم ليث في مودة وقد فهم السر:

- إنه الحُب إذًا ؟

- تستطيع أن تقول ذلك - ثم أضافت مازحة:

- عندما تكبر قليلًا، ستحدثك جدتك عن الحب أكثر.

ابتسم ليث على الرغم منه وانخرط معها في الضحك، لم يكن ما قالته هو الذي أضحكه، بل جمال وجهها الأسمر الفاتن وهو يضحك كان هو السبب الذي أدخل السرور إلى قلبه ودفعه لأن يضحك.

**

لم يدم بقاؤهم طويلًا داخل الكهف حتى كانت حاسة سمع آزر المدربة على التقاط هسيس الأصوات المنخفضة قد استطاعت أن تلتقط خفقة أجنحة مفاجئة لطيور حلقت إلى السماء؛ وهذا ما دفعه إلى أن يتساءل في تعجب وهو ينظر إلى الطيور المبتعدة:

- لا بد أن هنالك ما أخاف هذه الطيور؛ ليجعلها تطير ليلًا.

خبرة ليث العتيقة في الحروب؛ هي ما جعلته يُخمن السبب فانحنى واضعًا رأسه على الأرض وكأنه يُصيخ السمع إلى شيء ما؛ ليرفع رأسه بعد لحظات وقد تبدلت ملامحه غير الملامح وهو يقول:

- لقد خرج الطلب في إثرنا وإن لم أكن مخطئًا فهنالك ما يَقرب من الثلاثة أحصنة تتبعنا.

ثم أضاف وهو يصعد إلى حصانه ويسأل النوراء:

- أتستطيعين المواصلة ؟

والنوراء تمتطي حصانها وتقول مبتسمة:

- لا بد من ذلك؛ فجدتك لا تملك خيارًا آخر يا بني.

آزر وهو يمتطي حصانه ويقول:

- لنغادر بسرعة.

وما كادت الأحصنة الثلاثة تنطلق بهم من هناك مسرعة حتى حدث ما لم يكن أحدٌ منهم يتخيل حدوثه؛ فقد شَهقت النوراء فجأة وبطريقة خطيرة وهي تميل بجذعها إلى الأمام بعد أن اخترق جسدها من الخلف نصل سهم غادر برزت مقدمة رأسه من الجهة الأخرى لجسدها.

توقف الاثنان وهما ينظران إليها بملامح ذاعرة، ورغم إصابتها الخطيرة إلا أن النوراء استطاعت أن تصطنع ابتسامة زائفة وهي تهمس لهما بصوت منطفئ:

- لا عليكما، اهربا أنتما.

ترجل ليث عن حصانه وراح يحملها بين ذراعيه وهو يقول:

- أنتِ تعرفين أن رحيلنا الآن بات غير ممكن.

ثم مددها على جنبها أرضًا ونظر إلى جُرحها ليفحصه،

لقد كانت مسافة عميقة تلك التي غاص فيها السهم ما جعله يدرك أنها إصابة مميتة، فنظر إلى آزر وكانت ملامحه تكفي لأن تنقل إليه الخبر المؤسف.

تصاعد دم الغضب إلى وجه آزر حتى استحال وجهه إلى اللون الأحمر، وانطلق يعدو بحصانه بكل سرعته نحو الفرسان الثلاثة الذين أربكتهم تلك الهجمة المفاجئة؛ فقد استحالت الطريدة التي كانوا يُلاحقونها إلى وحش جسور يُريد اقتلاع رؤوسهم .. استغل آزر ذلك الارتباك الذي بدا عليهم فسحب السيف المُثبت على سرج حصانه وأطار رأس الأول في غمضة عين، ثم قتل الثاني والثالث، ليعود سريعًا إلى حيث تمددت النوراء أرضًا ويسند رأسها بين يديه ثم يقول لها بلطف لا يستقيم مع الوحش الذي كان عليه قبل قليل:

- سنحملك إلى أقرب قَبيلة ونعالجك.

النوراء وهي تحاول أن تبتسم:

- لا أعتقد أن جسدي سيحتمل ذلك يا آزر - وأضافت من بين أنفاسها:

- يبدو أن قدري ألّا أرى مكة أبدًا؛ فاستمع إلى وصيتي يا صديقي.

آزر وهو يمسح الغبار وقطرات العرق عن وجهها:

- لا حاجة لأن توصيني بشيء؛ فما تريدين أن تفعليه سوف تفعلينه بنفسك في مكة.

- ما عادت الأنفاس تكفي؛ فأرجوك اسمعني.

ثم استجمعت ما تبقى لها من الأنفاس الأخيرة، وهمست ببصر شاخص:

- وصيتي لك هي أن تبحث عن طفل تركته أمه قبل أكثر من سبعة وعشرين عامًا عند سَفح جبل أبي قُبيس .. أخبره أن أمه اختارت فراقه رُغمًا عنها .. وأنها ما توقفت لحظة عن حبه ورؤيته في خيالها وتحصينه كل يوم .. أخبره أن روحها ستظل دائمًا إلى جواره .. وأنها كانت تتوق دائمًا إلى لقائه .. وأنها ماتت اليوم وهي في منتصف طريقها إليه.

وما كادت النوراء أن تُكمل آخر كلمة في وصيتها،

حتى لفظت معها النفس الأخير.

لقد كانت تلك المرأة تحلم طوال السنوات الماضية أن ترى ابنها يومًا قبل أن تموت، وها هو حُلمها اليوم يتحقق؛ فتموت بين ذراعي آزر دون أن تدري أن هذا الصبي هو ذاته الرضيع الذي وضعته عند سفح جبل أبي قُبيس، قبل سبعة وعشرين عامًا وسبعة أشهر من اليوم.

مَرجل من جهنم كان يَغلي بحمم يُشعلها ألف شيطانٍ وشيطان اشتعلت كلها في أعماق آزر، وهو يضم أمه إلى حضنه ويُطلق صرخة زلزل بها الجبال من حوله:

- **أمي ! ! ! ! ! !**

٩

ثارات النوراء

تفاجأ حرس القصر - قصر الأمير مَرحب - عند الثُلث الأخير من الليل برؤية فارس منفرد يعدو بحصانه نحوهم بلا توقف أو تردد كان سيفه بيده وكأنه وحده جيش كامل يشن غارة عليهم، ورغم أنه يدرك في قرارة نفسه أنه لا يملك القدرة لقتال كل أولئك الحرس وحده .. إلا أن رغبته بالثأر لأمه قد أعمته عن أي منطق سليم أو عقل راجح؛ فواصل عدوه فوق حصانه نحوهم ودموع حُزنه تُبلل خديه وتضع لمسة من الضباب أمام عينيه اللتين لم تجفا من البكاء بعد، في تلك اللحظة بالذات حطَّ غرابٌ أسود على كتفه الأيسر، فنظر إليه من طرف عينه الباكية وعرف فيه أعصم غراب العامرية الأسود:

- لا تقلق؛ أنا معك - ثم أردف الغراب في ثقة - بل كُلنا معك.

هنا تموجت الرمال من خلف حصان آزر وبدت وكأنها تغلي، قبل أن ترتفع وتتحول إلى فرسان من ظلال سوداء، مدججين بالعتاد والسلاح فوق خيول جامحة تجري كلها خلف آزر .. قفز الغراب أعصم من فوق كتفه الأيسر وقد تحول هو الآخر إلى ظل أسود امتزج مع بقية الظلال السوداء من خلفه؛ بينما آزر ظلّ يواصل عدوه نحو هدفه المحدد ورغبة واحدة تغلي في صدره أكثر وأكثر وهو يصيح:

- **يا لثاراااات النوراااااء ! ! !**

والظلال تتبعه وتردد بصوت واحد كأنها جبالٌ ترد خلفه الصدى:

- **يا لثارااات النوراااء .. يا لثاراااات النوراااااء ! ! !**

داهمت الظِلال حراس القصر في مشهد لا يمكن لغير الخيال أن يستوعبه، وما كاد آزر يقتل بضعة من الجنود إلا وكانت الظلال السوداء التي معه قد مزقت البقية شرَّ ممزق أمام عينيه .. هو لم يكن يُدرك ما يحدث أو يدرك حقيقة جنس تلك الظِلال التي تناصره، ولكنه لم يُرهق نفسه بالأسئلة، هدف واحد فقط كان يشغل مساحة تفكيره تلك اللحظة وهو الثأر لأمه فقط ..

تمثل أعصم أمامه بهيئته الحقيقية: شابٌ نحيل وطويل، تُرابي البشرة، أحمر الشعر وكأن فوق رأسه شُعلة من نار قانية .. وبالرغم من أذنيه الطويلتين غريبتي التكوين والأشبه بأذني القِط .. إلا أن ذلك لم يزد ملامحه الحادة إلا وسامة وجمال:

- أأخسفُ بهم حيطان القصر يا آزر ؟

- ليس قبل أن أثأر بنفسي من أحنف وأميره مَرحب.

أخفض أعصم رأسه وكأنه تلقى الأمر، ثم اختفى وعاد في لمح البصر وهو يُمسك الأمير مَرحب في يد ومستشاره أحنف في اليد الأخرى ويُلقيهما أمام آزر، والذي ما إن أصبح مَرحب عند قدميه حتى رفعه من ثيابه وصاح بوجهه:

- من سيدك يا فتى ؟!!

زاغت عينا مَرحب من الرعب وهول المشهد، وكان لتوه قد استيقظ من النوم، ليجد نفسه خارج أسوار قصره وجثث جنوده مُلقاة على الأرض تملأ مساحة المكان الخارجية:

- أنت سـ سـ سيدي

- إذًا خذها مني وأنا سيدك.

قال آزر ذلك ثم أدار السيف بحركة خاطفة ليفصل جسد الأمير عن رأسه .. هنا ندت عن المستشار أحنف وهو يرى ذلك المشهد، شهقة تشبه شهقة فتاة مدللة قفزت عليها حشرة مخيفة:

- الرحمة - وأضاف - ناشدتك بكل ما هو عزيزٌ عليك.

- وهل أبقيتم لي عزيزًا لتناشدني به ؟!

وكاد أن يدير السيف ويُلحقه بأميره لولا تلك الجملة التي لفظها أحنف في اللحظة الأخيرة:

- ألا تريد أن تعرف من ورطك بسرقة الخاتم يا سيدي ؟!

توقف آزر ومكث يُحدق إليه وأحنف يواصل حديثه:

- سأعترف لك؛ إذا ما عاهدتني بألَّا تقتلني.

- لك عَهدي.

- وما يضمن لي أنك لا تغدر.

- آية العربي الوفاء بوعده، فإن أعطى كلمة لا يُخلفها.

- لقد جاء إليَّ في موسم الحج أحد السادة .. وطلب مني أن أكيد لك فأخرجك من مكة .. ولأصدقك القول أخبرته أن قتلك سيكون أسهل؛ ولكنه رفض ذلك، وقال إن ما يُريده هو إزاحتك فقط؛ فاتفقتُ مع أحد غلماني على سرقة خاتم الأمير مَرحب ودسه في مَتاعك وبَقية القصة أنت تعرفها ..

- ومن هو ذلك السيد الذي اتفقت معه ؟

- إنه سيد سادة الوادي وكبيره: الحارث بن الأجهر.

صمت آزر بينما قال أحنف:

- لقد عاهدتني بألّا تقتلني.

- انصرف من أمامي قبل أن يغلب الغضب صبري.

ركض أحنف مبتعدًا بينما ظل آزر مكانه وقد بدا عليه الغضب والقهر حين عرف أن الحارث بن الأجهر هو من لفق عليه تلك التهمة وتسبب في حبسه ست سنوات؛ وقد عاهد نفسه بأن يقتله جزاء فعلته حين تُتاح له الفرصة.

ولم يكد آزر أن يستدير بحصانه ويبتعد مسافة قصيرة من هناك حتى اهتزت الأرض وكأنها زُلزلت من تحته، فتوقف والتفت إلى الخلف ليجد قصر الأمير مَرحب وقد دُك دكًا واستحال رُكامًا بعد أن كان عظيم البنيان وأعصم يظهر من بين غبار الحطام معتليًا الهواء، ويقول له بصوت هادئ، وقوي، وحنون في ذات الوقت وكأنه صوت المطر:

- لقد ساندتك اليوم وفاء لروح العامرية وكُرمى لحبها لك .. ولكن عليك أن تكون أكثر حذرًا في قادم وقتك يا آزر؛ فإنك لن تراني بعد يومك هذا أبدًا.

(النوراء)

كان ليث بن غامد جالسًا وإلى جواره انتصب شاهد قبر، وبينما هو يتأمل الأفق إذ سَمع وقع خطوات حصان يقترب، فتنهد بارتياح وقد اطمأن على صاحبه.

ما إن وصل آزر حتى ترجل عن حصانه وانحنى صوب القبر واضعًا يده على التراب وكأنه بذلك يُصافح أمه .. وهنا استرجع في ذاكرته قصة قالتها له العامرية ذات مرة عن رجل أراد أن يقطع الضفة الأخرى من البحر؛ فتبرعت إحدى السفن بنقله دون مقابل، وبينما البحارة منشغلون في أعمالهم عمد ذلك الرجل إلى خلع أحد الألواح الخشبية ما عرض السفينة للغرق، يذكر أنها سألته حينها عن رأيه بذلك الرجل فأخبرها أنه يراه جاحدًا ناكرًا للمعروف، لتستطرد العامرية قائلة:

- ولكن الرجل لم يصنع ذلك عبثًا؛ لقد أفسدها لأنه يعلم بأن هنالك ملكًا وراءهم يأخذ كل سفينة غصبًا؛ فأراد بصنعته تلك أن يَعيب السفينة فلا يجد الملك فيها ما يُغريه لسرقتها، أخبرني الآن يا آزر: أما زلت ترى ذلك الرجل جاحدًا، ناكرًا للمعروف ؟

- لا.

سألته حينها:

- ما الذي جعلك تغير حُكمك بهذه السرعة ؟

- لأني عرفت الحقيقة.

أدرك الآن فقط بأن الحقيقة تُزيل غشاوة القلب وتجعل المرء يُبصر الأشياء بشكل أوضح؛ وحدهم الجُهلاء فقط من يُطلقون الأحكام دون معرفة كاملة، فوالدته لم تتركه عند سفح الجبل إهمالًا منها أو عدم رغبة فيه، بل تركته مجبرة - لسبب لا يعرفه حتى الآن - ولكن من المؤكد أن الأيام القادمة سوف تكشفه له.

أخرج آزر سيفه وقد قبض عليه من نصله الحاد، وأخذ ينقش هذه العبارة على شاهد القبر برأس السيف، بينما يده ترجف والدم يقطر من بين أصابعه:

" إلى لقاء قريب يجمعنا،

وحين نلتقي يا أمي سأخبرِكِ عن كل شيء "

ثم انطلق وصاحبه ليث بعد ذلك بالأحصنة شمالًا حتى وصلا إلى حيث تقع ديار قبيلة غامد بالقرب من جبل يُدعى (**الشدا**)[20] وما إن دخلا المنطقة حتى اعترضهم بعض من فرسان القبيلة وأحدهم يسأل:

- من القوم وأين وجهتكم ؟

---

٢٠ يقع جبل (الشدا) في المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية، في منطقة الباحة.

أجاب ليث من وراء لثامه:

- أهكذا علمكم سيدكم استقبال الضيف أيها الفارس ؟

- العفو منك يا أخا العرب .. ولكن غياب سيدنا هو ما جعل هذه الأرض تمور بالنزاع والخِلاف، حتى ما عاد أبناء القبائل يأمنون بينهم وبين أنفسهم.

- وأين ذهب سيدكم ؟

- قُتل مع بقية شيوخ القبائل على يد أمير اسمه مَرحب.

هزّ ليث رأسه وقال:

- امضوا بنا إلى قومكم أحادثهم.

الفارس: ولكن ألا تنتسب حتى نخبر القوم عنك ؟!

هنا أزاح ليث اللثام عن وجهه وقال:

- ليث ابن الرجل الذي غَمد السيوف وحقن دماء العرب وجمع كلمتهم على صَعيد واحد.

اتسعت عيون الفرسان في رهبة وتعجب ثم غشيتهم الحماسة والفرحة وصرخوا وهم ينطلقون على ظهر الخيل نحو ديارهم غير مصدقين ويَهتفون بالبُشرى قائلين:

سيدنا ليث قد عاد .. البُشرى يا قوم ! !

سيدنا ليث قد عاد .. البُشرى يا قوم ! !

سيدنا ليث قد عاد .. البُشرى يا قوم ! !

ابتسم آزر للموقف وهو يرى دموع الفرح تترقرق في مُقلتي صاحبه الذي قال من بين أنفاسه وهو يرى دياره، بينما نسمات بردها العليل المحملة بأريج الريحان وعبير أشجار التوت والتين تداعب خصلات شعره وتجاعيد وجهه، وتطفئ نار قلبه الذي قاسى الظلم طوال تلك السنين الطويلة التي قضاها في سجن الجبل:

- أيا ديار غامد قد أوجعتِ فراقًا .. وقد تاقت الروح إليك اشتياقًا، فداكِ عمري ودمي منذ يوم مولدي .. وإلى أن تفارق الروح جسدها في اليوم الموعدِ.

لم تمضِ لحظات يسيرة بعد ذلك حتى احتشد حولهما لَفيف من رجال ونساء الجنوب، وكُلهم يُرحبون ويُغنون: " **العيد يا ليث رؤياكَ، فرب السماء بعدله ولاكَ، لا نرضى بغيرك سيدًا وقد أعطاك الإله ما أعطاك** "

انتشرت أخبار عودة ليث في كافة مناطق الجنوب، وقد جاءت وفود القبائل لتتأكد من صحة الخبر وتعلن مبايعتها له بالسمع والطاعة، بصفته الوريث الشرعي لإمارة قبائل الجنوب جميعها .. وقد سارع ليث ببعث رسول للتبع اليماني يحمل رسالة كتب فيها: " **أما بعد، فقد اقتصصنا من عاملك مَرحب وأرى أن نكتفي بهذا الأمر ونجنب أنفسنا وإياك ويلات الحرب فأقصر يدك عن الجنوب منذ اللحظة يا مَعد؛ فإن للجنوب حِصنًا منيعًا لمن التجأ إليه، وحدًّا صارمًا لمن أراد به الشر. كن مسالمًا للحِصن تسلم حتى لا يقطع الحد رأسك فيُلحقك بحتف عاملك** "

ورغم قوة التُبع اليماني إلا أن شيئًا من الخوف قد مازج قلبه عندما قرأ تلك الرسالة، لا سيما بعد أن رأى ما آلت إليه الأحوال وكيف قُتل أميره مَرحب وتساوت أساسات قصره مع الأرض، ثم عادت قبائل الجنوب لُحمة واحدة، كل تلك المعطيات جعلته يؤثر جانب السِلم ويختار عدم الرد بما قد يُشعل المنطقة ويدخلها حربًا غير مضمونة النتائج.

**

وبينما كانت احتفالات الجنوب ما تزال مستمرة فرحًا بعودة أميرها إليها، إذ ألقى أحد الرجال سؤالًا عابرًا بريئًا، ولكنه أحرج به آزر عن غير قصد:

- نعلم أن اسمك آزر، ولكننا لا نعلم من أي بطون مكة تكون.

كان يستطيع الانتساب لإحدى بطون أهل مكة فيجنب نفسه ألم النظرات المحرجة؛ لكنه للمرة الثانية[21] في حياته يقرر أن يلزم نسبه الصحيح ولا يكذب بشأنه:

- آزر - قال - اسمي آزر ابن ذئبة الوادي.

---

٢١ المرة الأولى كانت قبل ستة أعوام عندما طلب منه الأمير مَرحب أن ينتسب، فقال أنه اسمه آزر.

وما إن سمع الناس اسمه ذاك حتى - وعلى غير المتوقع - بدا الانبهار واضحًا على وجوههم وكأنهم قد استمعوا إلى اسم فارس مشهور أو ما شابه، ولما طال صمتهم ولم يسخر أحدٌ منه، مال آزر برأسه ناحية الأمير وقال هامسًا:

- إما أن قومك يَفتقدون إلى حِس الدعابة، وإما أنهم ماهرون في المجاملة.

كان الأمير ليث يعرف أن قومه تلك اللحظة لا يجاملون:

- ما بالكم يا قوم ؟

قال أحدهم:

- آزر ابن ذئبة الوادي بيننا ؟

وقال آخر:

- ما كنا نعلم أننا نستقبل ضيفًا جليلًا مثله.

آزر متعجبًا:

- يبدو أنكم تخلطون بيني وبين أحدٍ آخر.

قال أحد الرجال من بين ضحكاته:

- انظروا .. عظيم ومتواضع !

فضحك الناس كلهم إلّا الاثنين - آزر وليث - اللذين تبادلا نظرات عدم الفهم لبعض الوقت قبل أن يصيح ليث قائلًا:

- أفهمونا ما الأمر !

انبرى أحدهم يشرح له:

- ما كنا ندري أن ضيف الأمير هو الفائز بصِنديد العرب.

وهنا تأكد لآزر سوء الفهم، فقال يوضح لهم:

- ولكنني لم أفز باللقب.

- مهلًا يا آزر - قال ليث - فلا يمكن أن يكون كل هؤلاء الناس مخطئين في أمر كهذا؛ فليشرح لنا أحدكم الأمر.

قال أحد الرجال وقد كان ممن حضر المسابقة وشاهد كل شيء بنفسه:

- لقد شارك في مسابقة صِنديد العرب هذا العام صبي مُلثم، قاتل بسيفه ودرعه مثل وحش جامح .. حتى إذا فاز باللقب أخيرًا وسأله سيد الوادي عن اسمه كشف الصبي اللُّثام عن وجهٍ مكتمل كالقمر؛ ليتضح أنها صبية اسمها قَمر وقد طلبت منهم أن يُعلقوا على أستار الكعبة اسم آزر ابن ذئبة الوادي.

أحس آزر بقلبه يطير فرحًا، ليس بسبب الشُهرة التي نالها أو المكانة التي وصل إليها بعد تعليقه اسمه على أستار الكعبة، بل لأنه اكتشف أنه لم يسقط من ذاكرة عائلته .. ونهض واقفًا مستلًا سيفه ليصيح في فخر وحماسة:

- **آآآزر ابن ذئبة الوادي ! ! !**

فصاح خلفه رجال الجنوب ومعهم أميرهم ليث بصوت هزَّ جبال تُهامة مرددين:

- آآآزر ابن ذئبة الوادي ! ! !

وعادت الأهازيج تصدح،

ولكن ليس باسم الأمير وحده هذه المرة، بل أضافوا معه اسم الفائز باللقب، وبينما احتفالات الجنوب قائمة إذ انتحى الأمير ليث بصاحبه آزر جانبًا وهو يقول له:

- لقد عقدتُ اتفاقًا مع القبائل على تكوين جيشٍ يخص حماية الجنوب؛ أريده أن يكون جيشًا واحدًا قويًا مثل جيوش اليمن والفرس والروم، وقد اتفقنا أن نضعك قائدًا على أحد ألويته.

- كان هذا سيكون شرفًا رفيع الشأن؛ لو أنني كنتُ باقيًا هنا.

- إلى أين تنوي الذهاب ؟

- سأعود إلى أرضي.

ابتسامة صافية ظهرت من أسفل الشارب الأبيض لليث وهو يقول مستفهمًا:

- ألم تخبرني في السجن أنك لا تنوي العودة إليها أبدًا ؟

- نعم .. لقد كان ذلك قبل أن أعرف أن هنالك من لا يزال يتذكرني فيها .. أما الآن وبعد أن عرفتُ بما فعلته قَمر؛ فقد اختلف الأمر أيها الأمير.

- لا تقل أمير؛ بل ليث صاحب السجن، وسأظل هكذا دائمًا بالنسبة إليك.

ثم نزع من فوق رأسه عمامة حمراء لفها حول عنق آزر وهو يقول:

- وهذه عمامتي حول عُنقك؛ لتعرف أنني دائمًا معك.

أمسك آزر العمامة بيده قابضًا عليها وهو يقول:

- هذه العمامة لا تُنزع إلا بعد أن تُنزع الروح من جسدها.

- أريدك أن تعلم بأن قبائل الجنوب كلها أهلك وعشيرتك متى أردت النُصرة فإنهم أعوانك وجيشك، لا يمسك أحدٌ بسوء إلا رمينا أعناقنا دونك.

ابتسم آزر لتلك الكلمات وهو يقول:

- بورك فيكم؛ لعمري إن الجنوب نِعم الجوار والعشيرة.

**

في اليوم التالي وحين أزفت لحظة الوداع،

اقترب الأمير ليث من آزر ممسكًا بلجام حصان يسوقه خلفه،

كان حصانًا عربيًا أصيلًا لونه أسود وله غُرة ناعمة جميلة .. خداه مستديران مثل استدارة البرتقال، عيناه واسعتان كحيلتان كأن الليل ينام على أطراف جفونهما:

- هذا حصانك منذ اليوم، اسمه الفُلك ..[22]

- بخٍ بخ - قال آزر وهو يمتطيه، ثم يُردف وهو يُربت على عنقه:

- اسمي آزر أيها الفُلك، ومنذ اليوم سيعتني كل صاحبٍ بصاحبه.

وقبل أن ينطلق به آزر من هناك عائدًا على ظهره إلى الحجاز أعطاه الأمير شيئًا أخيرًا، كان عبارة عن صُرة بداخلها جديلة شعر سوداء:

- ادفن هذه في أرض مكة.

- وما هذه ؟

- كانت والدتك تتوق إلى مكة ولكن القَدر منعها من ذلك؛ فقصصت هذه الجديلة من شعرها قبل أن أواريها الثرى؛ ادفنها في مكة يا آزر لترتاح روحها.

---

٢٢ اسم (الفُلك) يعني مدار النجوم.

ودَّ آزر لو أنه يُدخل يده بين أضلاعه ويدفن تلك الجديلة السوداء في تربة قلبه، قال وهو يقبض على الجديلة بين أصابع يده:

- سأفعل.

ثم ركل الحصان بكعبي قدميه،

ليصهل الفُلك ثم ينطلق به صوب الحجاز،

كان آزر يبتعد من هناك وهو يتمنى لو أن الأيام تدور تجمعه قريبًا بصاحبه ليث، لقد كانت الأعوام الستة التي قضاها في السجن موحشة، ولكن بالنسبة إليه: إن كان السجن هو الثمن الذي كان يجب عليه أن يدفعه ليلقى شخصًا وفيًا حَسن السريرة مثل ليث فهو مستعد لأن يدفعه مرارًا وتكرارًا عن طيب خاطر.

١٠

مكة

ليلًا،

خرج الحارث بن الأجهر من دار الندوة متأخرًا وسار في الزقاق الذي يُفضي إلى داره وهو يرفع رأسه متأملًا السماء الخالية من القمر والنجوم؛ ويتمتم متوجسًا:

- لتحمينا الآلهة مما تخبئه لنا هذه الليلة المعتمة ..[٢٣]

عند تلك اللحظة أحس بمعدن بارد يُلامس عنقه يتبعه صوتٌ قوي هامس من الخلف يقول:

- كل آلهتك المنتصبة حول الكعبة لن تقوى على إنقاذك مني هذه الليلة.

- من أنت ؟

- ألم تعرفني بعد ؟! .. ألا يذكرك هذا الصوت بأحد يا حارث ؟

٢٣ كان بعض العرب يتشاءمون من الليلة حالكة الظلمة.

قال ورائحة الخمرة تفوح من فمه:

- واللات والعُزى لولا الخمرة العابثة برأسي لقلت بأنك آزر .. ولكن هذا لا يمكن أن يحدث؛ فآزر قد أُقصي بعيدًا عن أرض الحجاز وهو لن يعود إليها أبدًا.

هنا أداره آزر ونظر إلى عينيه وهو ما يزال يُثبت الخنجر على عنقه:

- بل هو آزر أيها الحارث .. انظر بنفسك .. آزر الذي تآمرت لإبعاده مع ذلك اللعين أحنف، ودبرت معه أمر سرقة الخاتم؛ وقد حان أوان معاقبتك على هذه الفعلة.

- وتظن أن سادة البطحاء لن يعرفوا بأنك الفاعل ؟

وهو يضغط الخنجر على عنقه أكثر: لا يُهمني مصيري بعد أن أُخلص الدنيا من شرورك.

- لا تفعل يا آزر؛ فتندم طوال عمرك !

وهو يضغط بالخنجر أكثر حتى بدأت بعض قطرات الدم بالتساقط من عنق الحارث:

- أعطني سببًا واحدًا يدفعني لعدم قتلك.

أدرك الحارث أن آزر جادٌ فيما هو مُقدم عليه .. وأنها ليست غير لحظة أو أخرى، حتى يجر نصل الخنجر على عُنقه فيُنهي حياته؛ لذلك كان عليه أن يعطيه السبب:

- أيكفيك سببًا لو أخبرتك أنني أبوك ؟

مشاعر من الرعب والصدمة والذهول جميعها ظهرت على تقاسيم وجه آزر وهو ينظر بحقد إلى عيني الحارث غير مصدق، أيكون ما قاله حيلة لينقذ بها نفسه من الموت ؟

أم أنها الحقيقة ؟

– أبلغ بك الجُبن أن تكذب لتُنقذ نفسك ؟

– ماكنت لأكذب في أمرٍ كهذا، ودونك عُنقي الآن فاقطعها إن شئت.

لم يكن آزر ليتخيل أن هنالك قوة قادرة على كفه عن قتل الحارث، ولكن تلك الجملة التي سمعها للتو استطاعت بالفعل أن تهز أركانه وتوقف يده الممسكة بمقبض الخنجر:

– يُمكن لعُنقك أن تنتظر قليلًا.

– هلمَّ بنا إلى الدار لنتحدث في خلوة من الناس، وأخبرك بالحقيقة.

– وما الذي يَضمن لي بألَّا تكون في دارك مكيدة جديدة ؟

قال الحارث:

– واللات والعُزى ما دبرتُ لك مكيدة إلا ونصرتك السماء عليَّ؛ وهذا عهد مني إليك بألا مكر ولا خديعة بعد اليوم.

قال وهو يزيح الخنجر عن عنقه:

– امض بنا إلى دارك إذًا.

١١

دار الحارث بن الأجهر

"الحقيقة"

راح الحارث يحكي لآزر كيف بدأت هذه القصة منذ البداية:

- كانت أمك النوراء تنتمي إلى مجموعة من القبائل المَنفية التي جاءت من نجد واستوطنت أطراف الوادي .. وكان السادة لا يحبون تلك الجماعة لأسباب تتعلق بحروب قديمة بيننا؛ وهذا ما جعلنا نذيع بين العرب أن من يتعامل مع تلك القبيلة يكون عدوًا لنا ونكون عدوًا له فنمنع عنه التجارة والحج؛ ولذلك لم أستطع أن أُكاشف أحدًا بحقيقة حبي للنوراء وقصة زواجي منها؛ وكنت أحرص كل الحرص على ألَّا يعرف أحدٌ بتلك العلاقة؛ فأُطرد من أرض مكة وأُحرم من السيادة، وذات مرة سافرتُ في تجارة إلى الشام وحين عدتُ بعد ستة أشهر ذهبتُ لأرى النوراء في دارٍ كنت قد اشتريتها بعيدًا عن أعين الناس، وما إن دخلتُ الدار ورأيتها حتى صعقتُ وأنا ألاحظ بوادر الحمل على جسدها؛ فأقسمتُ عليها أن تقتل الطفل فور ولادته.

بعد ثلاثة أشهر من ذلك وحين جاء موعد الولادة قامت النوراء بولادة طفلها سرًا بمساعدة أختها الصُغرى، وحين بات الطفل بين يديها منعتها أمومتها من أن تُفرط فيه؛ فحملته وأختها إلى الكاهن شِق لتطلب منه المشورة؛ فقرّب الكاهن شِق الرضيع منه ومسح على جبينه بكفه الوحيدة وقد هاله أن يرى ما كان مكتوبًا من الأسرار على تلك الجبين، فقال محذرًا:

- إنَّ لهذا الفتى نبوءة تنتظره؛ موته سيكون خطأ جسيمًا.

- وما نفعل - قالت الأخت - شُر علينا أيها الكاهن ؟

- خذاه إلى جبل أبي قُبيس، واتركاه هناك.

- لماذا هذا الجبل - قالت الأم - لماذا هو دون غيره ؟

قال الكاهن شِق يخبرهما عن أسطورة ذلك الجبل:

- عندما فاض طوفان النبي نوح، وأَغرق كل يابسة على الأرض كان جبل أبي قُبيس هو المكان الذي استأمن الله في جوفه حجر الكعبة الأسود، ومن أجل هذا فإن العرب يطلقون على ذلك الجبل أيضًا اسم بالجبل الأمين؛ فضعي طفلكِ عنده أيتها النوراء واستأمنيه عليه فإنه جبل لا يخون أمانة صاحبه.

جبل أبي قُبيس

(قبل سبعة وعشرين عامًا مضت وسبعة أشهر)

عملًا بتلك النصيحة سارت النوراء وأختها نحو الجبل، ولكنها حين وصلت إليه استثقلت ترك رضيعها عنده لا سيما أن وحوش الوادي تسكن بالقرب من هناك، بالإضافة إلى أن سماء تلك الليلة كانت ملبدة بغيوم تُنذر باقتراب المطر؛ فقررت أن تعود بالطفل وتحتفظ به مهما كانت العواقب ولكن أختها نصحتها:

- لا تدعي خوفك يكون سببًا في موته؛ فعشيرتنا لن تقبل فتىً يحمل الدماء المكية في عروقه، وأبوه سيقتله إن عرف أنكِ خالفتِ وصيته؛ فالزمي مشورة الكاهن شِق ودعيه أمانة للجبل.

اقتنعت النوراء بكلام أختها الصُغرى،

ووضعت رضيعها عند سفح الجبل ثم قالت:

- **اللهم ربَّ هذا الجبل، رب إبراهيم وموسى وعيسى، احفظ ابني من بطش أبيه وقومه، ورُده إليَّ ردًا جميلًا.**

بدأت رشات من المطر تهطل، ولكن الأختين كانتا قد سلّمتا أمرهما لله وابتعدتا من هناك دون أن تلتفتا إلى الوراء؛ حتى لا يحنّ قلباهما وتعطفان على صرخات الطفل التي بدأت تعلو بالبكاء مع بدء انهمار المطر عليه، ولو أنهما التفتتا تلك اللحظة إلى الخلف لكانتا بالتأكيد سوف تلمحان الذئبة الضخمة السوداء الغاضبة التي ظهرت من فوق الجبل بعد أن استدعاها صوت البكاء البشري؛ وكانتا بطبيعة الحال ستعودان لتُنقذا الرضيع منها، وحينها كان كل شيء سيختلف إلى الأبد .. ولكن لحسن الحظ أنهما غادرتا من هناك دون أن تلتفتا إلى الوراء.

**

(النذير)

في ساعة متأخرة من تلك الليلة، استيقظ الحارث بن الأجهر فزعًا على صوت يصيح مناديًا بنذير الحرب (واصباحاه، واصباحاه) فالتقط سيفه ودرعه وغادر داره يركض حافيًا كشأن غيره من أهل الوادي نحو جبل الصّفا ليتفاجأ هناك برؤية السيد نُمير بن رَبيعة وهو يُمسك بين يديه طفلًا رضيعًا ويصيح بين الناس متسائلًا:

- أفقد أحدٌ منكم رضيعًا هذه الليلة ؟

وبينما الصمت يعمُّ وجوه الحاضرين كانت هنالك ثورة من الغضب تنشأ في جوف الحارث وهو يدرك لحظتها أن زوجته النوراء لم تتخلص من الرضيع كما أمرها، ثم سرعان ما استحالت ثورة الغضب تلك إلى براكين متفجرة اجتاحت أعماقه وهو يسمع السيد نُمير يُشهد الناس ويُذيع بينهم قائلًا:

- أُشهدكم أنني أسميته آزر وأُشهدكم أنني أكفله في حياتي ومماتي، وأنه منذ اللحظة تحت حماي وجواري؛ يُصيبني ما يُصيبه، ويمسني ما يَمسه، فمن تعرض له بسوء فقد أهدر دمه.

دفعه الشعور بالغضب إلى الرغبة في مغادرة المكان، إلا أنه أدرك بأن مغادرته الآن سوف تلفت الأنظار نحوه بالتأكيد وتوجه أصابع الاتهام إليه؛ فظل واقفًا مكانه متسمرًا حتى إذا انفض الناس من حوله اتجه وحده نحو السيد نُمير وهو يقول له:

- ما لك ولهذا الأمر يا نُمير ؟

التفت السيد إلى مصدر الصوت؛ فرأى صاحبه الحارث مقبلًا إليه:

- أأنت أيضًا تظن أنني جمعت الناس لأمر لا يستحق ؟

قال الحارث محاولًا إقناعه بضرورة التخلص من الرضيع:

- رضيعٌ تأتي به ذئبة سوداء في هذه الليلة الحالكة، إنه واللات والعُزى لأمر يدعو إلى الشؤم؛ فإن شئت الرأي: أرسله خارج مكة؛ فتتخلص من شؤمه ولعنته.

- لا أُخرجه وقد أدخلته حماي وجواري.

- أُخرجه عنك إذًا؛ فأكفيك عناء ذلك.

- صهٍ أيها الحارث، واللات لولا الصحبة التي بيننا لأريتك ما تكره.

تعجب الحارث من ذلك الإصرار في الاحتفاظ بالطفل وهذا ما دفعه لأن يقول:

- صُحبتنا القديمة تجعلني أُدرك أنك لا تفعل شيئًا على عواهنه فأخبرني سر هذا الأمر، وإنك لتعرف أنني صاحب أمين؛ أحفظ لك السر وأصدقك المشورة.

الشيء الذي لم يعرفه الحارث حينها ولن يعرفه إلى الأبد هو أن سيد الوادي نُمير بن رَبيعة كان يعرف أنه أبو ذلك الطفل .. ففراسة السيد التي اكتسبها خلال سنين حياته الطويلة قد أنبأته بأن ذلك الإلحاح المستميت في التخلص من الرضيع لا يأتي عبثًا.

وهذه المعرفة كانت هي السبب الذي جعلته يُكاشفه بحلم تلك الليلة؛ فالسيد لم يكاشف الحارث بصفته صاحبه بل بصفته والد الطفل الذي قرر أن يُدخله كفالته ويتعهد بحمايته حيًا وميتًا، فقال يَقص عليه نبأ الحلم:

– لقد رأيتُ في منامي هذه الليلة أمرًا عجبًا يا حارث: رأيتُ أعاجمَ يأتون من المشرق يركبون الخيل ويعبرون القَفر، ثم يخطفون كوكبًا من سماء العرب.

الحارث يدرك أن نُمير بن رَبيعة رجل صاحب رؤية؛ لا يرى في منامه حُلمًا إلا استحال واقعًا؛ وهذا ما دفعه لأن يأخذ الحلم على محمل الجد ويسأل في اهتمام:

– وما دخل هذا الطفل بهذه الرؤية يا نُمير ؟

– ما إن أمسكَ هذا الصغير لحيتي بيده حتى أعاد إليَّ الحُلم وكأنه بات أمامي حقيقة؛ قلبي يُحدثني أن لهذا الطفل سرًا وخبرًا، وأنه يؤازر قومه حين يكبر؛ ولهذا أسميته آزر .. احفظ عني هذا السر يا حارث ولا تخبر به أحدًا.

**

ما إن أدركِ الحارث حينها أن السيد جاد في مسألة الاحتفاظ بالطفل حتى انطلق نحو الدار التي كان قد اشتراها في أطراف الوادي ليصب جام غضبه على من أقحمه في هذه الورطة:

- ويلكِ من امرأة سوء !

لم تستطع النوراء حينها أن تخفي ابتسامة فرحتها وهي ترى غضب زوجها؛ فهي لا تعلم عن المصير الذي آل إليه طفلها بعد أن تركته عند جبل أبي قُبيس. غضب زوجها الآن يُثبت لها بالدليل القاطع أن الطفل استطاع النجاة من الموت وأنه حيٌّ يُرزق.

صاح غاضبًا عليها:

- أبلغت بك الجُرأة إلى عصيان أمري ؟!

- ما كنت لأعصيك في أمرٍ إلا هذا أيها الحارث.

صفعها على وجهها وهو يصرخ عليها:

- قبحتكِ الآلهة، وقبَّحت فعلكِ !

سقطت النوراء أرضًا بعد أن اختل توازنها، ثم قالت تبرر فعلتها:

- حاولت تنفيذ أمرك ولكن قلبي عصى، وإن للقلب سلطانًا إذا ما أمر لبت له كامل الجوارح بالسمع والطاعة.

لقد أخطأ الحارث عندما طلب منها وهي - الأم - أن تتخلص من ابنها، كان عليه أن يفعل ذلك الأمر بنفسه أو يكلف أحد عبيده الثِقات بفعلها، فجعل يحوم في الحجرة حول نفسه كحيوان يبحث عن طريقة للفرار من قفصه وهو يردد وقد أعماه الحقد:

- سأقتله .. سأقتله .. لا بد أن أقتله؛ فأنجو من هذه الورطة.

ولكنه ما لبث قليلًا حتى اصطدم مخططه بحاجز منيع فوجد نفسه يقول:

- ولكن كيف أقتله وقد كفله نُمير بن رَبيعة، وأشهد الناس عليه ؟!

قالت النوراء تستعطفه:

- اتركه وأعدك بألَّا أخبر أحدًا بحقيقة نسبه.

- لا يكفي هذا الوعد - وأضاف كاشفًا عن مخاوفه: فسرعان ما ستجري السنوات، ويكبر الفتى أمام عينيك فتغلبكِ عاطفة الأمومة وينكشف هذا الستر.

قادتها فطنتها حينها إلى أن تعرض عليه هذا العرض:

- لقد جرى القلم؛ ففكر بأي شيء غير قتله، وسأفعله لك دون تردد.

- يجب ألَّا تظلي أنتِ وذلك الرضيع في مكان واحد.

- أتطلب مني أن أغادر الوادي ؟

- بل تغادري أرض الحجاز كلها؛ وإلا سأقتل الطفل.

كان الحارث يحبها ويُفضلها على نسائه كلهن؛ لذلك لم يخطر ببالها أن قسوة قلبه وخوفه على مكانته قد تصل به إلى هذا المستوى؛ الآن فقط تعلمت أن حب الرجال للسُلطة يفوق حُبهم للنساء بكثير:

- سأرحل، على أن تُعاهدني بعدم قتله.

- أعاهدك بألّا أقتله، بشرط ألّا أراك بعد يومك هذا.

- موافقة.

- ولن تعودي إلى هنا أبدًا يا نوراء .. ولن تسألي عن هذا الطفل أو تتقصين أخباره، سوف تستقبلين أعوامك القادمة بذاكرة امرأة جديدة؛ فتقطعين كل حبل يربطك بالماضي.

- موافقة.

قال قبل أن يغادر: لا أريد أن أعود وأراكِ في الدار.

**

بعد مغادرته الدار خرجت أختها الصُغرى التي كانت طوال الوقت مختبئة خلف باب إحدى الحُجرات، وقد ظهر الرعب عليها وهي تتقدم نحو اختها وتقول في عدم تصديق:

- أأنتِ جادة بشأن الرحيل ؟!

- ما باليد حيلة يا أختاه، أرحل لأحقن دم الصبي.

- وإلى أين ترحلين ؟

- بعيدًا عن الحجاز، إلى حيث تأخذني قدماي وتسوقني الأقدار.

- أمهليني بعض الوقت إذًا لأحزم أمتعتي وآتي معك.

- بل سوف تبقين هنا.

- وأمكث هنا من أجل من ؟!

- تمكثين لأجل ابني الذي كفله سيد الوادي نُمير بن رَبيعة.

- ولكن أباه ..

- انسي أمر أبيه؛ فهو لا يعرفك ولم يسبق له أن رآكِ من قبل.

- لماذا تطلبين مني البقاء يا أُخية ؟

- أريدكِ الليلة أن تذهبي إلى دار السيد نُمير بن رَبيعة، لتطلبي منه أن تعملي عنده مربية للصغار الذين يكفلهم من آبائهم؛ وبذلك تستطيعين الدخول إلى داره بطريقة لا تثير الشكوك حولكِ، فتكونين قريبة من ابني وتعتنين به حتى يكبر ويشتد عوده .. وإياك أن تخبريه بالحقيقة، إياكِ أن تفعلي ذلك حتى لا يُفتضح السر ويعرف الناس حقيقة نسبه فيؤذوه أو يؤذيه أبوه.

- حسنًا سأفعل - وأضافت تسألها: ومتى سترحلين يا أُخية ؟

- الآن؛ يجب أن أغادر دون تأخير؛ فلو عاد الحارث ورآني فإنه سيقتلني دون تردد.

قالت ذلك ثم أضافت توصيها:

- أبعديه قدر ما تستطيعين عن عبادة الأصنام، وأخبريه قصصًا عن النبي إبراهيم ليعرف الحق بنفسه، فيكبر ويكون موحدًا مثلنا.

هزت رأسها بعلامة الموافقة والامتثال ودموعها تحتشد في عينيها، ثم طوقتها بذراعيها ودفنت وجهها في ملابسها وهي تقول من بين أنفاس بكائها:

- سأشتاق إليكِ كثيرًا يا نوراء.

- وأنا سوف أشتاق إليك كثيرًا يا بُثينة.

١٢

آزر
والحارث بن الأجهر

أدرك آزر الآن فقط سبب كره الحارث له؛ فهو بالنسبة إليه بمثابة جرح لم يُشفَ منه، وشبح يُهدد مستقبل سيادته؛ ولذلك كان طوال المدة الماضية يُدبر له المكائد والكمائن ليطرده فيتخلص من ألمه وخطره المحتمل.

- والآن ماذا - قال الحارث - ما أنت فاعل بي ؟

- لقد طردت أمي من الوادي، ولم تعدم وسيلة بعد رحيلها في طردي حتى وصل بك الحال إلى أن تتهمني بسرقة الخاتم، وتتسبب في سجني لمدة ستة أعوام، إنك لا تستحق غير القتل، ولكنك أبي وهذا سبب يدفعني لعدم قتلك.

وكاد أن يطلب من والده الاعتراف به ليخلصه من سوط نظرات الناس التي تجلده بعار ليس له فيه ذنب، ويحرره من وصفه باللقيط لكن الحارث سبقه بأن قال:

- أتحفظ هذا السر، أم أنك تذيعه بين الناس ؟

أحجم آزر عن طلبه وقد أدرك من خلال السؤال رغبته في حفظ السر؛ إنه لا يريد لأحد أن يعلم بشأن زواجه من النوراء فتُنزع عنه سيادة القوم ويُنفى من أرض مكة:

- لا تقلق؛ سرُّك في حِرز - وأضاف متسائلًا:

- لكن وماذا عن كَعب ؟

- ماذا بشأنه ؟

- أهو أخي ابن النوراء ؟

- بل أمه سيدة نساء قبيلتها، وليس لك علاقة به.

ثم قال مشددًا:

- ابتعد عن آل بيتي يا آزر؛ فأنت لستَ مني وأنا لستُ منك.

قال آزر وهو يستدير ويتجه نحو الباب مغادرًا:

- سأحفظ السر، أما نسبك فلا أريده، ونسبي سأصنعه بنفسي.

**

أُعجب الحارث بكبريائه، ولكن الشيء الذي لن يعرفه عن آزر تلك الليلة هو أنه ما إن أصبح وحيدًا فوق الجبل - جبل أبي قُبيس - حتى سمح لدموعه بالانسكاب، وهو يُغمض عينيه ويتذكر في خياله وجه أمه النوراء الجميل ويقول من بين شهقات بكائه: يا رب البيت أعطني القوة لاحتمال هذا الألم، وامنحني ما أستقوي به على بناء مجدٍ يذكره كل العرب، ولا تذرني في العالمين وحيدًا فأشقى بهذه الوحدة طويلًا.

- لستَ وحدك.

ومع سماعه ذلك الصوت أدرك آزر أن الحياة قد تمنحك شخصًا هو كل الناس، فالصاحب الحقيقي هو من يأتي دون مناداة، هو من يفهم دون الحاجة لشرح أو كلام.

- لا شيء يشفع لما أنا فيه غير سماع صوتك يا قَيس.

واستغرق الاثنان في الصمت بينما كانا ينظران إلى السماء كعادتهما دائمًا كلما يلتقيان ليلًا فوق الجبل، في تلك اللحظة سمع آزر وقع خطوات قادمة من الخلف، فابتسم - لأنه عرف القادم - والتفت ليرى أمه الذئبة تهرول نحوه بخطوات ثَقيلة، فرغم أنها نجت من طعنة الأمير مَرحب لها إلا أنها ستظل تعرج ما تبقى من حياتها القادمة، فأقبل إليها يُعانقها بينما قَمر تقترب منه وتقول:

- لقد عدت وعاد إلى الوادي بَريقه.

في حالة أخرى كان آزر سوف يُعانقها هي الأخرى ويلهو معها ببراءة كما كان يفعل معها في السابق، ولكن الستة أعوام التي قضاها بعيدًا عنها جعلتها الآن أمامه تبدو فتاة ناضجة مكتملة الأنوثة وعليه أن يحترم كل حركة صادرة عنه حتى وإن كانت البراءة منبعها.

قال مبتسمًا:

- لقد ذاع صيتكِ في الجنوب يا قَمر، الجميع يتحدث عن قتالك بصِنديد العرب .. ولكنني حتى الآن لا أفهم لم اخترتِ أن تُعلقي اسمي بدلًا من اسمك.

قالت تذكره بما مضى:

- لقد تنازلتَ في السابق عن نيلك اللقب مقابل أن تُنقذ طفلة رضيعة من الوأد .. فلما كبرت هذه الرضيعة كان من الواجب أن تسدد ما عليها من دين.

- أما ورب إبراهيم أنكِ قد رددتِ أكثر مما كان عليكِ.

في تلك اللحظة قطعهما صوتٌ انبعث من خلفهم جميعًا يقول:

- كل شيء في الوادي اشتاق إليك.

التفت آزر نحو مصدر الصوت ليرى بُثينة والتي ما إن اقتربت منه بالقدر الكافي حتى صمتت الأفواه بُرهة من الزمن وتكلمت العيون كاشفة أسرار الأمس؛ فألقت بنفسها تعانقه بقوة وتبكي وكأنها الآن باتت قادرة على عِناق الأثر الوحيد الباقي من أختها النوراء، بينما دفن وجهه في ثيابها وقد لمح فيها ملامح أمه وهو يقول:

- وأنا اشتقت إليكِ يا خالة.

**

في الأيام التالية: لاحظ آزر تغيرًا واضحًا في سلوك أهل مكة تجاهه؛ فأولًا هم يدركون أن قَمر ما كانت لتصل إلى النِزال الأخير في مسابقة الصِنديد وتُبهر الناس بقتالها وشجاعتها إلا لأن آزر هو الذي قام بتنشئتها منذ صغرها .. وثانيًا بسبب ما سمعوه عن أخبار بطولاته المتمثلة في فِراره من سجن الجبل وقتله الأمير مَرحب وهدم قصره، والقصص التي نسجها الناس حوله بإضافة الكثير من الحكايات والتفاصيل المُتخيلة، كل ذلك قد أكسبه شعبية بين نفوس أهل الوادي، وقبولًا خاصًا في نفوس السادة الذين باتوا لا يمانعون أن يكون جالسًا بينهم في دار الندوة ليسمع مشاوراتهم ويُدلي بما لديه من رأي.

وقد أوصلته منزلته الجديدة تلك أن جعلت عامر بن لُكيز عندما وصل من إحدى أسفاره، أن يجمع الناس كلهم حوله ليُشهدهم على ما قد عقد العزم عليه:

- أُشهدكم يا قوم إنني قد أعطيتُ ابنتي قَمر لآزر، وأن زفافهما سوف يكون بعد عودتي من سفرتي القادمة إلى اليمن.

كان أهل الوادي يعرفون عن أواصر الصداقة المتينة التي تجمع آزر بزعيم قبائل الجنوب الأمير ليث بن غامد السيف وهذا ما سوف يُكسبهم مزيدًا من المناعة والقوة؛ فهم الآن لا يصاهرون آزر فقط بل يصاهرون معه حلفاءه الجنوبيين أيضًا .. هذا الأمر هو ما جعل الناس والسادة يباركون تلك الزيجة .. وحده الحارث بن الأجهر كان لديه سبب آخر يجعله راضيًا عنها: **إنه الحب الفِطري الذي يجذب الأب لحب ابنه؛ ذلك الحب الذي قاومه سنين طويلة وحاول قتله ودفنه آلاف المرات، ها هو الآن يظهر إلى السطح رغمًا عنه.**

في ذلك المساء دعاهم عامر بن لُكيز إلى وليمة ضخمة بمناسبة ذلك الخبر، فأكل الناس وابتهجوا دون أن يعلم أحدٌ منهم بالكارثة التي كانت تَزحف في طريقها إليهم؛ فتغشاهم واحدًا واحدًا.

الباب الرابع

بعد شهور ..

١

مجلس التُبع اليماني

كان مجلس التُبع كعادته تلك الليلة: حافلًا بالأعيان والأخلاء يأكلون ويَشربون ويطربون بالجواري وهُن يُغنين ويرقصن وينقرن الدفوف .. وبينما هم في أُنس وطرب إذ التفت التُبع إلى خَليله عامر بن لُكيز وقد بدا أن آثار الخمرة كانت تعبثُ برأسه وتظهر، على شفتيه ابتسامة طفيفة وهو يقول بصوتٍ مرح:

– سمعنا كلامًا عن ابنتك قَمر ؟

عامر وهو يحثه على المواصلة:

– خيرًا يا سيدي ..

– كل خير: سمعنا أنها باتت فتاة ناضجة بارعة الحُسن يتغزل الشعراء بجمالها، وبات الخطاب يأتون إليها فرسانًا وشيوخًا من كل أنحاء جزيرة العرب، وفوق ذلك سمعنا أنها فارسة تُجيد النِزال، وقد غلبت أقرانها قبل عام بلقب صِنديد العرب.

أحس عامر بالفخر وهو يسمع التُبع يُثني على ابنته:

- إنها قُرة عيني يا تُبع الزمان - ثم أضاف بعد هُنيهة من الصمت يَنسبُ لنفسه ما لا يد له فيه: ولقد اعتنيتُ في تأديبها وتعليمها وتدريبها على المبارزة حتى نالت ذلك اللقب.

التُبع يهز رأسه وهو يُتمتم:

- لَعمري إن لك الحق في أن تفتخر بابنة كهذه - ثم أضاف بعد أن أفرغ بعض الخمرة في جوفه:

- وإنك لتعلم يا عامر مودتك في نفسي، ومنزلتك فيها.

- أعلم يا تُبع الزمان.

اتسعت ابتسامة التُبع وهو يقول:

- وإنني لأرغب في أن تكبر هذه المودة، وتعلو تلك المنزلة لتكون مُصاهرة بيني وبينك.

ارتبك عامر بعد تلك الجملة؛ لكنه استطاع أن يُخفي شعور الربكة في نفسه وهو ينظر بثبات مزيف إلى وجه التُبع اليماني الذي واصل قائلًا:

- إنني أريد الزواج من ابنتك قَمر.

٢

بعد انقضاء الليلة عاد عامر إلى مخدعه في القصر،

ورغم أن جسده كان مرهقًا بسبب السهرة .. إلا أن الجملة التي قالها له التُبع قد نجحت في إفاقته وجعلت الأفكار تعصف برأسه: أيكون التُبع بالفعل يريد الزواج من ابنته ؟! .. أم أن ذلك لا يعدو كونه فكرة دفعتها الخمرة إلى رأسه ؟!

في تلك اللحظة طرق أحدهم الباب عليه؛

فنهض ليرى من الطارق وإذ به (اليزيدي) وزير التُبع اليماني ورئيس شؤونه الخاصة:

- اعذرني إن قضضت مضجعك ولكن الأمر عاجل.

لفرط ذهوله نسى عامر أن يدعوه للدخول:

- ما الأمر ؟

- ليس على الباب - قال الوزير - لنتحدث في الداخل.

(داخل الحجرة)

جلس الوزير على الأريكة مقابلًا لعامر وهو يقول:

- لا بد أنك تتساءل إذا ما كان التُبع اليماني اليوم جادًا في خطبة ابنتك قَمر أم أنها لحظة سُكر عابرة.

- أصبت؛ وهذا ما جعل النوم يُجافيني الليلة.

قال الوزير اليزيدي يشرح له الموقف:

- إن توارد الأخبار عن جَمال الفارسة المُلثمة وما فعلته في مسابقة صِنديد العرب العام الماضي قد أثر كثيرًا على التُبع، ولا أُخفيك سرًا أن الكثير في مجلسه قد أسهموا في تعزيز هذا الأمر برأسه حتى أمرني بخطفها له، ولكنني أخبرته أن قَمر تكون ابنتك؛ وهذا ما جعله يُلغي فكرة الخطف ويقرر خطبتها منك.

- ولكنني قد أعطيتها لآزر أمام كل الناس، وكنت قد وعدته بأن أزوجه إياها ما إن أعود من اليمن.

صاح الوزير:

- لأمك الثُكل يا عامر!

لقد عُرف اليزيدي بحلمه،

ولكنه استشاط غضبًا بعد سماعه ذلك وصاح:

- أأقول لك التُبع يخطب ابنتك فيكون هذا جوابك ؟! .. تالله لئن سمعك التُبع تقول هذا الكلام، ليجعلن جسدك الليلة ينام في مكان ورأسك بمكان آخر.

- اكتم عني هذا الأمر، ولاتخبر به أحدًا.

- سوف أنسى ما قلته وأعتبرها لحظة سُكر .. وسأطلب منك أن تفكر مرة أخرى. ولكن ليس في إجابتك فقط، بل فيما سوف تجره إجابتك على قومك من فائدة أو خسارة .. فإن وافقت تكون هذه مصاهرة بين مكة واليمن، وإن رفضت بعث إليكم التُبع جيشًا يُفني قومك ولا يُبقي فيهم صافر نار، ثم يأتي لنا بقمر فتكون للتُبع جارية بدلًا من أن تكون أميرة في قصره.

نهض الوزير واتجه نحو الباب وهو يقول:

- لا أُخفيك سرًا يا عامر أن ذلك الآبق آزر هو الذي قتل عامل التُبع اليماني الأمير مَرحب وهدم قصره وكلفنا خسارة إقليم تُهامة السوداء، وهذا أمر قد كظمه التبع في نفسه ولكنني أحذرك؛ فالملوك تسكت، ولكنها إن غضبت تقطع .. فلا تقطع دابر قومك بنفسك.

وقبل أن يغادر الوزير استوقفه عامر بهذه الكلمات:

- أيها اليزيدي، إنني أناشدك بحق الصُحبة التي بيننا أن تُمهلني حتى أرتحل إلى قومي.

- هذا ليس أمري حتى أُمهلك فيه.

- أعلم، ولكنك أقرب الناس إلى التُبع؛ فاطلب منه أن يُمهلني.

- انس هذا الأمر؛ فالتبع لن ينتظر كثيراً.

على الرغم من أن الأمر متعلق بابنته إلا أن أي إجابة سيقولها ستُلقي بظلالها على الوادي ومن فيه؛ لذلك فهو يدرك أنه أمام طلبٍ لا يمكن أن ينفرد في الإجابة عليه وحده:

- إنك تعرف العرب وعاداتهم أيها الوزير .. ولقد أعطيتُ ذلك الفتى كلمتي أمام القوم أجمع .. ومثل هذا الأمر بحاجة إلى المداولة واتخاذ القرار.

قال الوزير وقد اقتنع بالحجة:

- إذًا تمضي الآن وبسرعة

وأضاف وهو يفتح الباب ويستعد للمغادرة:

- وإياك يا عامر أن يكون الأمر خلاف ما نريد.

**

في تلك الليلة تعالت أصوات طرقات على باب قيس بن هامة الشمال، الذي كان قد اتخذ دارًا قريبة من السوق اليمانية؛ فيكون قريبًا من حوانيت ومخازن سيده المنتشرة في أماكن متفرقة في السوق.

– خيرًا يا سيدي ؟! .. أأصاب المال مكروه ما ؟!

– ليس المال يا قيس، بل هو شيء أعظم.

أدرك قيس على الفور أن هنالك كارثة كُبرى قد حدثت أو أنها على وشك الحدوث:

– أهنالك خطر يتهددك فأضع عُنقي فداءً لك ؟

– امتطِ ظهر حصانك الآن وستعلم خبر الأمر حين نصل مكة.

**

(دار الندوة)

وبعد قرابة العشرة أيام من الركض المتواصل على ظهر الخيل، الركض الذي لا يقطعه غير فترة استراحة قصيرة إما ليرتاحان فيها أو لأجل أن يبدلان جواديهما في الحانات على الطريق بجوادين آخرين نشيطين مع دفع فارق من المال وصلا أخيرًا إلى مكة، وبينما السادة في دار الندوة كعادتهم إذ تفاجؤوا بعامر بن لُكيز يدخل ومعه قَيس وقد بدا عليهما أثر السفر وتعبه، فقال أحد السادة معلقًا:

– أما كنتَ ووكيلك تستريحان من عناء السفر ونراكما في المساء ؟

عامر وهو يتقدم في الدار بصوت جاد مُثقل بالهموم:

- ما جئتُ به لا يحتمل التأجيل.

وما إن سمع آزر - الذي كان يجلس مع الشبان - هذه الجملة حتى أحس بوخزة في قلبه .. أفسح السادة بينهم مكانًا لعامر والذي ما إن جلس حتى بدأ يخبرهم بما دار بينه وبين التُبع اليماني ووزيره اليزيدي.

**

(القرار)

انقسمت الآراء في الدار حيث فئة قليلة ترفض طلب التُبع،

وأغلبية أجمعت على أن رفضهم الطلب سيُدخلهم في أَتون حربٍ لا طاقة لهم بها. وقد جاء الناس على إثر الأصوات ولُجة الصيحات، وراحوا يُحيطون بالدار ليسمعوا جدال السادة حول المسألة .. ذلك الجدال الذي لم يَقطعه غير صرخة للسيد عبد هُبل وهو يُوجه سؤاله نحو آزر:

- ما قولك يا فتى بما سمعت ؟! أَترى أن نُقدم فنحارب التُبع وجيشه ؟! أم ستكون حكيمًا فتتنازل عن خطبتك لها، وتنقذ قومك مثلما أنقذتهم في مرة سابقة.

عن الحقيقة:

لم يكن آزر يرى في قَمر فُرصة للزواج،

لقد كان محايدًا فيما يتعلق بشأنها منذ البداية، يؤدي واجباته تجاهها مدفوعًا بالأمانة التي كلفه بها عامر من جهة، وبرغبته الخاصة لتحقيق النبوءة المتعلقة بها من جهة أخرى، نعم هو يُحبها ولكنه حُب عفيف لا تُفسده مصلحة أخرى، كيف لا وهو الذي رعاها خلال السنوات الماضية منذ أن كانت رضيعة حتى غدت شابة، فتكونت لديه تجاهها مشاعر تشبه مشاعر الكبير - كبير العائلة - تجاه أحد أفراد أسرته، وقد همَّ حينها أن يكاشف عامر بحقيقة شعوره تجاه قَمر، ولكن الوقت لم يسعفه فقد سافر عامر إلى اليمن صباح اليوم التالي من إعلان الخطبة، ما دفع آزر إلى أن ينتظره حتى يعود ليخبره بالأمر وقد حانت اللحظة المناسبة:

- أنا أتنازل عن خطبتها.

هتف الناس إليه وصفقوا وباركوا فيه رأيه ورجاحة عقله،

وقد أحس عامر براحة شديدة وهو يسمع ذلك التنازل الذي حرره من وعده؛ والذي سوف يفتح له الطريق لمصاهرة التُبع اليماني وبالتالي حيازة المزيد من المال والنفوذ، ولكن آزر لم يلبث طويلًا حتى قطع عليه وعليهم فرحتهم بأن قال:

- ولكنها الحرب أيها السادة ! !

التزم عامر بن لُكيز الصمت رغم علامات الانزعاج التي بدت عليه، وتحدث عبد هُبل في سخط قائلًا:

- أهذه أُحجية يا آزر ؟! .. ألم تقل للتو بأنك تتنازل عنها ؟!

- قلت بأنني أتنازل عن خطبتي لها، ولكنني لا أتنازل عن كرامتها وكرامة قومي.

وأضاف يصرخ في وجوههم:

- أيطلبها التُبع فنرسلها إليه صاغرين وكأننا نُرسل إليه جارية ؟!

قال أحد السادة:

- ليست جارية، بل تذهب إليه زوجة حُرة.

اتفق معظم السادة مع ذلك الرأي وقالوا يُعززون له ويدعمونه:

- نعم، تذهب إليه زوجة حُرة.

تجاهلهم آزر وسدد نظرته نحو عامر وقال يخاطبه:

- ما رأيك أيها العم فيما تسمع ؟!

اتجهت جميع الأنظار نحو عامر الذي استطاع مستعينًا بمهارة التاجر التي يملكها من اخفاء شعوره، والتحدث بحجة مقنعة وبنبرة صوت بدت أنها محايدة:

- أما وقد تنازلتَ عن خطبتك لها فإنني لا أرى في طلب التُبع ما يعيب، إنه من آل حِمير وهم من العرب، وقد طلبها للزواج من أهلها كما تسن الأعراف والتقاليد؛ فتذهب إليه زوجة حُرة.

- أتعرف ما الفرق بين الجارية والحُرة ؟! .. الحُرة هي من يملك أهلها حق القبول أو الرفض .. بينما الجارية تُساق إلى داعيها إن شاء أهلها أو رفضوا.

صمت السادة فقال آزر وهو يتطلع إلى وجهه:

- أتستطيع رفض الطلب أم لا ؟! جوابك هو ما سيحدد الإجابة.

في تلك اللحظة شقَّ المكان صوت أنثوي،

تقدمت صاحبته من بين حشود الناس التي أحاطت بدار الندوة قائلة:

- بل حُرة يا آزر.

التفت آزر نحو باب الدار؛

ليشاهد صاحبة الصوت - قَمر - وهي تتقدم وسط الدار والجميع ينظرون إليها في ترقب وتساؤل حتى إذا وصلت إلى المكان الذي يجلس فيه والدها عامر بن لُكيز، وهو المكان الذي كان جالسًا عليه قبل زهاء السبعة عشر عامًا حين جاءت الجارية تُبشره بولادة قَمر فأمرها حينها بوأدها .. انحنت قَمر نحو والدها وقبلت يده ثم قالت وهي تنظر إلى عينيه بخضوع وأدب:

- ابعث إلى التُبع يا أبي من يُخبره بأنني موافقة على الزواج به.

٣

بعد زُهاء الشهر من ذلك:

جاءت قافلة مَهيبة محملة بالهدايا والأعطيات الفاخرة، تَرفع راية التُبع اليماني، يتقدمها الوزير اليزيدي وقد استقبله السادة عند تخوم الوادي بالحفاوة والترحاب، مكثت القافلة مدة ثلاثة أيام فقط ثم تحركت عائدة إلى اليمن وفيها العروس - قَمر - يصطحبها والدها عامر ومعه نفرٌ من أقاربها.

فوق جبل أبي قُبيس وإلى جوار قبرٍ صغير بحجم كف اليد، كان آزر قد دفن فيه جديلة أمه النوراء. جلس آزر يُحدق إلى القافلة اليمانية وهي تبتعد بقمره وفي ذاكرته يسترجع حديثه معها .. ذلك الحديث الذي دار بينه وبينها في تلك الليلة التي وافقت فيها على طلب التُبع ..

حيث هجم حينها على الدار كالعاصفة، ركل الباب خالعًا إياه من مكانه وهو يَصيح غاضبًا:

- كيف تجرئين ؟!

كان الوحيد القادر على الوقوف بوجه آزر تلك اللحظة هي أمه حواء؛ فاختارت قَمر أن تندس وراءها لائذة بحمايتها وهي تقول في محاولة لتهدئة غضبه:

- اسمعني أولًا !

قاطعها قبل أن تكمل:

- ستذهبين الآن إلى دار الندوة قبل أن يبعث أبوكِ رسوله إلى التُبع، ستقولين له وللسادة إنكِ لم تكوني بوعيك عندما قلتِ إنك موافقة، ثم حين تنتهين من ذلك سوف أسمع تبريرك.

- ومن يُعطيني الأمان إن غضبوا ؟

- لكِ مني الأمان؛ فلا يمسكِ أحدٌ بسوء.

نجحت حيلتها؛ وقد أعطاها آزر الأمان بشكل مُطلق وهذا يعني أنه حتى هو لن يستطيع حبسها أو إجبارها على شيء لا تريده؛ لذلك خرجت من خلف حواء، وتقدمت إليه حتى توقفت أمامه وهي ترفع رأسها لتنظر إلى عينيه وتقول:

- تذكر أنك أعطيتني الأمان.

كظم غيظه وهو يتطلع إليها وقد أدرك الفخ الذي نصبته له، فواصلت تقول:

- فيما مضى كنتُ سألقي بنفسي إلى قلب النار لو أنك أمرتني.

- وما الذي اختلف اليوم ؟!

- لا شيء اختلف، سألقي بنفسي إلى قلب النار من أجلك أيضًا لو أنك أمرتني ولكن شريطة ألَّا يتأذى أحد من بني قومنا.

ثم أضافت بعد لحظات من الصمت:

- رفضي لطلب التُبع اليماني يعني أنني أُدخل مكة وحلفاءها من العرب إلى الجحيم؛ ولهذا قبلتُ بطلبه، وعصيتُ أمرك، وكُل ما أرجوه فقط هو أن تتفهم موقفي.

لقد اختارت قَمر أن تحمي قومها من بطش التُبع، مثلما حماهم آزر قبل سنوات عندما كاد السادة أن يشتبكوا مع الأمير مَرحب وحاشيته فقرر حينها الذهاب مع الأمير طواعية ليمنع اندلاع الحرب. الفرق بينهما هو أنه حينها كان يملك بصيصًا من الأمل في العودة إلى مكة، ولكن ذهاب قَمر الآن يعني أنها لن تعود أبدًا.

قال لها:

- لا أريدك أن تشعري بأنك عاجزة يا قَمر .. أو أن من حولك غير قادرين على الدفاع عنكِ، بوسعك الآن أن ترفضي، أما العواقب فالرجال يتحملونها.

- ولماذا نُلقي بقومنا إلى التهلكة ؟

- لأننا عرب، وهذا ما نفعله: إما أن نحيا بعزة وشرف أو نهلك جميعنا دون ذلك.

- لا يا آزر، لن أكونَ أنانية وأكون سببًا في دمار من حولنا.

- فاؤمريني وحدي إذًا.

- آمُرك بماذا ؟

- أنتِ بمثابة الروح مني، لا يُنازعني أحدٌ عنكِ حتى أنازعه روحه، فاؤمريني أحمل سيفي ودرعي، وأحارب شياطين الأرض وحيدًا، فأحيا وأموت من أجلك ألف مرة.

قَمر تعلم أن آزر لا يُبالغ،

فقد جعلته الظروف الصعبة التي نشأ عليها مستعدًا لفعل أي شيء من أجل أصحابه وأفراد عائلته. أمرٌ واحدٌ منها فقط كفيلٌ بأن يجعله يمتشق درعه وسيفه ويحارب جيوش اليمن وحده ولكنه عزيزٌ عليها؛ وهي ليست مستعدة لتعريضه للخطر، وهذا ما جعلها تتمسك برأيها.

- إن هذه الكلمات هي أغلى ما سآخذه معي في رحلتي إلى اليمن وسأحتفظ بها في قاع قلبي لتُعينني على ما سوف أُلاقيه في قابل أيامي وداعًا يا آزر.

**

(فوق الجبل)

مكث آزر يُشيع بعينيه قَمر وهي تبتعد ويتذكرها حين كانت صغيرة تلهو ببراءة بين الماشية في مراعي الوادي .. لقد مضى الوقت سريعًا وكبرت تلك الطفلة الشقية، وها هي الآن ترحل إلى مكان تعيش فيه حياة جديدة في كنف رجل آخر، فتُنجب أولادًا سوف يكبرون وهم يحملون في غرائزهم حُب أمهم إليه وإلى مكة والذئبة حواء، وانتظار عودة قَيس من اليمن كل شهر مرة ليمكثوا جميعًا فوق الجبل لليلة واحدة، ينظرون إلى السماء وبُثينة تغني لهم وتقص عليهم القصص وتنشد الأشعار وتغني.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يجرب فيها قَهر الرجال، فكانت عيناه تذرفان الدموع ولكنها دموع تسيل إلى الداخل؛ حتى كاد قلبه أن يغرق في بِركة دموعه.

جلست بُثينة إلى جواره وأسندت رأسها إلى كتفه وهي تقول:

- كأني أرى الوادي وقد أظلم، وما كنت أحسب أن الغياب قد يُطفئ وهج الشمس يومًا.

كان الموقف بالنسبة إليه أكبر من الكلام،

فصمت بينما ظل بصره متشبثًا بالهودج الذي تجلس فيه قمر،

حتى اختفى خلف الغبار وكثبان الرمال .. لطالما كانت تلك الفتاة بضحكاتها وكلامها المُحبب، ودفاعها عنه وتعلقها به، وتقليدها له في جميع تصرفاته، سببًا رئيسيًا في اشباعه بالعاطفة التي حُرم منها عندما كان صغيرًا، أما الآن فقد أحس بأنه عاد يتيمًا من جديد.

لقد فعل ذلك الفتى المستحيل ليتصالح مع الحياة،

ولكن يبدو بأن الحياة كانت ترى بأن المستحيل وحده ليس كافيًا.

٤

واصلت القافلة سيرها متجهة نحو اليمن، وبالرغم من أن كل شيء بدا طبيعيًا حتى اليوم الثالث من المسير، إلا أن الوزير أحس ذلك النهار بشعور غامض يخبره أن ثمة شيئًا خطيرًا على وشك الوقوع؛ وهذا ما جعله يُشدد الحراسة حول القافلة ويطلب من الحراس إبقاء أعينهم مفتوحة ويقظة.

ساعات قليلة بعد ذلك وحدث ما كان الوزير قد توجس منه؛ حيث تفاجأت مقدمة القافلة بطليعة من الخيول تقترب، يمتطيها فرسان مسربلون بالسواد والحديد ما جعل الوزير يصرخ:

– احموا الهودج، إنها غارة ! !

وسرعان ما هجمت تلك الطليعة على حرس القافلة اليمانية، وقد بدا التفوق واضحًا لصالحهم؛ فقد استطاعوا أن يقضوا على نصف الحراس من الهجمة الأولى فقط.

كان ذلك التفوق الواضح للمهاجمين، هو ما جعل عامر يجد نفسه مضطرًا ليساند حرس القافلة، ولكنه قبل أن ينطلق بحصانه قذف سيفًا إلى داخل الهودج وقال:

- إياك أن يأخذوك حية يا قَمر!

التقطت قَمر السيف المُلقى إليها وقفزت من الهودج وراحت تشارك في القتال.

**

قاتل وزير التُّبع باستماتة،

لكنه سقط صريعًا بعد فترة من الزمن،

وسقط معه جميع الحرس بينما ظل عامر بن لُكيز يقاتل كالأسد؛

فعلى الرغم من أنه قضى جُل حياته في التجارة إلا أن ابنته كانت دافعه الذي جعله يقاتل بقوة لم يعهدها في نفسه من قبل .. في تلك الغارة لم يكن عامر هو العائق الأكبر أمام المهاجمين بل كانت تلك الفارسة التي لا يُشق لها غبار والتي أرسلت الكثير من مُهاجميها إلى الموت؛ ما جعل القائد يأمر أعوانه قائلًا:

- عليكم بالرجل!

أحاط عدد من المهاجمين بعامر بن لُكيز وجعلوا يقاتلونه حتى أسقطوا سيفه من يده بعد أن أصابوا كتفه بجرح بليغ .. فصرخت قَمر وهي ترى والدها يسقط بين أيديهم:

- أبي!!

ابتسم قائد المهاجمين وقد أدرك أن تخمينه كان صحيحًا؛ فقد لاحظ منذ البداية كيف أن ذلك الرجل حذف بالسيف إلى العروس داخل الهودج وهو يوصيها (إياك أن يأخذوك حية يا قَمر) فتلك الجملة لن يقولها لها غير والدها.

وضع القائد سيفه على عنق عامر وطلب من الفتاة:

– ألقِ سيفكِ، ولن أقتل أباك.

ميّز عامر في حديث القائد لهجة أعجمية، فصرخ على ابنته:

– إياكِ أن تُلقي سيفك، فلا أمان للأعاجم !

قَمر وهي تنظر إلى قائد المهاجمين:

– ما الذي يضمن أنك لن تقتله بعد أن أُلقي بسيفي ؟!

– مهمتي أن آتي بكِ، ولا يُهمني هذا الرجل في شيء .. فإن ألقيتِ سيفك تركته يمضي.

– أتقسم على ألّا تؤذيه ؟!

قطع والدها عليهما الاتفاق بأن قال:

– قَمر أريد أن أموت غير مُنشغل البال عليكِ، لأنني أعلم أنكِ مُتّ معي؛ فلا تتركي سيفك وقاتلي حتى تُبيديهم أو يقتلوك فلا أمان للأعاجم يا ابنتي !

لم يكن بوسعها أن تُضحي بوالدها:

- هل تُقسم على عدم أذيته أيها الفارس ؟

- نعم - قال قائد المهاجمين - أُقسم لكِ على ذلك.

ألقت قَمر السيف من يدها وما إن فعلت ذلك حتى اندفع نحوها ثلاثة من المهاجمين يُقيدونها بالحبال حتى يضمنوا عدم مقاومتها، ولما انتهوا من تقييدها قالت قَمر وهي تنظر للقائد:

- لقد التزمتُ بجانبي من الاتفاق، وبَقي عليك أن تلتزم بجانبك.

ابتسم القائد الأعجمي وهو ينظر إلى عينيها ويقول:

- كان عليك أن تسمعي كلام أبيك.

ثم طعن بسيفه بطن عامر وأخرجه من الجهة الأخرى؛ ليسقط ابن لُكيز وهو ينظر إلى عيني ابنته ودمه يسيل من فمه وشفتاه تتحركان في رعب وحسرة:

- ليتكِ استمعتِ إلى نصيحتي.

لم يُبالِ المهاجمون بصرخة الفتاة، وبكائها على أبيها المقتول، وحملوها معهم ثم انطلقوا بها نحو مكان ما دون أن ينتبه أحد منهم على الجندي اليماني الوحيد في حرس القافلة الذي نجا من الموت، ونهض بعد أن غادروا من هناك.

٥

ظهيرة ذلك اليوم: تفاجأ أهل الوادي برؤية رجلٍ مُلطخ بالدماء يعدو بفرسه صوب الكعبة؛ وقد أدرك جميع من رآه بأن هنالك أمرًا جللًا قد حدث؛ فهذا الرجل كان ضِمن حرس القافلة اليمانية، ولا بد أن رجوعه الآن لا ينذر بالخير، وسرعان ما أكد الجندي اليماني ظنونهم حيث اعتلى جبل الصّفا وراح ينادي:

- واصباااحاه .. واصبااااحاه ! !

احتشد الناس حوله بينما ظل يواصل النداء بصوت مرعوب حتى فقد آزر أعصابه فصاح عليه:

- توقف عن النداء، وأفصح ! !

وما إن أخبرهم الحارس بما حدث عن موت عامر والوزير واختطاف قَمر، حتى أصاب القوم غَمامةٌ سوداء وهم يسمعون ذلك النبأ، تكلم آزر يسأله:

- وإلى أين أخذوها ؟!

- لا أعلم يا سيدي؛ لقد أخذوها واتجهوا بها ناحية الشرق، ولحسن الحظ أن أحدًا منهم لم ينتبه إلى أنني لم أمت، فانتظرتهم حتى رحلوا ثم أتيتُ إلى هنا فورًا.

تكلم أحد السادة مقترحًا:

- هلموا بنا إلى دار الندوة كيما نتشاور في الأمر.

صاح الحارث:

- ليس في هذا رأيٌ أو قول، بل هو الفعل والهِمة.

وأكمل يستلم زمام الأمور بصفته السيد الأكبر للوادي:

- آزر خذ معك بعض الفرسان، واذهب إلى حيث القافلة اليمانية لتستطلع أمرها، وعُد إلينا بالأخبار - ثم التفت نحو عبده جحش وقال يأمره:

- ابعث إلى يثرب، من يخبر ابني كَعب بما حدث ويطلب حضوره فورًا.

**

اصطحب آزر صاحبه قَيس بن هامة الشمال وبعض الفرسان معه، وبُثَينة التي أصرّت أن ترافقهم وانطلقوا جميعًا على ظهور الأحصنة سالكين طريق اليمن .. ولم يتوقفوا إلا على حُطام القافلة المنتشرة حولها الجثث، ترجلت بُثينة عن حصانها وقد أصابها الحزن حين شاهدت جثة سيدها عامر ممددة على الرمال؛ فانحنت نحو الجثة تضمها وتقول:

- لعمري ما أوجعني موت أحدٍ منذ مدة كما أوجعني موتك يا سيدي وإنه ليُحزنني فراقك - ثم أضافت هامسة من بين دموعها وهي تقرّب فمها من أذنه لكي لا يسمعها أحد:

- وكل ما أرجوه هو أن يَتقبلك رَب إبراهيم عنده بقبولٍ حسن.

قَيس وهو يقبض بكفه من تراب الأرض وينثر ما قبضه في الهواء:

- أُقسم لك بعدد حبات الرمال هذه، بأنني لن أدع دماءك تذهب عبثًا، أقسم لك برياح الشمال أن من فعل هذا بك لن يعيش ليفعل مثلها أبدًا.

اقترب آزر منهما وقد كان يقبض حزنه في قلبه وكأنه يقبض جمرة:

- الحزن لا يعيد أحدًا، وفرا دموعكما الآن؛ سيكون لدينا الوقت الكافي للبكاء عليه وعلى قتلانا بعد الثأر.

كَفكَف قَيس دموعه ونهض، ثم جعل يتأمل المنطقة المحيطة حوله بتركيز شديد؛ علّه يجد خيطًا يقودهم لحل لغز اختطاف قَمر، حتى وجد شيئًا غريبًا وقال:

- بالرغم من أن قتالًا شرسًا كان قد دار هنا، إلا أنه لا وجود لغير جثث حراس القافلة اليمنية؛ وهذا يعني أن أولئك المهاجمين قد حملوا معهم جثث قتلاهم.

آزر ولم يفهم سر تلك الملاحظة:

- وما في ذاك ؟!

- إن حملهم جُثث القَتلى يدل على أنهم ليسوا قطاع طُرق يا آزر؛ فقاطع الطريق لن يهتم بحمل الجثث وراءه؛ وإنما هذا أمر لا يفعله إلا جماعة منظمة، تتبع إمارة أو مملكة، وهم ليسوا عربًا؛ فالعرب لا يعتدون على النساء.

بُثينة وهي تعلق بعد سماعها ذلك التحليل:

- إذًا هم جماعة من الأعاجم سطوا على قافلة التُبع اليماني، خطفوا منها قَمر لسبب نجهله ثم غادروا بها إلى الشرق، كما تشير خطوات أحصنتهم على الرمال.

نظر آزر نحو الشرق وعيناه تقدحان غضبًا.

قال قيس بعد قليل وقد فطن لأمر هام:

- التُبع اليماني سيعتقد أننا من يقف وراء تعطيل قافلته؛ وقد يأمر جيشه بالزحف إلينا إن لم نبعث له من يوضح الأمر؛ لذلك يجب أن أذهب إليه فأخبره بما حدث.

آزر يوصيه:

- كن حذرًا من غضبه يا قَيس.

- لا تقلق سأعرف كيف أتخاطب معه.

قال ذلك ثم امتطى حصانه وابتعد سالكًا الطريق اليمانية بينما بُثينة تتوجه بسؤالها نحو آزر:

- ماذا نفعل الآن ؟!

- سنأخذ جُثة سيدنا عامر إلى مكة لندفنها هناك، بينما يظل بقية الفرسان هنا لدفن جثث حراس اليمن - قال ذلك ثم انتخب أحد الفرسان وألبسه عمامته الحمراء وقال يوصيه:

- أريدك أن تذهب من فورك إلى ديار الشدا .. ابحث عن الأمير ليث بن غامد السيف، واطلب منه أن يجلب الجنوبيين معه؛ قل له إن آزر يستجير بأهله وعشيرته.

**

(مجلس التُبع اليماني)

اندفع حاجب القصر إلى التُبع مقاطعًا مجلسه هامسًا في أذنه:

– قَيس بن هامة الشمال، وكيل صاحبك عامر بن لُكيز يقف عند الباب يا سيدي

– أدخله – قال التُبع – أدخله بسرعة.

بالرغم من فظاعة ما جاء به قَيس من أخبار إلا أنه لم ينس مخاطبة التُبع بما يَليق بكونه ملكًا، فقال مع انحناءة بسيطة:

– السلام على تبع الزمان.

– وجهك لا يُطمئن يا قَيس؛ فأخبرني بما جئتَ به.

وما كاد قَيس أن يخبره بما قد جرى وكان حتى انفجر التُبع غاضبًا والتفت نحو قائد جيشه ليأمره بالاستعداد، ولكن قَيس فطن إلى ذلك وسارع بأن قال:

– إنهم ليسوا قطاع طرق يا تُبع الزمان .. بل هم جماعة منظمة من الأعاجم .. هاجموا قافلتك واختطفوا منها عروسك قَمر ثم أفلوا إلى الشرق.

ما إن سمع التُبع بتلك المعلومة حتى هدأ وقد خمن الجهة التي أقدمت على تلك الفعلة؛ وقد دفعه الحذر لأن يتراجع عن إصدار الأمر لقائد جيشه.

- وما ستفعل العرب يا قَيس ؟

- لا أعلم بالتحديد ولكن ما أعرفه هو أنهم لن يتركوا ثأرهم.

- أخبرهم إذًا أنني أتمنى لهم السلامة.

- أهذا يعني أنك لن تشاركنا الثأر حين ينكشف لنا خصمنا ؟

- أنت قلتها بلسانك يا قَيس، خصمكم أنتم وليس خصمي أنا.

- ولكنهم اعترضوا قافلة ترفع أعلامك.

- لقد جرى ما جرى في أرضكم، وأنتم أحق بالثأر مني.

- ولكنها دماء رجالك تلك التي سُفكت على أرضنا أيها التبع.

- المُلك له حساباته - وأضاف كما ليُنهي الحوار:

- تستطيع أن ترتاح في القصر من عناء السفر إن شئت.

- بل أغادر، فلا وقت أبذله في الراحة.

قال قَيس ذلك ثم أدى انحناءة بسيطة وقفل مغادرًا قصر التُبع قاصدًا العودة إلى مكة، بينما مال التُبع اليماني نحو أحد مستشاريه وقال يسأله:

- أيكون الذي أفكر فيهم هُم ذاتهم من هاجموا قافلتنا ؟

- نعم يا تُبع الزمان، ومن غيرهم يجرؤ على ذلك ؟! وقد أحسنت في حيادك؛ فذلك عدوٌ صعب المِراس، ومعه تكون الحرب غير مأمونة الجانب.

(الجنوب)

رصدت العيون الجنوبية دخول فارس مجهول إلى أرضهم، وقد كادوا أن يعترضوا طريقه بعنف ويسألوه عن مبتغاه، لولا أن لمحوا عليه تلك العمامة الحمراء؛ فعرفوا أنه مبعوث آزر ليأخذوه على الفور نحو أميرهم ليث والذي ما إن لسع تلك الحماسة حول عنق الفارس حتى قال في اهتمام وجزع وهو يُشير نحوها:

- ما حلَّ بصاحب هذه العمامة أيها الفارس ؟

- إن صاحبها هو من أرسلني، لأُبلغك أنه يَستجير بأهله وعشيرته.

لم يسأله الأمير عن التفاصيل واكتفى بأن صاح:

- لبيك يا آزر، لبيك يا صاحب السجن !

ثم التفت نحو فرسانه وقال يأمرهم:

- أرسلوا إلى قبائل الجنوب جميعها .. قولوا ليث بن غامد السيف يقول النفير، النفير، فلا تنقضي ثلاثة أيام حتى يجتمع إليَّ كل فارس هُمام في أرض الجنوب.[٢٤]

---

٢٤ اسم (هُمام) مشتق من الفعل " همَّ" ويعني الشجاع، المِقدام.

٦

قَمر

لم تتعافَ قَمر من هول مشهد قتل أبيها؛ لذلك كانت طوال الطريق ساهمة واجمة ولم تُبدِ أي مقاومة أثناء ما كان الخاطفون يقطعون بها الصحراء متجهين ناحية شمال شرق جزيرة العرب، حتى وصلوا بها إلى مدينة محصنة بالأسوار العالية .. وقد عبروا بوابتها الضخمة ثم أكملوا طريقهم إلى أن وصلوا بها قصر المدينة.

داخل فناء القصر:

لاحظت قَمر وجود بركة ماء ذات نوافير دافعة لم يسبق أن شاهدت مثلها من قبل؛ كما لاحظت أيضًا أن الحراس كانوا يرتدون ملابس ذات أشكال وألوان موحدة؛ ثم رفعت بصرها نحو سطح القصر فشاهدت تمثالًا حجريًا ضخمًا لأسد مُجنح أبيض وثمة شعلة من النار فوق رأسه، كل هذه الأشياء جعلتها تتأكد أنها في مملكة أو إمارة لا تنتمي إلى بلاد العرب.

اقترب منها القائد الذي خطفها وأمر بقتل والدها وكان اسمه (رستم) فأنزلها من فوق الجواد ثم حلّ وثاقها وقال يحذرها:

- بعد قليل سيأتي أمير القصر لرؤيتك؛ فكوني مهذبة أمامه.

- لن يرتاح لي بال قبل أن أقتلع هذه الرأس من مكانها أيها الأعجمي القذر.

- إنك تَبدين أكثر جمالًا من هذه الدموية التي تتلفظين بها.

- أعرني سيفًا، وأعدك بأن ترى جمالي الحقيقي.

في تلك الأثناء انفرج باب القصر فهمس لها وهو يحني رأسه:

- احني رأسك.

- خسئت؛ فهذه الرأس لا تنحني إلا عند الكعبة.

خرج الأمير كاهان من داخل القصر بهندامه الأميري وثمة تاج من الذهب مُثبت على رأسه، يتبعه حاشية من الرجال والنساء، وقد وقف ينظر بإعجاب نحو الفتاة التي خطفها فرسانه من أجله وكأنها سِلعة جاؤوا بها من السوق، فقال يخاطب حاشيته:

- إنها أجمل مما قِيل عنها.

آثرت قَمر أن تصمت، فهي لن تستطيع في الوقت الراهن أن تُحرز شيئًا بشتمها الأمير؛ إنها فوق أرضهم وداخل حدود أسوارهم، محاطة بالأعداء من كل جانب وليس عليها إلا أن تتحلى بالصبر والحكمة إن كانت تريد النجاة من ذلك المأزق.

واصل الأمير:

- ما رأيكِ بها يا شاهِنزا ؟

برزت امرأة من وسط الحاشية الأميرية قد بدت في أواخر الأربعينيات من عمرها، قالت بعد أن تأملت قَمر من رأسها حتى أخمص قدميها:

- إنها بالفعل أجمل مما قِيل عنها بكثير - وأضافت تقول: مع بعض الترتيب وإزالة أثر الصحراء عنها، سوف تُصبح هذه الفتاة لائقة بمقامك يا سيدي الأمير.

- إننا نثق بحسن تصرفك؛ فافعلي كل ما يَلزم لجعلها تليق بنا.

قال الأمير ذلك ثم التفت نحو رستم وقال يُحييه:

- ما تزال تُثبت لنا أنك على قدر المسؤولية يا رستم، ولقد استحققت المكافأة التي وعدناك بها.

رستم:

- مكافأتي أنالها حين يكون الأمير راضيًا عني.

ابتسم الأمير وقد استحسن كلامه ثم استدار من هناك وغادر يتبعه أفراد الحاشية، ومع مغادرته انصرف الجميع من هناك ما عدا شاهِنزا التي راحت تقترب من قَمر وتقول لها بصوت ودود:

- أنا مسؤولة النساء في قصر سيدي الأمير كاهان، وسأتولى رعاية شؤونك طوال الثلاثين يومًا القادمة.

- لماذا ثلاثون يومًا بالتحديد ؟

- لأنه الوقت المتبقي فقط ليوم الزفاف.

- زفاف ؟! - قالت قَمر متسائلة - زفاف من ؟!

- زفافكِ من الأمير كاهان ابن كِسرى مَلك الفُرس.

التفتت قَمر نحوها مرعوبة مما سمعت بينما ابتسامة صافية ترتسم على وجه شاهِنزا وهي تقول بلهجة لم تخلُ من غطرسة:

- لقد قرر الأمير كاهان في البداية أن يتخذ منكِ جارية بعد أن سمع شعراء فارس يتغزلون بجمالك يا قَمر، لكنه عندما علم عن فروسيتك وما صنعتِه في مسابقة الأعراب تلك التي لديكم هناك في مكة قرر أن يكرمك بزواجه منكِ؛ وهذا ما جعله يُكلف مساعده رستم بأخذ طليعة من كَتيبة الشهباء وخطفك، وقد وعده إن أحسن أداء مهمته، أن يُعليه في المنزلة؛ فيجعله رئيسًا على حرس القصر.

كادت قمر أن تُصليها وأميرها بأقذع الكلام وأشنعه ولكنها عادت مرة أخرى لضبط لسانها وتذكير نفسها بألا شيء غير الحكمة قد يُنجيها من هذه المصيبة.

- هذا كرمٌ كبير منه، ولكن إن كان ينوي الزواج بي، فلماذا لم يخطبني من قومي كما فعل تُبع اليمن ؟!

- للعرب كبرياء لا أحد يَفهمه؛ فربما يوافق أكبر سيدٍ فيكم على أن يعمل راعيًا لإبل سيدنا الأمير .. ولكن أصغر راعٍ فيكم لا يوافق أن يُعطي ابنته العربية لأعجمي حتى ولو كان ذلك الأعجمي أميرًا أو ملكًا.

- ألم يفكر سيدكم بردة فعل العرب ؟!

ابتسامة ساخرة ترتسم على وجه شاهِنزا وهي تقول:

- سوف يغضب العرب بالطبع لما فعله سيدنا الأمير، ولكن غضبهم ذاك لن يتجاوز أعتاب صدورهم؛ فالأمير كاهان قد أمر القائد رستم وفرسانه الذين معه بألّا يتركوا أثرًا يقود لمعرفة هويتهم؛ وهكذا فالعرب لن يعرفوا مكانكِ أبدًا حتى ولو لجأوا إلى السحر والكِهانة .. أتعلمين ؟! .. حتى لو عرفوا مكانك يا قَمر، فلن يستطيعوا فعل شيء وهم شراذم متفرقة أمام جيوشنا المنظمة وحصوننا المَنيعة.

انخلع قلبها – قلب قَمر – بعد أن استمعت إلى ذلك الكلام، فحتى لو عرف العرب مكانها فما الذي يستطيعون فعله أمام حصون الفُرس القوية وأسوارها الحصينة ؟! .. وهكذا أدركت ألّا سبيل لها للنجاة من ورطتها تلك.

وفي لحظة اليأس الكبيرة تلك تذكرت قَمر قصة قديمة كانت بُثينة قد قالتها ذات مرة لها ولآزر وللذئبة حواء فوق، جبل أبي قُبَيْس، وذلك عندما أمر الله نبيه إبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج .. حينها سأل إبراهيم ربه قائلًا:

"وكيف ينفذ صوتي إليهم ؟!"

أجابه الله حينها: "عليك النداء، وعلينا البلاغ"

لقد أذن النبي إبراهيم بالحج؛ فتحركت الرياح وتواضعت الجبال حتى أوصلت صوته للناس أجمعين وقد استنتجت قَمر حينها أهم درسٍ في حياتها كلها: **وهو أن الإنسان مسؤول عن السعي فقط أما النتيجة فيأتي بها الله كيف وحيث شاء** .. لذلك عليها الآن ألّا تفكر بما هو ممكن وغير ممكن، عليها فقط أن تؤدي جانبها من السعي وتترك البقية لرب السماء:

– ألديكم سوق في بلادكم هذه يا شاهِنزا ؟

ضحكت شاهنزا على ذلك السؤال الذي رأته ساذجًا وقالت:

- بل لدينا أسواق عديدة في بلادنا، أصغر سوقٍ فيها يفوق مساحة أسواق مكة كلها.

- أتعتقدين أنكِ تستطيعين أخذي إلى أحدها ؟

- أنتِ لستِ بحاجة إلى شراء شيء؛ فقصر الأمير فيه كل ما تحتاجين وأكثر.

- وأجد كُحلًا وحناء، وحُليًّا عربية هنا ؟!

- ما لكِ وللزينة العربية يا قَمر، بل نُزينك بزينة فارس.

- لو كان الأمير يرغب برؤية الزينة الفارسية لكان قد اختار أن يتزوج بإحدى بنات فارس، ولكنه اختار فتاة عربية ولا بد أنه يرغب برؤيتها متحلية بزينة قومها.

فكرت شاهِنزا قليلًا قبل أن تقول:

- ربما تكونين محقة في هذه - وأضافت: على كل حال أستطيع أخذك إلى السوق العربية، ولكن قبل ذلك علينا أن نطلب الإذن من سيدنا الأمير أولًا.

- بل نذهب دون أن تستأذني أحدًا.

تسلل الشك إلى قلب شاهِنزا، ولكن قَمر بادرتها قائلة:

- تخيلي كم ستكون مكافأتكِ عظيمة عندما يدخل الأمير على عروسه ليلة زفافها، ويتفاجأ بها أمامه متحلية بزينة بني قومها ؟

فكرت شاهِنزا قليلًا وقد وجدت أن قمر معها حق؛ فلا بد أن يُجزل الأمير لها مكافأة حسنة إن هي فاجأته بذلك؛ ولكن ثمة ما يمنعها من الموافقة:

- وما يضمن لي أنكِ لا تهربين ؟!

- أتهرب فتاة يخطبها الأمير بن كِسرى ؟!

ثم استطردت قائلة بعد أن أدركت أن إجابتها ليست مقنعة:

- وكيف أهرب، وأنا لا أعرف شيئًا في هذه المدينة الكبيرة، أو أعرف أحدًا يُساعدني فيها ؟

- قد تكونين صائبة ولكنني بحاجة لضمانة أكبر.

- ما هي الضمانة المطلوبة ؟

- أن تُقسمي بالكعبة؛ فقد سمعت أن العرب لا ينكثون كلامًا أقسموا عليه بالكعبة.

- أقسم لكِ بالكعبة ألَّا أهرب.

لم تكن المخاطرة كبيرة بالنسبة إلى شاهِنزا؛ فقمر في أرضٍ بعيدة عن العرب وهي لا تدل بلاد فارس أو تعرف فيها من قد يساعدها على الهرب، فأخذتها إلى السوق العربية القريبة من القصر ودفعت لها بعضًا من المال لتساعدها على شراء حاجاتها ..

٧

مَكَة

انقضت أيامٌ عديدة، وأهل الوادي يتقصون الأخبار، ولم يتركوا وسيلة للوصول إلى مكان قمر إلا وسلكوها ولكن دون فائدة، وبينما هم في مباحثاتهم في دار الندوة ذات مساء إذ دخل عليهم الدار رجل أعرابي وقد بدت عليه آثار السَفرِ والترحال:

– يا مَعشر العرب – قال رافعًا يديه – يا مَعشر العرب .. اعذروني على تطفلي في داركم .. ولولا أن الخطب جلل، لما اقتحمتُ عليكم مجلسكم هذا.

دارت الرؤوس صوب الرجل وأخذوا يُنصتون إليه وهو يقول:

– لقد كنت في تجارة لي في أحد أسواق بلاد **باران الفارسية**، عندما توقفت أمامي عربة يجرها زوج من الأحصنة، ونزلت منها امرأتان بدت الأولى أنها تنتمي لحاشية الأمير كاهان فقد كان ذلك واضحًا من خلال العربة الفاخرة التي هبطت منها ومن خلال لباسها الفاخر أيضًا، بينما الأخرى كانت فتاة شابة جميلة بدت عليها أمارات الحزن وإن تظاهرت بعكس ذلك.

**

(السوق العربية
في بلاد بارانـــ الفارسية)

تقدمت المرأة الفارسية حتى وقفت عند عتبة باب دكان التاجر حسن، وقد بدا عليها الاشمئزاز وهي تسد أنفها بيدها وتقول بصوت مكتوم:

- ما هذه الرائحة الكريهة بربك أيها العربي ؟!

ابتسم التاجر حسن الذي كان يعرف ما ترمي إليه المرأة؛ فقد كان الكثير من الفُرس يشمئزون من رائحة الحناء العربية، فقال بلطف ودماثة تاجر عَتيق اعتاد مسايرة زبائنه:

- لو كنت أعرف بقدومك لكنت قد أمرت الصبيان بحمل الحناء بعيدًا، وتعطير الدكان بالزعفران الفارسي يا سيدتي.

لم تُعر المرأة مجاملته اهتمامًا والتفتت نحو الفتاة تخاطبها:

- سأنتظركِ عند باب الدكان ريثما تنتهين من شراء ما تحتاجين.

كان جميع من في دار الندوة ينظرون إلى التاجر بأعصابٍ مشدودة وهم ينتظرون سماع المزيد، قال التاجر حسن وقد وصل إلى خلاصة ما جاء من أجله:

– دخلت الفتاة إلى الدكان وبدأت تتخير زينتها من الأرفف .. ولكني كنت أعلم من خلال نظراتها أنها لم تكن ترغب بشراء شيء، كانت كأنها تريد أن تخبرني شيئًا ولكنها تنتظر اللحظة التي تغفل فيها المرأة الفارسية عن مراقبتها، فأرسلتُ أحد صبياني للمرأة الفارسية ليسألها ما إذا كانت تريد أن تشرب شيئًا أو أن نسقي أحصنة عربتها .. وما إن نجحت خطتي وانشغلت المرأة بالصبي حتى التفتت الفتاة نحوي تسألني قائلة:

– من أي العرب أنت أيها الرجل ؟!

– من أرض هَجر ..[٢٥]

قَمر وقد اطمأنت حين عرفت أنه من تلك الأرض:

– أنعم يا ابن هَجر .. تالله إنك لمن أرض كريمة لا يُضام من يَنتخيها، وإنك لمن خير من يحمل رسالتي هذه.

قال التاجر:

– أُسلمها لراعيها يا بنيتي ولو كان في ذلك ضرب عنقي؛ فأخبريني.

– اذهب إلى مكة، وأذن للناس في الحرب، أبلغ العرب أن الفُرس خطفوا قَمرهم.

---

٢٥ (هَجر) هو اسم تاريخي لمنطقة واسعة في شرق الجزيرة العربية، تشمل ما يُعرف اليوم بمحافظ الإحساء.

(دار الندوة)

وبعد أن انتهى التاجر حسن من كلامه تأمل وجوه السادة وقد بدا عليهم التردد والقلق؛ فقد كان آخر ما يتمنوه أن يكون للفُرس يدٌ بخطف قَمر، قرأ التاجر ترددهم ذاك فقال يَحثهم:

- ما كان للأعاجم أن يسبوا فتاة عربية؛ فهُبوا دفاعًا عن شرفكم وكُل العرب معكم.

ثم استدار التاجر مغادرًا، فأوقفه أحد السادة:

- إلى أين يا أخ العرب، ألا تجلس فنُكرمك ؟

- لا وقت عندي، سأطوف على قبائل (أرض البحرين)[٢٦] وسوف آتي بهم مع فرسان قومي، ضيافتنا سوف تكون شرب دم المعتدي.

وبعد أن رحل التاجر حسن من هناك، التفت قَيس نحو السادة وقال:

- أما وقد علمنا من فعلها، فما عاد الأمر يحتمل الكلام.

قال السيد عبد هُبل في حيرة:

- وما عسانا نصنع والفُرس خصمنا ؟

تدخل كَعب بن الحارث بن الأجهر:

- الأمر بسيط يا سادة: نقاتل !

أحد السادة معترضًا: بل نفاوض.

---

٢٦ يُقصد بأرض البحرين هنا ما يُعرف قديمًا (بأرض البحرين الكُبرى) وهي المناطق والمدن التي تقع على الساحل الشرقي للجزيرة العربية.

قال كعب:

- ما أُخذ بالدم لا يُسترد إلا بالدم.

انبعث الصوت من زاوية الدار، وقد كان مصدره آزر:

- إنها الحرب، فلتمطر السماء دمًا.

قال سيدٌ آخر معترضًا:

- إن من خطفها ليست قبيلة نشن عليها غارة ونمضي، إنهم الفُرس.

صاح آزر بصوت كأنه جلجلة الرعد:

- **ولو كانوا شياطين الأرض لما منعني هذا من قِتالهم.**

قال أحد السادة معاتبًا:

- إنك لا تتحدث بمنطق العقل.

كاد آزر أن يتكلم، ولكن كَعب بن الحارث سبقه بالرد:

- ألا تبًا لعقل يُورد الذُل لأهله.

تدخل عبد هُبل:

- من يسمعكما تدافعان عن بعضكما يعتقد أنكما أخوان، ولا يصدق ما كنتما عليه في صِغركما من مشاجرات وعداوة.

ابتسم شيء ما في داخل الحارث بن الأجهر وهو يسمع لتلك الجملة، قال كَعب الذي لا يعرف بعد بحقيقة ما يكونه آزر بالنسبة إليه:

- أعداء الأمس، توحدهم كرامة قومهم.

آزر متفاخرًا:

- نِعم الفتى أنت يا كَعب

ثم أضاف يخاطب المجلس ومن فيه: أما أنا فسأمضي في هذا الأمر حتى لو كنت وحدي، فمن أراد أن يلحق بي، فإنني في بطن الوادي وإنني لن أنتظر طويلًا.

بعد مغادرته التفت جميع السادة نحو صاحبه المقرب وقالوا له:

- إننا نشهد أنك لمن أرجح الناس عقلًا يا قَيس، فالحق بصاحبك وأرشده إلى الصواب.

- بل ألحق به ولا أتركه ما دامت يدي تصل مِقبض سيفي.

ومع مغادرة آزر وقَيس من الدار، نهض كَعب ومعه شباب مكة كلهم فقال يتحدث بلسانهم:

- كلنا سنمضي مع آزر، ولن نعود إلا بَقمر أو نَهلك دونها.

ورغم الحياد الذي التزم به الحارث بن الأجهر منذ البداية إلا أن شيئًا من الفخر قد مازج نفسه وهو يرى ابنيه - آزر وكَعب - وهما لا يترددان في إلقاء نفسيهما في المهالك من أجل الشرف والعِزة .. التفت عبد هُبل إليه وقال يخاطبه:

- أيرضيك هذا أيها الحارث ؟

كانت هذه المرة الأولى التي يبدو فيها الحارث حائرًا لا يعرف الصواب؛ فمهاجمة الفُرس تعد بمثابة الانتحار، والسكوت عما حدث عار لا تطيقه النفوس العربية.

– ما ترون يا قوم ؟

قال أحد السادة مبديًا رأيه:

– فكروا بما قد يفعله بِنا كِسرى إن أغضبنا ابنه الأمير.

قال ثانٍ يُعزز قوله:

– أنقضي على مكة ؟! كَعبتها وحجها وتجارتها من أجل امرأة واحدة ؟! هذا واللات لهو خراب المال .. وضياع النفس، وهو الجنون بعينه.

هنا انبعث صوت مَهيب من عند باب الدار يقول في عتب:

– ومن سيحج إليكم يا أهل الوادي ؟! .. أو يبيع ويشتري منكم أو يأمن جانبكم عندما لا تنهضون من أجل شرفكم وعِرضكم ؟!

التفت السادة نحو الباب ليجدوا رجلًا طويل القامة حاد القسمات مَهيب الهيئة، أبيض الشعر والذقن يلف حول عنقه عمامة حمراء قانية، فقال الحارث يسأله:

– من السيد ؟!

– ليث بن غامد السيف.

افسح السادة له مكانًا ليجلس بينهم وكلهم يَهتفون:

- حللت أهلًا ووطئت سهلًا يا أمير الجنوب.

- لم آتِ للقِرى يا آل مكة، إنما جئتُ مجيرًا ومحاربًا مع آزر من أجل شرفكم، والذي هو شرفنا وشرف العرب كلهم .. [٢٧]

قال السيد عبد هُبل:

- اجلس أيها الأمير وتشاور معنا.

- لا شورى في أمر ليس له إلا الحزم والسيف.

ثم غادرهم دون أن يجلس معهم أو يهتم بحفاوتهم له،

لم يكن الخوف هو ما يمنع أهل الوادي من النهوض للحرب، بل كانت عادتهم التي تقضي بالشورى في كل أمرٍ يلم بهم .. ورغم تأييد بعضهم للحرب، ورفض البعض الآخر، إلا أن دمائهم العربية بالتأكيد سوف تقودهم في النهاية إلى فعل الصواب، وهذا ما دفع الحارث بن الأجهر أخيرًا إلى أن يتخذ القرار ويقول آمرًا:

- اضربوا الطبل الرجوج، وأذنوا في الناس بالحرب: **قولوا إن الفُرس خطفوا قمر العرب** .. [٢٨]

---

٢٧ (القِرى) بكسر القاف، تعني إكرام الضيف وحُسن استقباله.

٢٨ (الطبل الرجوج) هو طبل ضخم جدًا يتميز بصوت عالٍ ومجلجل، يُضرب بعصا ذات رأسٍ كروية، فينجم عنه صوتٌ عالٍ، وكانت العرب تستخدمه في إعلان الحرب.

في ذلك الهزيع المتأخر من الليل،

انبعث الصوت - صوت قرع الطبل الرجوج - يصدح من قلب وادي مكة العظيم، مصحوبًا بصوت المنادي وهو يؤذن من فوق جبل أبي قبيس في الناس بالحرب، فسمعه العرب في كل مكان وكأن الجان كانوا يحملون الصوت ويطوفون به عليهم.

بدأ الفرسان يأتون إلى مكة أفواجًا أفواج من كل أنحاء الجزيرة العربية، شمالها وجنوبها، شرقها، وغربها، بل وصل صوت نداء قَرع الطبل الرجوج حتى إلى بلدان ما حول الجزيرة، فهب العرب من بقاع الأرض، يأتون من كل فجٍ عميق لنُصرة المظلوم على ظالمه .. وخلال أيامٍ قصيرة كانت قد اجتمعت الجيوش العربية في بطن الوادي، وقد سلموا أمر قيادتهم كما هي عادتهم لأكبر الناس عُمرًا وقدرًا - الحارث بن الأجهر - والذي تنازل عنها لآزر قائلًا:

- إنك الداعي لهذه الحرب، وإنك أحق الناس بالقيادة وحمل الراية.

مانع آزر في البداية ورفض احترامًا لمن هو أكبر منه، ولكن الحارث همس في أذنه ممازحًا وبصوت حرص على ألّا يسمعه أحد ممن كانوا حوله:

- خذ الراية يا آزر؛ فلا فرق بين ابن وأبيه.

في ذلك الموقف الصعب ابتسم آزر على الرغم منه وهو يتقلد قيادة الجيش.

وعند اكتمال الصفوف وحوله من حوله من أصحابه لَيث وقَيس وكَعب، والتاجر حسن الذي ارتدى لباس الحرب وقد جلب معه الفرسان المغاوير، رفع آزر يده وأمر بالزحف نحو شمال شرق الجزيرة العربية .. وما إن بدأ الجيش بالتحرك نحو بلاد باران الفارسية حتى تقدمت من ورائهم نساء العرب يُخطرفن وينشدن موثبات الحرب، تتقدمهن بُثينة التي سواء عاد آزر من هذه الحرب أو لم يعد، سيظل يحب وجهها الأسمر الجميل المزدان بندبات المخالب الثلاث .. [29]

**

(الزحف نحو الشرق)

بعد مرور تسعة أيام كان الجيش قد ابتعد كثيرًا عن الوادي،

ورغم ذلك إلا أن الرياح كانت ما تزال تَنقل على متنها تلك الموثبات وتدسها في أُذن كل فارس في الجيش، فتزيد من عزمهم وحماسهم لملاقاة العدو، وحده كان آزر الذي يتقدم الجيش ممتطيًا ظهر حصانه الفُلك ويلف العمامة القانية على عنقه، وحده كان يسمع تلك الموثبات ويُميز فيها صوتين كانا يأتيانه من السماء، صوت معلمته العامرية ووالدته النوراء تُنشدان مع نساء العرب ما كُن يُنشدنه من موثبات:

" الثأر الثأر يا حُماة الدار، ابطشوا بالمهند[30] كُل غدَّار،
وأطفئوا بالدم لجَيج النار، أعيدوا قَمر العَرب إلى الديار،
اقتلوا الغاصب، احموا العرض، واغسلوا العار "

---

٢٩ (الموثبات) هي أقوال نثرية أو شعرية تكرسها المرأة التي تستغيث لنُصرتها.

٣٠ (المُهند) هو اسم من أسماء السيوف.

٨

المجلس الحربي الفارسي

بدأت أخبار الزحف تصل إلى القصر الفارسي، فاجتمع قادات الجيش بالأمير كاهان وقالوا يُطمئنونه بألّا داعي للقلق؛ وأن ما لديهم من جيش أساسي وتعزيزات قادمة من عاصمة الفُرس تكفي وتزيد للقضاء على العرب من الضربة الأولى؛ فهم وإن كانوا أهل حرب وقِتال إلا أنهم يَفتقدون للتخطيط ومجابهة الجيوش المنظمة.

وبينما كان ذلك المجلس الحربي منعقدًا إذ دخل الرئيس الأعلى للقصر رستم يُمسك بين يديه امرأة هي شاهِنزا مسؤولة نساء الأمير في القصر، ويقول وهو يُلقيها أرضًا:

- لقد عثرنا على السبب كما أمرت يا سيدي.

كان الأمير كاهان قد طلب منه أن يعثر على الشخص الذي سرَّب للعرب مكان قَمر، فمن غير المعقول بعد تلك التدابير المشددة التي اتخذها في عملية الخطف، أن يكون العرب قد وجدوها بهذه السرعة دون أن يكون هنالك من سرَّب إليهم الخبر.

الأمير كاهان يعرف شاهِنزا جيدًا؛ لقد كانت هي التي أشرفت على تربيته وهو صغير؛ وهذا ما دفعه لأن يقول:

- يبدو أنك أخطأت يا رستم؛ فلا يمكن لشاهِنزا خيانتنا.

- لم تخنك يا سيدي ولكن غباءها هو من خاننا جميعًا؛ فقد نُميَ إلى علمنا خبر أنها اصطحبت قَمر إلى سوق الأعراب، وهناك استطاعت قَمر أن توصي أحد التجار بنقل رسالة استغاثتها إلى العرب.

اقترب الأمير من شاهِنزا وهو يسألها قائلًا:

- أصحيح ما سمعت يا شاهِنزا ؟!

- صحيح يا سيدي.

- ولماذا تأخذينها إلى السوق العربية ؟! .. ألم تتوقعي أنها تريد الذهاب إلى هناك لتوصي أحدًا من بني جلدتها لنقل صوت استغاثتها للعرب ؟

- كنت أريد أن أفاجئك بتقديمها لك وهي مُزدانة بحُلة بني قومها.

- ليشهد (أهورا مزدا)[٣١] بأن غباءك فاجأني، واستحق مكافأتي.

قال ذلك وغرز خنجره في بطنها وأسقطها قتيلة.

---

٣١ اسم لكبير الآلهة في الديانة الفارسية القديمة.

ثم أمر الحراس أن يأتوا بجسدها خارج القصر، والتفت ينظر إلى قمر التي كانت طوال الوقت مُقيدة اليدين والقدمين والفم في المجلس الحربي، وكان الأمير كاهان قد جلبها هناك لتشهد بعينيها الخطة والاستعدادات العسكرية التي سوف يُبيد بها قومها.

اقترب منها الأمير، وحلّ وثاق فمها وقال:

- لا أمان لكم أيها العرب.

قمر وهي تبتسم ساخرة:

- غريب أمركم أيها العجم؛ تأخذون ما ليس لكم ثم تغضبون حين ينتفض أصحاب الحق في وجهكم.

- كنت قد أكرمتكِ بأن اخترتكِ زوجة لي، أما الآن فسوف تعيشين لتشاهدي بعينيكِ كيف أطأ جيوشكم بقدميّ، ثم أستبيحكِ جارية حتى يأخذ الزمان منكِ جمالكِ وأُلحقكِ بأهلك.

- خسئت.

الأمير وهو يستشيط غضبًا ويقرّب الخنجر من وجهها:

- اعتذري وإلا شوهت وجهكِ الجميل بهذا الخنجر.

قمر وهي تنظر إليه بتحدٍ وتقول:

- كل ندبة يصنعها خنجرك على وجهي تكون علامة لطُهري وعِفَّتي، فهاك وجهي أيها الوضيع واصنع به ما تشاء من الندوب؛ فإنها زينة ليس لمثلك أن يفهمها.

ظنَّ الأمير للحظة أنها كانت تقول ذلك من باب عدم المبالاة التي تقصد فيها إهانته، وأنه ما إن يبدأ بإعمال الخنجر على وجهها حتى ينطق لسانها بالأسف والتوسلات؛ فضغط بالخنجر على وجهها حتى أدماه وقمر تواصل النظر إليه بتحدٍ وهي تقمع وجعها وآهات ألمها حتى تحرمه لذة الانتصار، فلما رأى صبرها وقوتها توقف عند ذلك الحد، بينما هي تحثه على المواصلة وكأنه بالفعل كان يُقلدها الزينة وكانت هي الطامعة التي ترغب بالمزيد:

- لا تكن بخيلًا؛ وأعطني مزيدًا منها أيها الأمير.

لقد واجه ذلك الأمير الفارسي جيوشًا عنيدة، ومدنًا حصينة، وعتاة من الرجال وقد استطاع أن يتغلب عليهم جميعًا إلا أنه الآن يخسر أمام هذه الفتاة العربية الأبية فلا ينال منها حتى كلمة اعتذار واحدة، قال وهو يبعد الخنجر عن وجهها:

- ما كنتُ لأشوه وجهكِ وقد قررت أن أتخذ منكِ جارية للمتعة.

- خسئت.

- ضعوها في سِجن القلعة ريثما نُبيد أهلها بجيوشنا ثم نعود إليها لاحقًا فنُريها بأم عينيها من خسئ ومن انتصر.

**

في صباح ذلك اليوم،

ومع انطلاقة أصوات الأبواق الحربية، فُتحت البوابة الضخمة لأسوار مدينة باران الفارسية، وخرج منها جيشٌ عظيم يتلفحُ فرسانه بالسواد والحديد، يحمل الرايات السوداء الطويلة، يتقدمهم الأمير كاهان المتحصن داخل عربة مصفحة بالخشب والحديد لضمان سلامته، وإلى جانب العربة الأميرية كان هنالك فارس طويل القامة عريض المنكبين يمتطي فرسًا ضخمة، كان الفارس اسمه (البَهرام) ويعني الكوكب المنتصر، وهو قائد جيوش مدينة باران الفارسية.

أُغلقت بوابات المدينة مع خروج آخر فارس منها،

وتقدم جيش الفُرس الذي كان لفرط كثرته يبدو كما لو أنه ليلٌ سيغزو جُرم الشمس ويُطفئها .. ومع وقع خطوات جنود المشاة، والخطوات الثقيلة للخيول الفارسية بدأت الأرض تهتز شيئًا فشيئًا من تحت أقدام جيش العرب والذين وإن بدت وجوههم متماسكة في تلك اللحظة، إلا أن شيئًا من الخوف قد زحف إلى قُلوبهم وهم يشاهدون جيش العدو المهيب يَقترب منهم وقد فاقهم عددًا وعُدة.

(الحرب)

حَـــرب الليل والرمَال ..

٩

مع إشراقة الشمس،

تمركزت الجيوش الفارسية أمام جيش العرب،

فبادر الأمير كاهان بأن رفع يده من نافذة العربة بإشارة محددة ليخرج من صفوف جيشه رجل يرفع الراية الفارسية ومعها راية بيضاء هي راية الرسل، وانطلق بحصانه إلى الجهة الأخرى حتى إذا وقف قريبًا من الجيش العربي رفع صوته ليصل كلامه إلى أسماعهم:

- إننا أكثر منكم عددًا وعُدة أيها العرب، وإننا أهل قتال وصبر وحرب، ما دخلنا معركة إلا وخرجنا منها مُكللين بالنصر .. وإننا اليوم لا نجد أمامنا إلا أحد طريقين: فإما أن نُبيدكم عن وجه الدنيا ثم نُكمل الطريق إلى دياركم فنحتل أرضكم ونأخذ مالكم ونَسبي نساءكم، وإما أن تعودوا من حيث أتيتم؛ فنعفو عنكم ولا نلاحقكم.

وقعت الرسالة في نفوس العرب وقد أحدثت اضطرابًا بين الصفوف؛ حتى بان الخوف على وجوه الكثير؛ قال أحد المحاربين يُحدث من حوله ناصحًا:

- نرى أن نرجع ونختار السلامة، فالهوان أسلم من الموت، وإننا أمام جيش مديدٍ كالظلام، لا طاقة لنا بقتاله .. وتالله ما إن نهجم عليه حتى يَبتلعنا ويُكمل إلى ديارنا، فيأخذ مالنا ونساءنا وأرضنا، فلا تقوم للعرب بعد اليوم قائمة.

وسرعان ما لاقى ذلك الاقتراح قبولًا بين الكثير من المحاربين، بل وصل حال بعض سادة العرب أن يقول مقترحًا لآزر كي يحثه على اتخاذ قرار الانسحاب بصفته قائد الجيش:

- لنعد إلى الديار ثم إن شئت جعلناك ملكًا على العرب.

هنا تدخل الأمير ليث الذي صاح قائلًا:

- قَبح الله هذا الرأي، وقبح ما جئتم به .. تالله لا يستدير أحدكم حتى يستقبل رمح الفارسي بظهره .. أتظنون أنكم تصلون إلى حدود بلاد فارس وتُهددون سلامة أمنها وأسوارها ثم تُتركون بلا حساب أو عقاب ؟! .. خذوها مني وأطيعوني يا قوم فإنني لا أرى غير الثبات اليوم .. وإن استقبال الطعنات في الصدور لهو خير من استقبالها في الظهور ! ! !

ومن حيث انتهى الأمير ليث قال آزر وهو يطوف الصفوف الأمامية فوق حصانه:

-إننا أقلُّ منهم عددًا ولكننا أكثر منهم بالحق .. وإنهم ليفوقوننا عددًا ولكنهم قليلون بالباطل .. وإنني أُشهدكم يا قوم أنهم حتى لو أعادوا لنا "قَمر"، فإنني ماضٍ فيما عقدتُ العزم عليه: بأن أقطع الأكف التي تجرأت على إهانة امرأة عربية .. ليعلم الجمع ممن سكن أرضنا هذه بأن حِمى العرب ليست مستباحة، فمن أراد منكم أن يعود إلى الديار وينسحب فهذه طريق العودة يعرفها جيدًا .. ومن أراد العِزة فليثأر !! .. أيها العرب .. إن هذه الحرب هي حرب العِزة والكرامة .. وحق رب إبراهيم لو أن شياطين البر والبحر اختطفوا فتاة عربية حُرة كانت أو جارية، لما تركتها تُسبى وقد استجارت بي أنا الفارس العربي، أنا الحُر الأبي ! ! ! !

هنا انفجرت نفوس المحاربين وعلت أصواتهم وهم لا يُرددون غير كلمتين **" الثأر، الثأر "** حدّق آزر في الجهة المقابلة حيث الجيوش الفارسية والتي بدت فعلًا وكأنها الظلام لفرط اتساع رقعتها، بينما الجيش من وراءه ما يزال يردد بصوت واحد:

" .. الثأر .. الثأر .. "

اقترب آزر من الرسول وهو يمتطي ظهر حصانه الفُلك حتى بات لا يبعد عنه سوى مسافة قريبة .. وجعل يحدق إليه بتحدٍ قبل أن يبتسم في وجهه وهو يهمس له قائلًا:

- هذا جوابنا على رسالتكم "الثأر، الثأر"

١٠

لم يكن الأمير كاهان بحاجة إلى سماع رد الرسول؛ فقد كانت الهُتافات العربية الصادحة بالثأر تصل أُذنيه وتصمُّ رأسه؛ فرفع يده بإشارة محددة نحو كتيبة الشَهباء وهي من أقوى كتائب الفُرس ليبرز من بين صفوفها مقاتل ضخم فوق جواده، وقد بدا لفرط ضخامته من بعيد، وكأنه فرس نهر يمتطي حِصانًا.

تقدم ذلك الفارس الضخم بحصانه حتى وصل إلى منتصف الأرض الفاصلة بين الجيشين، ثم صاح متوعدًا وهو يترجل عن حصانه ويستل سيفه من غِمده:

- **أنا شمَّاس بن جارد؛ ليتقدم إليّ قائدكم أبارزه ! !**

وكز آزر بطن حصانه وهو يهمس "هيا، تحرك أيها الفُلك" ولكنه قبل أن يتحرك كانت هنالك يدٌ قد امتدت لتُمسك لجام حصانه وصوتُ صاحب اليد يقول:

- دعه لي.

التفت آزر نحو صاحب الصوت ليجد قَيس ينظر نحوه ويكرر:

- دعه لي.

- أما سمعته يطلبني للقتال بالاسم ؟! أم أنك تريده أن يقول جَبن قائده فأرسل من يُبارز بالنيابة عنه ؟!

- لقد سمعته يا آزر، ولكن القيادة تعني تحكيم العقل؛ وإنك القائد هنا وموتك يعني حسم المعركة؛ لذلك أطلب منك أن تدعه لي أبارزه نيابة عنك.

قال آزر وقد اقتنع بكلامه:

- لقد سمعتُ أنه واحدٌ من أقوى مقاتلي الفُرس

- لا تقلق عليَّ يا صاحبي - ثم أردف مازحًا: فقد هزمتُ من هو أقوى منه، أم أنك نسيت أنني هزمتك في مسابقة صِنديد العرب ؟!

ابتسم آزر وذاكرته تعود به إلى الوراء حيث النِزال الذي جمعه ضد قَيس، في ذلك اليوم خسر آزر بسبب الطُلسم الذي كان يضعه قَيس على عنقه وحين أدرك قَيس أنه فاز بطريقة غير شرعية تنازل عن فوزه وغادر المسابقة، اليوم فقط أدرك الاثنان شيئًا لم ينتبها إليه إلا هذه اللحظة وهو أن ذلك النِزال لم يخسر فيه أحد منهما بل فاز فيه الاثنان؛ **لقد فازا بصداقة بعضهما البعض إلى الأبد.**

قال آزر معترفًا:

-- لقد كنت أشتاق إليك كثيرًا وأنت في اليمن؛ فأرجوك لا تمت اليوم.

ابتسم قَيس من ذلك الاعتراف الذي سمعه وقال:

– بعد هذه الحرب سأعتزل التجارة في اليمن وأعود إليكم، لنسهر كل ليلة أنا وأنت وقَمر وحواء فوق الجبل، نطالع السماء بينما تقصّ علينا بُثينة القصص وتُنشد الأشعار وتغني.

– سوف ننتصر اليوم، وسنأخذ قَمر ونعود بها.

قَيس وهو يُخرج السيف من غِمده ويتأهب لخوض النِزال:

– أيًا كان ما سوف تؤول إليه نتيجة هذه المبارزة .. عليكم أن تواصلوا ما بدأناه .. ولقد وضعنا خطة سوف ينفذها الأمير ليث بن غامد في منتصف المعركة.

– ما بالك تحدثني حديث مفارق ؟

– لأننا ما جئنا هذه الحرب لنعود منها أحياء، إما أن ننتصر أو نَهلك دون ذلك.

– قطعه إربًا إربا، وإياك أن تُهزم، فجبل أبي قُبيس ينتظرنا.

قال قَيس قبل أن يتقدم بحصانه إلى ساحة النِزال:

– أمرك أيها القائد.

كان قَيس وهو يمتطي حصانه يبدو أقصر قامة من خصمه شمَّاس الواقف على قدميه .. ليس بسبب قِصر قامته بل بسبب طول خصمه المُفرط وضخامة جسده:

- أجبن قائدكم ليُرسل إلينا من يقاتل نيابة عنه ؟!

قَيس وهو يترجل عن حصانه ويستل سيفه:

- لم يجبن، ولكنه كثيرٌ عليك.

- لسانك طويل يا فتى.

- وسيفي أيضًا.

قال قَيس ذلك ثم باغته بالضربة الأولى،

وقد تلقاها المحارب شمّاس بدرعه وما لبث طويلًا حتى شنَّ عليه هجومًا مضادًا قويًا وسريع، ولم يتوقف إلا عندما تحطم درع قَيس على وقع ضربات سيفه القوية .. فهتف جنود الفُرس مشجعين وهم يشاهدون محاربهم يُحطم درع الخصم ويقترب من قتله، بينما خارت عزائم الفرسان العرب وهم يُشاهدون محاربهم يقترب من الهزيمة، أدرك قَيس تلك اللحظة أن عليه استخدام عقله في هذه المبارزة غير متكافئة القوى إن كان يريد الانتصار ..

وفكر بالتالي:

إن نقطة قوة خصمه شمّاس هي ذاتها نقطة ضعفه؛ صحيح أن جسده الضخم يوفر له القوة في تسديد الضربات .. ولكن ذلك الجسد الضخم أيضًا يجعله بطيئًا في الحركة؛ وهذا ما يجب عليه أن يستغله، فتوقف عن صد ضربات خصمه وأصبح يكتفي بأن يتفاداها، وينتظر اللحظة المناسبة للهجوم عليه ..

ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن؛

فبينما كان قَيس يتراجع إلى الخلف متفاديًا هجمات خصمه إذ تعثرت قدمه بصخرة بارزة لم ينتبه لها فسقط أرضًا؛ فأدرك شمَّاس أن فرصته قد حانت وهوى بالسيف عليه ..

لم يكن بوسع آزر التدخل؛

فتلك مبارزة رجل ضد رجل وتدخله يعني إلحاق العار بصاحبه ..

كل ما كان بوسعه أن يفعله تلك اللحظة هو أن يُغمض عينيه لكي لا يرى تلك النهاية.

علت هُتافات النصر !

ولكنها كانت قادمة من الصفوف العربية؛

الأمر الذي جعله يفتح عينيه ليتحقق مما جرى؛ فشاهد صاحبه قَيس رافعًا يديه في إيماءة منتصرة وسيفه ملطخ بالدماء، هتف آزر مع جيشه وقد أدرك الحيلة التي اتبعها صاحبه: فقَيس لم يسقط متعثرًا بالصخرة البارزة، بل كان فخًا قد نصبه لخصمه؛ فما إن سقط أرضًا حتى ظن شمّاس أنها فرصته فهوى بالسيف عليه، ولكن قَيس ناور الهجمة متفاديًا إياها ونهض من سقوطه المزيف؛ الأمر الذي أخل بتوازن شمّاس؛ فبادره قَيس بطعنة الموت قبل أن يستعيد توازنه.

صاح قَيس وهو ينظر إلى الصفوف الفارسية، ويوجه كلامه نحو الأمير كاهان متحديًا:

- جئناك بما لم تعرفه: قومٌ يُحبون الموت كما يُحب قومك الحياة.

أومأ الأمير كاهان بيده لمقاتل آخر برز من كتيبة الشهباء، كان محاربًا شديد البأس ولكن قَيس الذي كانت معنوياته مرتفعة استطاع أن يهزمه في وقت قصير .. ثم يلتفت نحو صفوف الفُرس مجددًا ويصرخ:

- أرسلوا قتيلًا آخر !

خرج له مقاتل ثالث ولكنه استطاع قتله أيضًا وإلحاقه بمن سبقه، ليرتفع حماس العرب وقَيس يلتفت نحوهم ويردد ذات الموثبات التي كانت النِسوة العربيات يُنشدنها:

" الثأر الثأر يا حُماة الدار، ابطشوا بالمهند كُل غدار،
واطفئوا بالدم لجَيج النار، أعيدوا قَمر العَرب إلى الديار،
اقتلوا الغاصب، احموا العرض، واغسلوا العار"

مع المعنويات المرتفعة لدى جيش العرب كان على الأمير كاهان أن يتصرف .. فأومأ بيده لكن الإيماءة لم تكن لصفوف كتيبة الشهباء هذه المرة بل كانت لصفوف أخرى ..

وبينما كان فرسان العرب يُرددون تلك الأهازيج فخورين بفارسهم الذي انتصر في ثلاث نِزالات متتالية، كان قَيس يقف ممسكًا سيفه الذي غدا لونه أحمر لفرط ما ارتوى من الدم .. يقف في ساحة النِزال موليًا ظهره إلى الأعداء مستقبلًا بوجهه جيش العرب، ينظر إلى شخص واحد فقط، ينظر إلى آزر لقد جمع قَيس من تجارته في اليمن مالًا وفيرًا ولكن أغلى ما قد حازه أبدًا كانت علاقته بآزر .. وقد كان يتمنى لو يهبه الله مزيدًا من السنوات فيبذلها كلها في سبيل الحفاظ على تلك العلاقة الأشد متانة وثباتًا من أوتاد الجبال .. في تلك اللحظة انطفأ الضوء في عينَي قَيس فجأة وانقطعت الأصوات في أُذنه، بينما الدنيا تدور برأسه بعد أن انغرز في ظهره سيلٌ من الأسهم، كانت قد انطلقت جميعها من صفوف فرقة الرُماة الفارسية.

ورغم إصابته المميتة، إلا أنه لم يسقط بشكل تام، بل هبط على ركبتيه وقد أدرك أنها النهاية، إذ لم يكن بوسع الأعداء أن يتخلصوا منه إلا بتلك الطريقة، رفع قَيس رأسه وشحذ كل ما تبقى لديه من قوة ليحمل بيمينه سيفه المقطر بالدم عاليًا ويَصيح في هَيبة زلزلت الأرض من حوله:

يا للعرب ! ! ! !

تلك العصرنة التي انطلقت من فمه كانت بمثابه إشاره الانطلاق لآزر الذي صاح وكأنه ينادي الحرب ويحثها على النهوض " **قومي !!** " ومع تلك الصيحة اندلعت الحرب، فانطلق العرب في مشهد مَهيب كما الرمال تغزو الليل، وارتفع صوت قَرع السيوف وصهيل الأحصنة وصرخات الرجال.

وفي أثناء ذلك أحس قَيس المغدور بطعنات الأسهم في ظهره، أحس بذراعين قويتين وحنونتين تُمسكان جسده قبل أن يهوي أرضًا، وبشخص يُسند رأسه إلى صدره.

لم يكن قَيس بحاجة لأن يفتح عينيه ليعرف ذلك الشخص فقال بصوتٍ مفارق:

– أخبرني قبل أن أموت .. أخبرني أنك فخور بي يا آزر ! !

آزر وهو يُمسك وجهه:

- قَيس، قَيس انظر إليَّ يا قَيس!

فتح قَيس عينيه بصعوبة بالغة ونظر إلى صاحبه:

- أريدك أن تعرف قبل أن تموت .. أن هزيمتك لي في مسابقة صِنديد العرب كانت الهزيمة الوحيدة التي أفتخر بأنني تَلقيتها، وأريدك أن تَعرف بأنني فخور بك، وبأنني لن أنساك أبدًا.

احتشدت دموع الفرح في عيني قَيس، وهو ينظر إليه لآخر مرة ويقول:

- كلما شعرت بالوحدة انظر إلى السماء، ستجدني هناك أنظر إليك.

أنفاس بكاء حادة احتشدت في حلق آزر وهو يقول بصوت متهدج:

- أعدك أن أثأر لعِزتنا وكرامتنا.

رفع قَيس يدًا مسح بها الدموع عن عيني آزر، ثم ابتسم في وجهه قبل أن تسقط يده؛ لقد ابتسم قبل أن يموت لأنه يعلم بأن صاحبه لا يُخلف الوعد أبدًا.

كان آزر يود لو يمكث معه مدة أطول، أن يدفنه في قبرٍ يحفره بيديه ويُنزله فيه ولكن الحرب لن تنتظره .. وعليه كقائد أن يواري دموعه عن فرسانه حتى لا تنهار عزائمهم، فمدد صاحبه أرضًا بعد أن وضع قبلة على جبينه، ثم رفع سيفه عاليًا وصاح مرددًا:

- يا للعرب ! ! !

وفرسانه يرددون خلفه: يا للعرب ! ! !

صحيح أن قَيس قد غادر الحياة،

ولكن روحه لم تغادر ساحة القتال، بل انتقلت إلى نفوس المقاتلين الذين دفعهم حزنهم عليه إلى أن يكونوا أكثر قوة مما خُيل إليهم .. وبعد فترة طويلة من بدء المعركة .. وبينما القتال محتدمٌ بين الطرفين، وكفة الميزان متعادلة إذ اقترب الأمير ليث إلى حيث كان قائد العرب يقاتل وصاح عليه:

- آزر !!

التفت آزر نحو مصدر الصوت؛ ليردف ليث قائلًا:

- حان الوقت لتنفيذ الخطة، اتبعني !!

١١

تَحرير القمر

انطلق آزر مع فرقة من الفرسان،

كان من بينهم كَعب بن الحارث بن الأجهر، والبقية هم من خيرة فرسان العرب، انطلقوا من خلف الهِضاب متسللين إلى الأسوار الخلفية لمدينة باران على ظهور أحصنتهم .. كانت استهانة الفُرس بالعرب هي حُسن الطالع بالنسبة لآزر ومن معه؛ فقد تجاهل الفُرس مسألة تأمين الأبواب الخلفية للمدينة؛ وذلك لثقتهم الزائدة بأنهم سوف يقضون على جيش العرب من الضربة الأولى.

وما إن وصلوا إلى الأسوار الخلفية حتى ألقوا بالخطاطيف التي معهم، وتسلقوا الأسوار، وما هِي إلا لحظات حتى أصبحت مدينة باران تحت مرمى أنظارهم، وهناك اقترب كَعب من آزر:

- والآن ماذا نحن فاعلون ؟!

- حسب الخطة سوف نُكمل طريقنا نحو القصر.

كعب:

- وما الذي يجعلنا متأكدين من أنهم يحتجزونها في القصر ؟

قال التاجر حسن والذي كانت له دراية في تلك المدينة وسكانها بسبب تجارته التي تجعله يتردد عليها من وقت إلى آخر:

- سوف يلجأ الفُرس لوضع قمر في أكثر مكان حصين في المدينة لضمان إبقائها بعيدة تحت أي ظرف؛ ومن المؤكد أن أكثر مكان مُحصن في المدينة هو سجن القصر.

- وكيف سنعرف القصر من بين كل هذه المباني الكثيرة ؟!

- يكفينا أن نُفتش عن المبنى الأكبر في المدينة لنجده.

راح الجميع يُفتشون عن المبنى المقصود، ولم يستغرق بهم الأمر كثيرًا حتى هتف أحدهم:

- وجدته - قال وهو يُشير بإصبعه - لا بد أن ذاك هو القصر.

كان المكان المشار إليه عبارة عن مبنى ضخمًا يقع في منتصف المدينة، ينتصب على سطحه العلوي تمثال ضخم لأسد مجنح تتقد فوق رأسه شعلة من النار.

- نعم - قال التاجر حسن - أنه القصر.

قال آزر:

- لنتحرك صوبه إذًا.

استغل الفرسان انشغال سكان المدينة بما يحدث خارجها من حرب، ووضعوا أغطية على رؤوسهم حتى لا تنكشف هيئتهم العربية، ثم راحوا يركضون بين الديار والأزقة حتى وصلوا إلى مكان يُطل على بوابة القصر فوجدوه محاطًا بفرقة مسلحة من حرس ضِخام يرتدون زيًا موحدًا، قال أحد الفرسان وكان اسمه شيبان:

- اشتباكنا مع حامية البوابة سوف يَلفتُ انتباه الآخرين بالتأكيد.

- معك حق يا شيبان - قال كعب ذلك ثم التفت نحو آزر ولمح في عينيه شيئًا:

- كأني أرى في عينيك أمرًا ؟!

بدا آزر وكأن لديه خطة ولكنه متردد في طرحها، فقال كعب:

- قل ما لديك ولا تتردد.

- أفكر بحل ولكن مخاطره عالية جدًا.

التاجر حسن متحدثًا بلسان البقية:

- إننا في خطر شديد وأي حل تقترحه لإنهاء هذا الأمر لن يكون أكثر خطورة مما نحن فيه.

كانوا يعلمون أن خطته خطيرة، وأنه ما تردد في قولها إلا خوفًا عليهم وهذا ما جعل كَعب وبقية الفرسان يُشجعونه على الإفصاح بها حتى اقتنع وقال:

- اسمعوا ..

**

(خطة آزر)

ما إن أنهى آزر شرح خطته حتى كان هو وكَعب والتاجر حسن وبقية الفرسان البالغ عددهم اثنان وعشرون فارسًا بالتمام، قد سحبوا أنصال سيوفهم وهجموا جميعًا على حرس بوابة القصر بضربة واحدة، ولكن جنود الحامية الفارسية دافعوا بأقصى ما يستطيعون لحماية البوابة؛ وقد أظهروا براعة غير متوقعة جعلت النِزال يستمر لفترة أطول، ما دفع فرسان العرب إلى الانسحاب من هناك والهرب متفرقين في أزقة وزواريب المدينة، فصاح قائد الحامية على الحراس قائلًا:

- خذوا مجموعة والحقوا بهم !

راح حرس البوابة يلحقون بالمهاجمين دون أن ينتبه أحدٌ ممن كان هناك إلى ذلك الفارس الذي إنسل من بينهم -- من بين المهاجمين العرب - خِفية مستغلًا احتدام المعركة، ليعبر من خلال البوابة ويدخل القصر بخفة تشبه خِفة الذئاب: **لقد كان المتسلل آزر وكانت هذه خطته.**

**

(داخل قصر الأمير كاهان)

ما إن أصبح آزر في الداخل حتى أدرك أن الوقت ليس في صالحه؛ وأن عليه أن يجد قَمر بأسرع ما يُمكن .. وبينما هو يفكر بخطوته القادمة إذ تناهى إلى سمعه صوت صرخة قادمة من الطابق الثاني للقصر:

- وكيف تجرأ رِعاع من العرب على قصر أمير فارسي !

تتبع آزر مصدر الصوت حتى وصل إلى حُجرة في الطابق الثاني واختلس النظر إلى من فيها: فشاهد رجلًا بدا من هيبته أنه رئيس حرس القصر، وقد كان غاضبًا وهو يستمع لأحد حراسه وهو يسرد عليه تقرير ما جرى قبل قليل في الخارج:

- ولكن حامية بوابة القصر استطاعت منعهم من الدخول يا سيدي رستم، وقد أرسلنا ببعض الحرس لملاحقتهم.

قال رستم آمرًا:

- قوموا بتعزيز الحراسة عند البوابة .. فقد يعاود أولئك الرِعاع الهجوم مجددًا في أي لحظة، وإذا حدث ذلك تأكدوا من ألّا تسمحوا لهم بالهرب هذه المرة.

الحارس قبل أن ينحني وينصرف:

- أمرك سيدي.

**

(السجن)
ثلاثة طوابق أسفل الأرض

وبينما كتيبة من الحرس تعكف على حراسة قَمر في السجن الذي يتواجد أسفل قصر الأمير الفارسي بثلاثة طوابق، إذ تفاجؤوا بقدوم الرئيس رستم إليهم وقد وقف عند حافة الباب تَغشاه ظِلال السجن وهو يأمرهم قائلًا:

- انتقلوا إلى بوابة القصر الخارجية في الأعلى لتعزيز حراستها؛ فهنالك جماعة من العرب الرِعاع حاولوا اختراق الحامية قبل قليل، وأظنهم سيعودون لتكرار المحاولة في أي لحظة.

أحد الحرس:

- وماذا بشأن الأسيرة العربية يا سيدي ؟!

- حماية بوابة القصر أهم، اذهبوا وسوف أتكفل أنا بحراسة الأسيرة ريثما ينتهي هذا الأمر.

أطاعت الكتيبة أمر الرئيس وصعدوا إلى الطوابق العلوية ليساندوا الحامية في الدفاع عن البوابة .. وما إن خلا السجن منهم حتى التفت الرئيس نحو الشخص الذي كان يقف خلفه مباشرة ويوجه خنجره إلى مؤخرة عنقه:

- لقد فعلتُ ما أمرتني به، وصرفتهم.

ضغط آزر بالخنجر أكثر على عنقه وهو يقول:

- تقدم وافتح باب الزنزانة.

اقترب الرئيس من باب الزنزانة .. ومع اقترابه زال الظلام عن وجه آزر فما إن لمحته قَمر المتكومة مثل قُبرة في زاوية سجنها، حتى أشرق وجهها بنور فرحتها وقالت:

- كنتُ أعلم أنك ستُلبي.

- لستُ وحدي، كل العرب جاءت تُلبي.

قال الرئيس متوددًا:

- يبدو أنك آزر؛ الفتى الذي تحبه قَمر والذي كانت تهذي باسمه طوال الوقت.

وهو يضرب رأسه بمقبض الخنجر:

- لا تحشر أنفك فيما لا يخصك أيها الأعجمي، وافتح باب السجن دون كلام.

ما إن فتح رستم باب السجن وخرجت قَمر حتى سارعت بأن سحبت سيف آزر من غِمده، ثم نظرت نحو رئيس القصر وقد حان أوان أخذها للثأر:

– من يَحميك الآن مني يا رستم الكلب ؟!

يعلم رستم أن العرب لا يُخلفون وعودهم؛ لذلك لم يبدُ عليه القلق وهو يقول بثقة:

– كلمه أمانٍ أخذتها من آزر.

هنا توقفت قَمر عند سماعها ذلك، بينما واصل رستم يقول:

– لقد وعدني بالأمان إذا ما صرفتُ كتيبة السجن.

أفلتت قَمر السيف من يدها وأخذت تبكي بحرقة؛ ما جعل آزر يسألها:

– أتبكين لأنني أمنته ؟

– نعم؛ فقد أمنت من خطفني، وقتل أبي أمام عيني.

التقط آزر السيف من الأرض وناولها إياه وهو يقول:

– إنه لكِ يا قَمر؛ فافعلي به ما تشائين.

تناولت قمر السيف وقد نازعتها نفسها على قتله والأخذ بثأر والدها، ولكنها في الوقت ذاته تعرف معنى الكلمة والجيرة عند العرب، وتعرف أن العربي يموت دون كلمته وقد أعطاه آزر الأمان .. وبين رغبتها الشديدة في الانتقام ورغبتها في عدم كسر كلمة آزر، قالت وهي تشير بالسيف نحو السجن:

- ادخل !

دخل رستم السجن منصاعًا إلى أمرها وهو يسألها:

- هل ستقتلينني ؟!

أوصدت الباب عليه وقالت وهي تنظر نحوه من بين القضبان:

- لا أرغب بشيء أكثر من ذلك، ولكننا قومٌ نفي بالوعود.

**

(الإشارة)

صعد آزر بها إلى الطابق الثاني حيث شرفة القصر العالية،

وهناك قام بلف قطعة من القماش على طول امتداد سيفه، أوقد فيها نارًا اقتبس شعلتها من المشاعل الكثيرة المعلقة على حيطان القصر وأخذ يلوح بها من خلال الشرفة.

وسط مدينة باران وفوق سطوح المباني المهجورة، كانت أنظار فرسان العرب معلقة على الشرفة العالية لقصر الأمير الفارسي، وهم بالكاد يستطيعون التنفس لفرط ما كانت أعصابهم مشدودة؛ لذلك ما إن لمحوا تلويحة النار حتى تعانقوا لشدة الفرح وقد تأكدوا من نجاح الخطة.

قال كَعب يحثهم:

- نفذوا ما اتفقنا عليه يا رجال ..

- سنكون عند حُسن ظنك فينا - قال التاجر حسن - هيا نتحرك ..

***

كَعب وبقية الفرسان

مثل كتلة واحدة انطلق كَعب يقود الفرسان نحو بوابة القصر، واشتبكوا هناك مع حراسها ..

عند تلك اللحظة - والحراس منشغلون بصد الهجمة - تسلل آزر مغادرًا القصر بصحبة قَمر وراح يركض بها سالكًا طريق الخروج من المدينة، ولكنه بعد لحظات من الركض انتبه لشيء غريب: لقد كان هو وقَمر فقط يركضان وحيدين، بينما ظل كَعب وبقية الفرسان في الخلف يُقاتلون حامية القصر لم يفهم آزر السبب الذي جعل الفرسان لا يلتزمون بالخطة المتفق عليها، فتوقف مكانه ليأتيه صوت كَعب آمرًا إياه:

- لا تتوقف .. اركض، خذها إلى مكة ! ! !

هنا أدرك آزر حقيقة ما يحدث: لقد غير كَعب الخطة، واتفق مع التاجر حسن وبقية الفرسان على الثبات لصد حامية بوابة القصر ومنعهم من اللحاق بهما، كانت تلك الطريقة التي سيضمن فيها كَعب والبقية نجاح خطة إنقاذ قَمر.

صاح كَعب وهو يقاتل:

- لأجلك يا قَمر، ولأجلك يا أخي ألف مرة ! !

احتشدت عينا آزر بالدموع وقد أدرك أن كَعب يعرف رابطة الدم التي تجمعهما؛ إذ يبدو أن والديهما الحارث قد أخبره بالحقيقة، طُعن كَعب في ظهره تلك اللحظة ولكنه ظل يقاتل وهو يصيح:

- لأجلك يا قَمر، ولأجلك يا أخي ألف مرة ! !

وفرسان العرب جميعهم يُحاربون ويَطعنون ويُطعنون وهم يَصيحون في حماسة:

- يا للعرب، يا للعرب ! ! !

- ماذا نفعل ؟! - قالت قَمر - أنعود فنشتبك معهم ؟!

أدرك آزر أن عودته إليهم تعني فشل الخطة، وأنه ليس عليه إلا أن يستدير ويركض قبل أن تقضي حامية القصر على كَعب والفرسان بشكل نهائي ثم يبدؤون بمطاردته هو وقَمر:

- لنبتعد.

وهكذا استدار وراح يركض معها نحو طريق الخروج من المدينة، يقوده قلبه بينما الدموع تحجب عن عينيه الرؤية، ولسانه يَلهجُ في غضب، وفرح، وقهر، وانتصار:

- لأجلك يا أخي ألف مرة ! ! !

١٢

حين أصبح خارج أسوار المدينة كان في انتظاره فريق آخر مكون من تسعة من الفرسان يمتطي كل واحدٍ منهم حصانًا، بالإضافة إلى حصان عاشر.

قال آزر:

- سوف تعودين بهذا الحصان إلى مكة.

- بل سأظل أقاتل معك.

- لا تجادليني فيما أقول يا قمر، فهذا ليس وقت جِدال.

- هذه الحرب من أجلي، وأنا سأظل أقاتل فيها ولن أغادر.

قال يصحح لها:

- هذه الحرب ليست من أجلك، بل إنها حرب العِزة والكرامة وقد ضحى الكثير من الرجال في سبيلها .. وإن شاركتِ في القِتال وقتلتِ فإنك لا تجعلين لتضحياتهم أي معنى؛ لذلك عليكِ المغادرة الآن.

كان كلام آزر منطقيًا وهذا ما دعاها لأن توافق دون جدال:

- وتعدني ألَّا تُهزم ؟!

- العربي لا يُهزم، إما أن ينتصر أو يموت وهو يحاول أن ينتصر.

قال ذلك ثم حملها بذراعين قويتين وأقعدها على متن الحصان العاشر، والتفت نحو الفرسان وقال:

- عاهدوني بالكعبة أن تحموها بحياتكم أيها الرجال.

قالوا بصوت واحد (نعاهدك بذلك) ثم انطلقت الأحصنة العشرة سالكة الطريق المؤدية إلى مكة، بينما مكث آزر يتأملهم وهم يبتعدون ويختفون خلف الهضاب البعيدة والجبال، في تلك اللحظة خُيل إليه أنه سمع صوتًا قادمًا من السماء يقول:

- لتشهد السماء أنك حارس القمر.

١٣

الليـل والرمـال

وبينما كانت المعركة حامية بين الفريقين: إذ حدث أمر قلب موازين الحرب رأسًا على عقب، فقد وصلت تعزيزات فارسية جديدة إلى ساحة القِتال؛ الأمر الذي دفع بالعرب إلى التراجع قليلًا واتخاذهم وضع الدفاع محاولين قدر المستطاع عدم فتح ثغرات في جيشهم .. يطمحون فقط للصمود إلى وقت مَغيب الشمس؛ فتكون لديهم الفرصة في الظلام لتنظيم الصفوف ومداواة الجرحى.

ولكن يبدو أن الأمير كاهان كان يُدرك الحالة الصعبة التي وصل إليها جيش العرب؛ ويدرك حاجتهم الماسة إلى مَغيب الشمس فقال يُحادث قائد جيشه البَهرام قائلًا:

- علينا منعهم من الظلام، إن كنا نريد القضاء عليهم اليوم.

البَهرام مقترحًا:

- ذلك الأمير يا سيدي، الذي ينادونه ليث.

نظر الأمير كاهان نحو قلب جيش العرب، فوجد محاربًا سفاحًا متقدمًا في العمر، لحيته البيضاء استحالت إلى اللون الأحمر لفرط ما سفك من دماء أعدائه:

- أراه، فما به ؟

- إنه أمير قومه، وبقتله سوف ينهار جزء كبير من جيش العرب، فنحصدهم قبل مَغيب الشمس.

- اؤمر فريق الرماة إذًا.

يعلم القائد البَهرام جيدًا أنه في هذه المرحلة وبينما الجيشان مشتبكان، سيكون من الخطأ اللجوء إلى فرقة رماة السِهام؛ وذلك لأن السِهام العشوائية لن تُصيب العرب فقط، بل سوف تُصيب معها أيضًا جنود الفرس؛ لذلك كان عليه أن يختار قناصًا ماهرًا يُصيب هدفًا واحدًا محددًا من جيش الأعداء، فاختار من فريق الرُماة قناصًا قال له:

- أترى ذلك الأمير الذي يُنادونه ليث ؟!

**

بعد مدة من ذلك وبينما كان الأمير ليث بن غامد السيف يقاتل بشراسة ويبطش بكل مقاتل يلتحم معه في المعركة إذ انطلق نحوه رمح غادر استطاع أن يُصيبه في جسده ويستقر في ظهره .. كان جرحًا بليغًا ذاك الذي أصاب الأمير فثار مقاتلو الجنوب وهم يُحيطون بأميرهم لحمايته وهم يصيحون:

- أُصيبَ سيدنا، أُصيب سيدنا !

صاح الأمير ليث يخاطب الفرسان وهو ينزف الدماء من فمه:

- كلنا يَموت، وشرف الرجل أن يموت محاربًا في سبيل الحق، فلا تخذلوا العرب يا أبنائي؛ فيُهزموا اليوم بسببكم - وصرخ: قاتلوا، قاتلوا، قاتلوا، قاتلوا، فأهل الجنوب لا يُهزمون، ولا يخذلون أصحابهم.

عاد لواء الجنوب يستعيد توازنه وكل فرسانه يَصيحون:

- قاتلوا، قاتلوا، قاتلوا ! ! ! ! !

بخبرته في الحرب كان يعلم أن سقوطه يَعني سقوط أرواح مقاتليه؛ لذلك بذل كل ما يستطيع ليَقف ويستمر في القتال رغم جرحه المميت، وقد حاول الفُرس استهدافه مرة أخرى، لكن رجال العرب كانوا لهم بالمرصاد فيصدون الرِماح الغادرة بدروعهم وبأجسادهم إن لزم الأمر ..

فطن آزر لما كان يحاول أن يفعله جيش الفُرس، وما كانوا يخططون له وأدرك أن عليه اتخاذ خطوة جريئة لا عقل فيها لإنهاء الخطر الذي يُهدد جيشه وصاحبه ليث؛ فأرخى لجام حصانه من يده وهو يلكز بكعبيه بطن الحصان ويصرخ في أذنه:

- هيا فُلك، هيا فُلك - ثم صاح وسط فرسانه:

- لا يمتطي الفُلك إلا حارس القمرِ ! ! !

سرعان ما التقط حصانه الإشارة وانطلق به نحو المكان المُراد حيث قلب الجيش الفارسي، وتحديدًا نحو المكان الذي تتمركز فيه عربة أميرهم كاهان .. وقد أشعلت تلك الخطوة المجنونة شرارة الحماس في بعض فرسان العرب، فصاحوا يُرددون كلمته وهم لا يعرفون معناها الحقيقي المُشتق من نبوءة الكاهن:

- لا يمتطي الفُلك إلا حارس القمرِ ! ! !

وانطلقوا وراءه في مهمة انتحارية، لن يخرجوا منها إلا بمعجزة كبيرة.

**

(قَلب الخطر)

كان هجوم آزر والفرسان الذين معه والبالغ عددهم أربعون فارسًا، خطوة صاعقة أربكت الفُرس وجعلتهم يجتمعون في القلب لحماية أميرهم؛ مما حرر الضغط قليلًا عن جيش العرب وأعطاهم الفرصة لالتقاط الأنفاس وتنظيم الصفوف .. واصل آزر تقدمه حتى اقترب كثيرًا من عربة الأمير ولكنه عجز عن الوصول إليها لكثرة ما احتشد حولها من جنود، ولما أدرك أن مهمته مستحيلة قرر التراجع، ولكن قائد الجيش الفارسي البَهرام صاح في جنوده قائلًا:

- إنه قائد جيش العرب، لا تدعوه يُفلت.

سرعان ما أدرك الفُرس أي صيدٍ ثمين وقعوا عليه؛ فطوقوا الحصار على آزر ومن معه وقد حجبوا عنهم فرصة الخروج، ومنعوا جيش العرب من الدخول وإنقاذه .. وهكذا لم يعد أمام آزر ومن معه إلا أن يحاولوا قتل أكبر عدد من الأعداء قبل أن يتم القضاء عليهم.

**

(التعزيزات الأخيرة)

هُنا،

وفي تلك اللحظة الحاسمة،

ارتفعت أصوات تعزيزات أخيرة غير متوقعة قادمة لصالح العرب،

التفتت الجيوش نحو تلك التعزيزات ليشاهدوا شيئًا لم يَسبق لهم أن شاهدوا مثله من قبل .. كانت التعزيزات هي زُمرة ذئاب الوادي، تتقدمها ذئبة ضخمة سوداء تعدو بقدم عرجاء وليس لها إلا هدف واحد وهو **حماية جروها المُحاصر في قلب الخطر**. اخترقت زُمرة الذئاب عُمق الجيش الفارسي؛ ما جعل الرعب يخلع قلوب الفُرس ويُضعضع صفوفهم؛ ليغتنم العرب هذه الفرصة الثمينة ويتسللوا من بين الثغرات التي انفتحت في صفوف الأعداء إلى داخل عمق الجيش الفارسي، في مشهد عجيب لم يسبق للتاريخ أن دوّن مثله من قبل- فرسان العرب وذئاب الوادي - كالرمال يهجمون على الليل ويَدحرون ظلامه.

مستغلًا تلك الفوضى تسلل آزر نحو العربة الأميرية المصفحة وقد انفتح الطريق إليها، ليخلع بابها ويقتحم مقصورتها ثم يسحب الأمير كاهان من داخلها ويقذف به إلى الخارج، فيسقط الأمير أمام جنوده ومقاتليه، وصوت آزر يصيح عليه:

- انهض ! ! !

١٤

النِزال

الأمير كاهان وهو ينهض:

- لقد ارتقيتَ مكانة عالية أيها العربي الدنيء.

- بل الدنيء هو من يتجرأ على مد يده إلى شيء ليس له حقٌ فيه، لقد أمرت فرسانك بخطف فتاة عربية .. وما كنتَ تعلم أنك بذلك تأمرهم بحفر قبرك.

- إنكم أيها العرب متخلفون همج.

- إذا كان عِقاب المعتدي في نظرك تخلفًا؛ فنحن أكثر أمة متخلفة على وجه الأرض .. أشهر سيفك أيها الأمير وقاتلني؛ لكي لا يقول أحدٌ أنني انتصرتُ غدرًا.

**

آزر ابن ذئبة الوادي، والأمير كاهان.

سحب الأمير كاهان سيفه .. واشتبك مع آزر في عِراك عَنيف توقف على إثره الجنود - جنود الجيشين - وأخذوا يَشهدون المعركة المصيرية بترقب وانتظار.

تعالت غبرة المبارزة بسبب تحرك الأقدام السريعة والقوية على الرمال حتى تصاعد الغبار وحجب الرؤية عن الجميع .. استغل قائد الجيش الفارسي البَهرام ذلك الأمر وولج عَتمة الغبار دون أن يلحظه أحد وراح يُقاتل إلى جوار سيده الأمير، فكانت معركة غير متكافئة الأطراف، لكنه رغم ذلك استطاع أن يصمد أمامهما لفترة طويلة؛ لأنه كان يُقاتل بسلاحيه - السيف والدرع الخفيف المُؤطر بشفرات حادة - وسلاح ثالث هو: **الخيال الذي طورته له معلمته العامرية من خلال تدريب عقله على قراءة القصص؛ فكان يسبق خصميه دائمًا بخطوة عن طريق توقع أماكن الضربات التي يوجهانها إليه عبر استخدامه قدرة الخيال العالية، فيسبقهم بالدفاع والمناورة وتوجيه الضربات.**

كان آزر يقاتلهما في جوف الغبار متخيلًا ما يحدث وكأنه أحد نزالات صِنديد العرب. الفرق أنه تلك اللحظة كان يتخيل الأموات هم جمهوره الذي يُصفق له ويشجعه، ففي لوعة المعركة كان بوسعه أن يرى أمه النوراء، ومعلمته العامرية، وصاحبه قَيس، وأخاه كَعب، وسيده عامر، كل أولئك كانوا جمهوره الذين يضعون فيه كامل إيمانهم، ويَعقدون الرهان على فوزه .. فكانت الهزيمة خيارًا غير متاح بالنسبة إليه، حتى وإن كان في جوف الغبار يقاتل وحده جيوش العالم أجمع.

في الطرف الآخر - من ذلك النِزال غير المتكافئ - واصل الأمير كاهان وقائد جيشه البَهرام مبارزته وتوجيه الضربات إليه قاصدين قتله بأي طريقة كانت، ولكن آزر كان لهما بالمرصاد وقد صمد أمامهما مدة أطول بكثير مما كانا يتوقعانه، حتى إذا حانت اللحظة المناسبة هجم عليهما في وقت واحد.

وفجأة هدأ صوت القرع - قرع السيوف - داخل جوف الغبار،

والجيشان ينتظران النتيجة، ليخرج بعد لحظات من جوف الغبار فارس كأنه العنقاء يُولد من وسط رماده، جسده مُزدانٌ بالعرق والجروح والدماء، يُعلق سيفه ودرعه الخشبي على ظهره، ممسكًا بيديه رؤوس أعدائه.

**

ومع قتل الأمير وقائد الجيش انهارت الروح القتالية لدى جميع أفراد الجيش الفارسي، ليفر أغلب الجنود هاربين بينما البعض الآخر يُلقي سلاحه من يده مستسلمًا، بينما صيحات العرب ترعد وتَبرق ويصل مداها عنان السماء:

يا للعرب !!

يا للعرب !!

يا للعرب !!

النهايــة ..

١٥

بعد أن وضعت المعركة أوزارها، أخذ المقاتلون العرب يَسوقون الأسرى ويجمعون الغنائم وانبرى بعضهم لمداواة الجرحى ودفن قتلاهم. وأثناء ذلك كان لَفيف من الفرسان يجتمعون حول شجرة ذات جذع متين، وافرة الأغصان يستند على جذعها الأمير ليث وبيده الثانية يتكئ على سيفه، وقد كاد جسده في تلك اللحظة أن يميل نحو الأرض لولا أن تلقاه آزر بذراعيه وأسنده:

– لقد انتصرنا يا صاحب السجن.

ابتسم ليث كاشفًا عن صفٍ من الأسنان البيضاء من وراء شاربه وذقنه المخضبين بلون الدماء، وهو يرفع رأسه وينظر إلى عيني آزر ويقول في ثقة ورضى:

– ما كان لأمر أجمع عليه العرب إلا أن يتم.

ثم التفت نحو لَفيف فرسان العرب الذين جاؤوا ليشهدوا رحيله، وقد لمح فيهم حزنًا عميقًا يسكن وجوههم تلك اللحظة.

فقال يعاتبهم:

- ينبغي عليكم أن تَفرحوا لما أنا فيه، فكلنا ملاقٍ أجله، ولكن خيرنا من يموت في سبيل الدفاع عن عرضه .. وإنني لسعيد أن أودع هذه الحياة وعيناي تشهدان العرب وقد أصبحوا لُحمة واحدة.

ثم أردف يتلو كلماته الأخيرة وهو ينظر إلى السماء:

" ألا لا يَظلمن أحدٌ علينا؛ فنُثكل فيهم الطعن الكثيرا،

ونشرب الدم إن أتينا حربًا .. ونَسقي النفس نصرًا مجيدًا،

ألا أبلغ ملاقينا اليقينا: بأنا نُمطر العدو نارًا إذ تلاقينا،

ونعصف فيهم قتلًا ونحن العاصفينا "

ومع آخر كلمة نطقها فاضت روحه، ومال رأسه إلى كتف آزر الذي لم يَقاوم دموعه وهو يُغلق عينيه براحة كفه، ثم يضع قبلة على جبينه ويقول في صوت متهدج باكٍ:

- وداعًا يا صاحب السجن.

ولما كان آزر يعلم أن صاحبه ليث لا يحب البقاء وحيدًا؛ فقد عَمد إلى دفن قَيس إلى جواره ليؤنس وحدته هناك .. وبعد أن انتهى من دَفنهما وقف في صمت احترمه من حوله من الفرسان، بينما كانت أمه الذئبة إلى جواره تقف على قوائمها الخلفية تتطلع إلى القبرين في حُزن واضح، قال آزر بصوت غلبته العاطفة يحادث صاحبيه أسفل التراب:

- كنتما نِعم الرفيقين في هذه الحياة، وغادرتما قبل أوانكما، وإني لأسأل السماء ألا تُطيل بقائي بعدكما؛ لكي لا أشقى بهذا الفِراق طويلًا.

في تلك اللحظة بدأ هتان خفيف بالتساقط، ومع تبلل وجهه بقطرات المطر ابتسم آزر بحزن وهو ينظر صوب القَبرين، وقد خُيل إليه في تلك اللحظة، أنه يسمع صوت صاحبه ليث بن غامد السيف وهو يخاطب جاره قَيس بن هامة الشمال من خلف حائط القبر، بنفس العبارة التي خاطبه بها أول مرة من خلف حائط سجن الجبل، قبل ستة أعوام خلت:

" **نِعم الفتى أنت يا قَيس** "

**

عند الفجر،

اصطف الجيش العربي يتقدمهم آزر الذي ما إن تأكد من الجاهزية حتى أعطى لهم الأمر بالزحف غربًا .. فسار الفرسان وزُمرة الذئاب تحفهم من اليمين والشمال، مُكللين بالنصر والظفر عائدين إلى وادي مكة العظيم.

**

بعد تلك المعركة،

سوف يَسطع نجم آزر ويَعلو صيته بين الناس،

سوف تُمجده العرب ويُخلده التاريخ في صفحاته عبر الزمان،

ويَنال نبوءة الكاهن التي كان يسعى إليها طوال حياته؛ فبعد أن ظل طوال عمره مجهولًا غير ذي نسب تُنكره الناس وتنفر منه .. ها هو اليوم يستحيل إلى البطل الذي انتصر لعزة العرب وشرفهم .. الرمز الذي يتفاخر به قومه وأنه واحدٌ منهم، ويتباهى فرسان العرب الغطاريف أنهم خاضوا المعارك تحت رايته ولوائه، ويتمنى صِبية الجزيرة العربية أن يكبروا يومًا فيحاربوا تحت قيادته.

لقد كانت العامرية صادقة حين قالت له ذات مرة: بأن الإنسان وحده من يَملك بداخله عوامل فنائه أو بقائه، فلا الجماهير التي تهتف باسم الخصوم، أو المكائد التي تُحاك، أو الحروب التي تُشن، لا شيء يستطيع أن يهزم الإنسان إلا إن سمح الإنسان له بذلك .. لقد وُلد آزر في بيئة كان جميع من فيها يتآمر عليه ويُثبط من عزيمته ويُحطم فيه مجاديف الأمل، ولكنه اختار أن يَصمَّ أذنيه عن بذيء الكلام ويُغلق عينيه عن ضغائن الأمور، وينطلق نحو هدفه محصنًا بثقته التامة بربه وإيمانه بنفسه وقدراته، حتى استطاع أخيرًا أن يهزم هزيمته ويحوز نصره المبجل، وبذلك استحق ذلك الفتى أن يستحيل إلى أسطورة سوف يَرويها القصَّاصُون ويكتبها المؤرخون: آزر حارس القَمر، أو كما يُفضل هو أن يُسمي نفسه: " **آزر ابن ذئبة الوادي** "

ولكن الدرس الأهم الذي تعلمه ذلك الفتى من كل المعارك والحروب التي خاضها في حياته: هو أن لكل إنسان نبوءة تُولد معه؛ فينعقد تحقيقها بما يقرر أن يفعله؛ فالإنسان لا يَنال المجد بلقب قبيلة يحوزه بالوراثة من أجداده، ولا بمال يجمعه، أو بمحبة الناس له، أو باعترافهم به، إنما يَنال الإنسان مجده بفعل يده.

رفع آزر رأسه إلى الأعلى بينما كان على مقدمة الجيش ممتطيًا حصانه وإلى جواره تَسير أمه الذئبة. كان رذاذ المطر ما يزال يتساقط على وجهه الجميل، يَغسل عنه آثار الطين والدماء فابتسم .. ابتسم لأنه لمح بين ومضات البرق وجوهًا يُحبها وتحبه، كان معها طوال حياته وكانت معه، ستشتاق إليه وسيشتاق إليها كثيرًا، جميعهم قالوا له تلك اللحظة شيئًا دسته الرياح في أذنه:

- لستَ وحدك.

آزر

ابن ذئبة الوادي

رأيتُ أني ألِدُ قمرًا يصعد إلى السماء،
يُضيء بنوره جزيرة العرب.



أحمد آل حمدان

إرفاء
ERFAA
9 786038 467442
erfaa_pd